

روايات جائزة نوبل

جون شتاينبيك

مراعي الفروس

13

الدار المصرية اللبنانية
ترجمة خديجة خطاب

روايات جائزة نوبل

13

روايات جائزة نوبل

سلسلة تصدرها

الدار المصرية اللبنانية

المدير العام : محمد رشاد

رئيس التحرير : فتحى العشرى

الإعداد والصياغة : محمد فتحى

١٦ ش عبد الحالىق ثروت - القاهرة

تليفون ٠ ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس ٣٩٠٩٦١٨ - بريقياً دار شادو

ص ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

رقم الإيداع : ١٩٩٧ / ٩٠٢١

الترقيم الدولى 5 - 378 - 270 - 977

جميع حقوق الترجمة والطبع والنشر محفوظة للناشر

الطبعة الأولى شوال ١٤١٨ هـ - فبراير ١٩٩٨ م

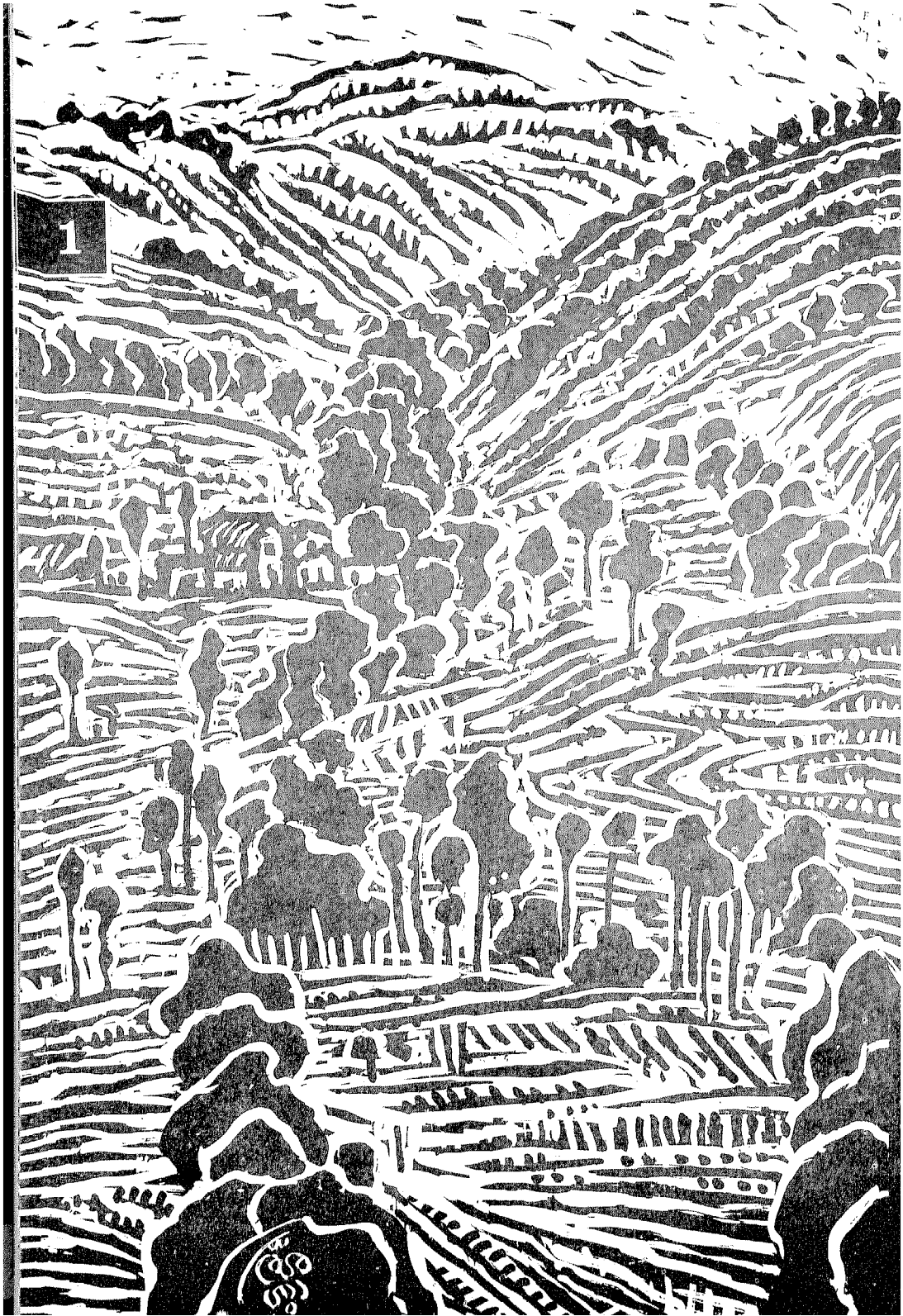
مراعي الفردوس

Pastures of Heaven

جون شتاينبك

نوبل / 1962

ترجمة خديجة خطاب



1

في مدينة « التا » بولاية « كاليفورنيا » . . ارتدَّ عن الدين المسيحي ذات ليلة من ليالى عام ١٧٧٦ عشرون عاملاً من الهنود الحُمر الذين تَنَصَّرُوا من وقت قريب ، وكان ذلك أثناء تشييد « إرسالية كارميلو » ، وبإشراقه الصباح كانوا قد تركوا أكواخهم وهربوا . . بالإضافة إلى أن هذا الارتداد شكّل ظاهرة غير مرغوب فيها ، وقد شلَّ حركة العمل ، فقد كان هؤلاء العمال يصبُّون الطين لصناعة قوالب الطوب .

بعد اجتماع السلطات المدنية والدينية توجهت مجموعة من الجنود لردِّ هؤلاء المنشقين إلى حضن الكنيسة الأم . . وقد كانت رحلة شاقة لهؤلاء الجنود عبر « وادى الكرمل » وما بعده من جبال ، فلقد أثبت الهاريون من المرتدين أنهم على خبرة كبيرة وفكر جهنمى في إخفاء الأثر والتخفى . . ومر أسبوع قبل تمكّن الجنود من العثور عليهم ، إلى أن اكتشفوهم أخيراً في قاع وادٍ أخضر ينساب فيه ينبوع ، وكان المرتدون العشرون مستغرقين في نوم عميق . . وقد قبض الجنود الساخطون عليهم وقيدوهم بسلسلة طويلة في صف واحد ، وعادوا مُصطَحِّين الأسرى إلى « وادى الكرمل » ليتيحوا لهم فرصة التوبة والتكفير عن ذنبهم أثناء العمل في مصانع الطوب .

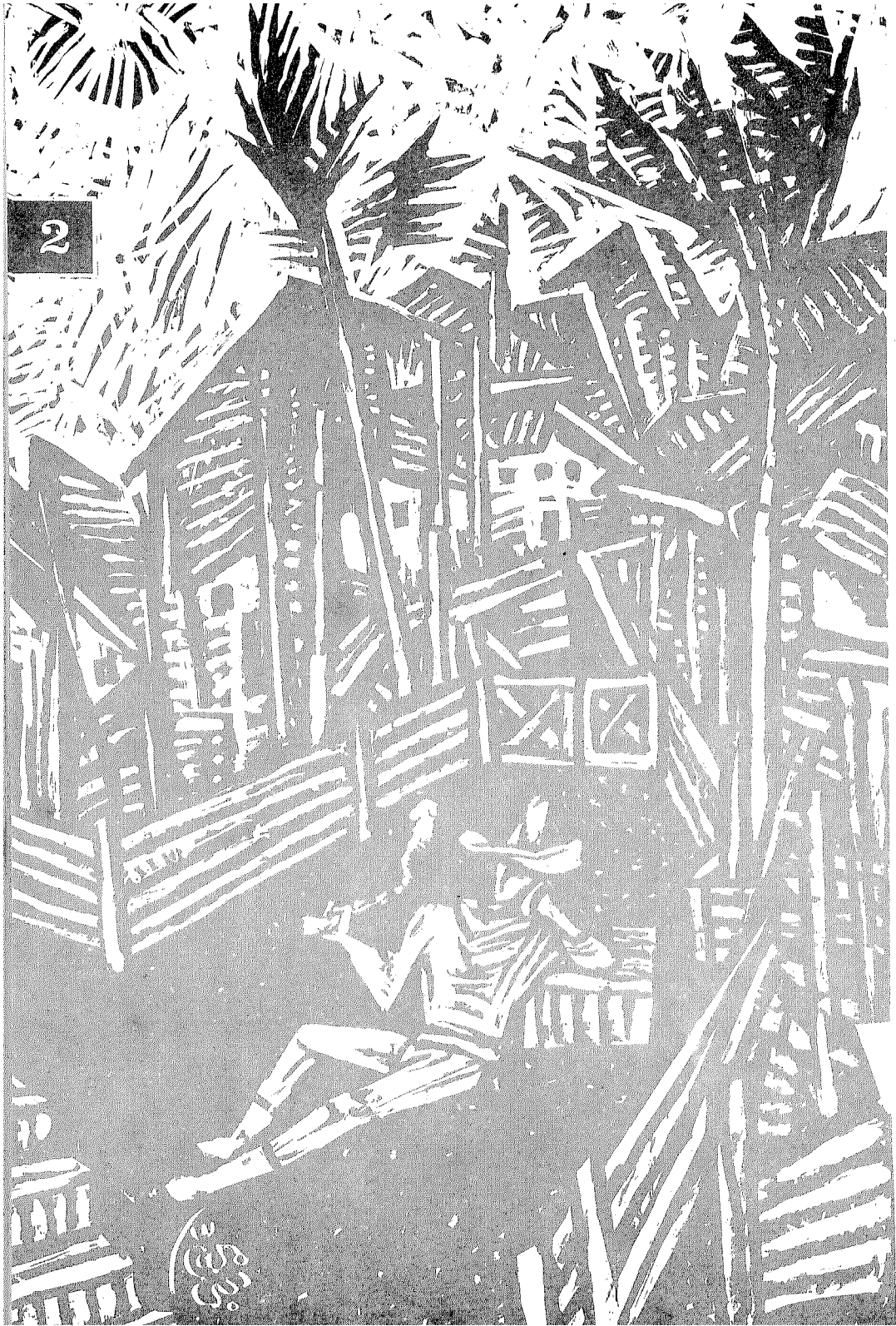
وفي عصر اليوم التالي قفز غزالٌ صيني أمام الجنود وتَوَارَى عن الأنظار خلف قمة صغيرة ، فترك أحد الجنود موقعه واندفع على حصانه يُطارِد الغزال ، وقد تعثر جواده الضخم وهو يصعد السفح الشديد الانحدار ، في حين كانت أغصان أشجار المانزانيتا كالمخالب تُخدش وجه الجندي الذي استمر - على الرغم من ذلك - في المطاردة من أجل عشاء شهى . . . وفي دقائق كان قد اعتلى القمة ووقف لاهتَ الأنفاس متعجباً لما يرى . . . فقد وجد وادياً طويلاً واسعاً ، تكسوه المراعى وأشجار السنديان النامية ، في هذا الوادي الظليل الذي احتضنته التلال لتحميهِ من الريح والضباب . . . ووقف الجندي مشدوهاً أمام هذا الجمال الصافي ، وهو الذي طالما جلد الظهور السمراء حتى تمزق ، لدرجة أن هذا الرجل المنتمى إلى جيل المتوحشين نزل عن جواده رافعاً خوذته باحترام وهو يهمس :

ايتها الأم المقدسة . هاهي ذى مراعى الفردوس الخضراء التي يدلنا الله إليها .

أما وقد أصبحت سلالته الآن تميل إلى البياض فإننا لا نملك إلا تصور قدسية شعوره عند اكتشاف هذا الوادي . . . وقد ظل الاسم الذي أطلقه على هذا الوادي الرائع الممتد بين الروابي باقياً ، فهو معروف حتى اليوم « بمراعى الفردوس » ، وبالمصادفة الرائعة لم تقع هذه المساحة من الأرض تحت قبضة قانون الإقطاع ، فلم يمتلكها أى نبيل إسباني ، وبقيت هذه البقعة مدة طويلة منسية بين الروابي التي تحيط بها . . . كان الجندي الإسباني الذي اكتشفها ينوى العودة إليها دائماً ، فهو كغيره من الرجال العتاة ، كان يحلم بشوق عاطفي ، وبفترة من السلام والسكينة قبل موته ، يستمتع خلالها في بيت يُشيده قُرب الساقية ، والماشية تمسح رءوسها في

جدرانه ليلاً . . وكان هذا الجندي قد أصيب بمرض الزهري من امرأة هندية . . عندما بدأ وجهه يتأكل ، حبسه أصدقاءه مخلصون في حظيرة قديمة لمنع انتقال العدوى . . وهناك مات في هدوء ، فالزهري على الرغم من منظره المشوه ليس صديقاً سيئاً لمن يُصاب به .

وبعد مرور وقت طويل انتقلت عدة عائلات لتمتلك مراعى الفردوس بوضع اليد ، فبنت الأسوار ، وزرعت أشجار الفاكهة ، ولما لم يكن للأرض مالك فقد تنازعت هذه العائلات طويلاً على ملكية الأرض . . وبمرور مائة عام على ذلك كان هناك عشرون أسرة تقيم في عشرين مزرعة صغيرة في مراعى الفردوس ، وتم إنشاء مخزن كبير ، ودائرة بريد في وسط الوادى ، وعلى بُعد نصف ميل بالقرب من « الجدول » مدرسة ظهر عليها أثر الزمن ، وكثرت الكتابات على جدرانها . . وأخيراً عاشت هذه العائلات في رخاء وسلام ، فقد كانت الأرض خصبة لا تحتاج إلى جهود كبيرة ، وكانت الفواكه في بسايتها من أفضل ما ينتج في كاليفورنيا .



على الرغم من خصوبة الأرض وجودتها وسهولة الري في مزرعة «باتل» ، فإن أحدًا من سكان الوادي لم يطمع فيها أو يرغب في الإقامة بها ، فقد كانت مزرعة ملعونة في نظر سكان «مراعى الفردوس» ، وكانت مسكونة بالجن والعفاريت في نظر أطفالهم . . وكانت هذه الأراضي والبيوت المهجورة تبدو دائماً متشحة بالكآبة والتشاؤم لنبذها بعد أن كانت موضع حب ورعاية . . أما الأشجار التي تنبت حول البيوت المهجورة فكانت أشجاراً نحيفة ، توحى ظلالها بأشياء كثيرة . . ظلت هذه المزرعة مهجورة خمسة أعوام ، فنمت النباتات الطفيلية بحرية وحيوية بلا خوف من الاقتلاع حتى أصبحت بحجم الشجيرات . . وفي البستان تشابكت أشجار الفاكهة وقوبت ، وتضاعفت أعداد الثمار وقل حجمها وجودتها ، ونبت «العَلِّيق» حول جذورها ، ومنع عنها التنفس والهواء .

أما البيت نفسه فكان مربع الشكل ، جيد البناء ، يتكون من طابقين . . كان جميل المنظر عندما طُلِيَ باللون الأبيض ، ولكن الزمن الذي اتخذ هذا البيت مسرحاً له ترك عليه بصمة من الوحدة غير المحتملة ، وكُسِيتِ النوافذ بالأعشاب ، وأصبح اللون الأبيض رمادياً بفعل العوامل

الجوية . . وساعد الأولاد الزمن فيما يشنه من حرب تدميرية على المكان ، فحطموا النوافذ ، ونقلوا كل ما يمكن حمله ، فكانوا يظنون أن هذه الأشياء بلا صاحب ، ويمكنهم إذا نقلوها إلى منازلهم أن يستخدموها استخداماً مفيداً . . فنهب الفتيان « المنزل » ، وامتلأت البئر بكل أنواع الفضلات ، كما أحرفوا - رغماً عنهم ذات مرة وهم كانوا يدخنون في الحظيرة - مخزن المحاصيل . . وألصقوا تهمة هذا الحريق بعابري السبيل .

ولم يكن مكان هذه المزرعة المهجورة يبعد عن قلب الوادى الضيق ، كما كانت محاطة من الجانبين بأجود المزارع في « مراعى الفردوس » ، وقد اعتبرها سكان الوادى بؤرة سر ، إذ وقع فيها حادثٌ فظيع ، ولغز شديد الغموض .

عاش « جبلان » - وهو واحد من أسرة « باتل » - في المزرعة التي قدم إليها شاباً في سن الخدمة العسكرية . . وأمدته والدته بالمال لبشئى المزرعة وبنى البيت مربع الشكل فيها . . وعندما أتم « جورج باتل » بناء البيت أرسل إلى والدته لتعيش معه . . ولما حاولت السفر إليه - وكانت سيدة عجور نعبر أن أبعاد مسافة هي عشرة أميال من هربنها - رأته في طريقها إليها. أماكن لم تخطر لها على بال ففند رأته « نيويورك » و « ريودي - جانيرو » و « بيونيس إيرس » ، و « ريف ، بالقرب من « باناجوسا » ، هافن ار بان الماركة ، في قاع « الأوقبانوس » داخل كيس سسلك بدلاً من الكس ، بها ان رباتارا قدمبها بحلقة من سلاخ ان المرساة ، وكانت هذه السيدة المسكسة بود او تدفن في مقبرة القرية القديمة . . وبدأ « جورج باتل » - في حفر مشروع زواج مربع . وفي سالت ان وحده الأسة « ميريل كناه برين » ، وكانت عانساً في الخامسة والار من العمر ، ودات ثروة صغبره ، وكان السبب

وراء بقاء الأنسة «ميرتيل» دون زواج هو أنها مصابة بالصرع، الذى كان يطلق عليه «النوبات»، وكان يفسره عامة الناس بغضب الآلهة، ولكن جورج لم يهمله إصابتها بالصرع، فقد كان مقتنعاً أنه لا يمكن أن يحصل على كل ما يتمنى، وهكذا تزوج «ميرتيل» التى أنجبت له ولداً.. وبعد أن حاولت مرتين حرق المنزل حُجزت فى سجن خاص صغير يدعى «مصحة ليهان» فى مدينة «سان جوزيه»، وهناك أمضت الأعوام الباقية من عمرها، وهى تطرز بخيوط من الفظن صوراً رمزية لحياة المسيح، ومنذ ذلك الحين أدارت شئون المنزل سلسلة من مديرات المنزل السيئات طبعاً وخُلِقاً، وكُنَّ من ذلك النوع الذى يعلن عنه نفسه فى الصحف على النحو التالى: «أرملة فى الخامسة والأربعين تطلب عملاً كمديرة منزل فى مزرعة».. أو «طباخة ماهرة تهدف إلى الزواج».

وكُنَّ يأتين إلى المزرعة الواحدة بعد الأخرى يصطنعن الرقة والحزن فى الأيام القليلة الأولى، ويبقين كذلك إلى أن يكتشفن ما حدث «لميرتيل» فينتقلن فى المنزل بعيون يملؤها الشر، كما لو كُنَّ ضُرِرْنَ نفسياً.

أصابت الشيخوخة «جورج باتل» وهو مازال فى الخمسين، عاكفاً على عمله طيلة وقته بلا تسلية أو ترويح، فلم تكن عيناه تُرْفَعَانِ عن الأرض التى كان يعمل فيها بصبر كبير، وقد اخشوشنت يدها واسودتْها وامتلاتا بالندبات والخطوط كبطن الدب.

أما مزرعته فكانت جميلة، وكانت أشجار الحديقة تُماثل كل منها الأخرى، مشدَّبة مقلمة، وكانت الخضراوات تنمو يانعة خضراء فى صفوف مستقيمة، وكان جورج يهتم بمنزله ويعتنى به، فزرع حديقة

زهور أمامه ، ولكنه لم يسكن قَط الطابق العلوى من المنزل . . كانت المزرعة كقصيدة نَظَمَهَا رجلٌ أبكم . . فلقد زرعها وتعهدا بصبر ، وأخذ ينتظر عروس أحلامه ، ومع أنها لم تأتِ فإنه أبقى الحديقة يانعة فى انتظارها ، فى حين لم يهتم بابنه فى أعوام عُمَره إلا قليلاً فلم يكن يهتم إلا بأشجار الفاكهة وصفوف شتلات الخضروات اليانعة . . بل إنه لم يفتقد ابنه « جون » عندما تركه ليتنقل فى عربته مبشراً بالمسيح . . فقد مضى « جورج باتل » فى عمله وانحناء ظهره تجاه الرأى يزيد عاماً بعد عام .

أما جيرانه فلم يتبادلوا معه أى حديث على الإطلاق ، لأنه لم يكن يهتم بأى حديث معهم ، وبمرور السنين استدارت كَفَّاهُ وتجوفت ، بحيث تلتصق فيها أدوات الزراعة بشكل تام . ولما بلغ « جورج باتل » الخامسة والستين مات متأثراً بالشيخوخة والسعال ، وعلى الفور عاد « جون » ليطألب بميراثه فى المزرعة ، فى حين ورث عن والدته الصرع وادعاء التدين بجنون ، وكرس « جون » حياته لمحاربة الشياطين ، فكان يمضى الوقت متنقلاً من مُحِيمٍ إلى آخر ملوحاً بيديه ، منادياً الشياطين ، لاعناً إيَّاهم ، ومُستعيذاً منهم .

وبعد وفاة الأب ، وعودة « جون » ، كانت الشياطين مازالت بحاجة للاهتمام ، وكانت صفوف الخضروات المبدورة تحاول النمو مراراً ، ولكنها استكانت ورزحت تحت وطأة الأعشاب الطفيلية ، وانزلقت المزرعة وعادت إلى أحضان الطبيعة . . واشتدت قُوَّةُ الشياطين شراً وإلحاحاً ، وكإجراء وقائى طرز « جون » ملابس بصليبان صغيرة من الخيوط البيضاء ، وكأنه بذلك يتسلح ليشرب الحرب على جيوش الظلام . وكان يتسلل فى جانب الحديقة عندما يجلس الليل مُمسكاً بعصا غليظة ، فيهاجم الشجر

وجنباة الزهور ويضربها بعصاه وكأنه يطعن الشياطين حتى تخرج من مخابئها . فكان يتسلل بالليل ليهاجم اجتماعات الشياطين ويندفع بشجاعة ويهجم بعصاه ، أما أثناء النهار فكان ينام في منزله ، لأن الشياطين لا تعمل نهاراً .

وذات يوم تسلل « جون » بحذر عند اشتداد الظلام إلى الزنابق في صحن داره ، فقد تصور أن الشياطين تعقد اجتماعاً بين لفاتها المتشكابة ، ولما اقترب منها بحيث لا يمكنها الهروب قفز واقفاً وهجم صارخاً بعصاه ، وأثارت الضربات أفعى كانت تأوى إلى الخميطة ، فأحدثت صلصلة متكاسلة ، ورفعت رأسها القاسى المفلطح ، وعندئذ رمى « جون » العصا وارتحف بعد أن أحدثت فحيح الأفعى الغاضب صوتاً مروعاً ، ثم ركع وصلّى برهة ، وفجأة صاح : « هذه هى الأفعى الملعونة ، أخرج منها أيها الشيطان » ! قال هذا مندفعاً إلى الأمام ، فنشبت الأفعى ولدغته ثلاث مرات في عنقه الذى لم يكن يضع حوله صلباناً ، وحشرج قليلاً ثم مات في دقائق . . ولم يكتشف المحيطون ما حدث له إلا بعد أن التهمته الصقور والنسور التى انقضت عليه ، وكان ما شاهدوه من بقاياها كفيلاً بإثارة الرعب من مزرعة « باتل » بعد ذلك .

وظلت المزرعة بوراً لمدة عشر سنوات ، وأخذ الأطفال يشيعون أن المزرعة مسكونة بالجن ، وكانوا يقومون برحلات ليلية إليها حتى يخيف بعضهم بعضاً ، فقد كان المنزل المقيم الكالح يثير الرعب بنوافذه المجوفة الفارغة التى تساقط طلاؤها الأبيض ، تاركاً بقعاً كبيرة على الجدران ، وتشققت أخشاب السقف ، وأققرت المزرعة ، وآلت بالوراثة من « جورج باتل » إلى ابن من أبناء عمومته البعيدين ، غير أنه لم ير المزرعة مطلقاً .

وفي عام ١٩٢١ انتقلت ملكية هذه المزرعة إلى « آل موستروفيك » . .
وكان قدوم هذه العائلة غامضاً ومفاجئاً . . ففي صباح أحد الأيام وصلوا إلى
المزرعة ، وكانوا زوجاً وزوجة مسنين نحيفين ، تكاد عظمهما تبرز ، وكانت
بشرة وجهيهما مشدودة ولامعة ، وكانا لا يجيدان الإنجليزية ، فكان ابنيهما
هو الذى يتصل بأهل الوادى . . وكان هذا الابن رجلاً طويلاً ، بارزاً
الوجنتين ، ينحدر شعره الغزير إلى منتصف جبهته مُظللًا عينيه الفاحشتين
الرقيقتين الحزینتين ، وكان يتكلم الإنجليزية بلكنة ، غير أنه ما كان يتكلم
إلا مضطراً للتعبير عن احتياجاته .

وفي المخزن استجوبه الناس بِطُفٍّ دون أن يجيبهم . . سأله « ت . ب .
آلن » صاحب المخزن مرة :

- اعتقدنا دائماً أن هذه المزرعة مسكونة ، فهل رأيت أياً شبيح حتى الآن؟
- كلاً!

- ستكون على مايرام حينما تزيل منها الأعشاب الطفيلية .
ولكن « موستروفيك » لم يرد ، وانسحب خارجاً من المخزن .
وعلق « آلن » على الحادث بقوله :

- يبدو أن غرابة المكان تعكس على مَنْ فيه ، فكل من فيه يكره
الكلام . ونادراً ما شاهدت الناس العجوزين « موستروفيك » ، غير أن الابن
كان يعمل في المزرعة طوال النهار ، وكان يقوم وحده بتنظيف الأرض
وزراعتها ، وتقليم الأشجار ورشها بالمبيدات ، وكان يمكن رؤيته في أى
وقت وهو يعمل بهمة منتقلاً بسرعة في مكان عمله ، كما لو كان يتوقع
توقف الزمن قبل ظهور المحصول .

كانت الأسرة تعيش وتنام في مطبخ المنزل الكبير ، فقد ظلت جميع الحجرات مغلقة وخالية ، لم يُصلح أحدٌ نوافذها المكسورة . . بل ألصقوا الأوراق على ثقوب النوافذ في المطبخ لتسد منافذ الهواء ، ولم يعيدوا طلاء المنزل ولم يعتنوا به إطلاقاً . . ولكن الأرض بدأت في استرداد نضارتها بفضل مجهودات الشاب المنابر .

ومرَّ عامان والشباب يعمل في الأرض بجهد ، يخرج مع خيوط الفجر ولا يعود إلا بعد حلول الظلام . .

وذات صباح وبينما كان « بات همبرت » في طريقه إلى المخزن لاحظ أن الدخان لا يتصاعد من مدخنة « آل موستروفيك » فقال :

« يبدو أن المكان قد عاد مهجوراً فلا بد أن مكروها قد حدث للشباب .

ولثلاثة أيام راقب الجيران المدخنة بحذر ، فلم يودوا أن يُعدَّ تدخُّلهم تطفلاً . وفي اليوم الرابع ذهب « بات همبرت » مع « ت. ب. آلن » و« جون هوابتسايد » إلى البيت . كان المكان « ابناً » ويبدو فعلاً كالمهجور . . دق « جريز » و« واد مادد » على باب المطبخ ، ولكنهم لم يلقَ رداً أو يسمع حركة ، فأدار « همبرت » الباب ، ففتح الباب ، فبدا المطبخ نظيفاً للغاية ، وقد انقلبت السمات المحونة على المائدة وعلمها فدخل من الخبز ، وبيض هقيل ، ولكن الباب ، الذي من السمن بدأت يظهر فوق العتبات ، في حين كان بعض الشباب ، والابن . . . من الشجاع المنابر من الباب المتفتح ، وصاح « بات همبرت » :

« هل من أحد هنا ؟

قال : « لا ، عمل الرعم من أنه كان يعلم بعدم جدواه . .

وفتشوا البيت تفتيشاً كاملاً ولكنه كان خالياً ، فلم يعثروا على أثاثٍ في
الغرف - باستثناء المطبخ - وقد هُجرت المزرعة تماماً ، وفجأة وعندما أخبروا
شريف المقاطعة بذلك فيما بعد لم يجد أى تفسير ، فقد دفع « آل
موستروفيك » ثمن المزرعة نقدًا ولم يتركوا أثرًا عند رحيلهم ، فلم يشاهدتهم
أحد ، لم يَرَهُم إنسان بعد ذلك ، وكذلك لم تحدث جريمة في تلك الضاحية
قد تكون لها علاقة بهم . . فلقد كانوا يستعدون لتناول الإفطار ذات صباح
عندما اختفوا .

حاول سكان الوادى البحث في هذا الموضوع ، ولكن لم يتمكن أى منهم
من إيجاد تفسير معقول لها .

ومرة أخرى عادت الأعشاب للأرض ، فتسلقت شجيرات العُليق البرى
أغصان أشجار الفاكهة ، وارتدَّت الأرض بورًا مقفرة بسرعة ، كان ذلك هو
عادتها . وتم بيع المزرعة إلى شركة عقارية في « مونترى » لسداد الضرائب ،
وآمنَ سَكَّان «مراعى الفردوس » - سواء اقتنعوا أم لا - بأن اللعنة قد حلَّت
على المزرعة ؛ وعلى الرغم من عدم معرفتى بالسبب فإن هناك شيئاً خيفاً
غامضاً لا أفهمه يحيط بالمكان ، ومن السهل أن نصدق أنها مسكونة .

عمت الفرحة سكان « مراعى الفردوس » عندما بلغهم أن مزرعة «بات»
ستسكن من جديد ، ونقل هذه الشائعة « بات همبرت » إلى المخزن بعد أن
شاهد السيارات أمام المنزل القديم ، وَرَوَّجَ « ت . ب . آلن » القصة ،
وتصور « آلن » أسباب الملكية الجديدة ، وَحَدَّثَ بها زبائنه بادئاً روايته بـ
« يقولون » إن الذى اشترى مزرعة « باتل » من أولئك الذين يهتمون
بالأشباح ليؤلف عنها قصصاً . وكانت كلمة « يقولون » بالنسبة إلى

«ت. ب. ألن» كالدرع الواقى ، يستخدمها كما تستخدم الصحف كلمة «يزعمون» .

وفى «مراعى الفردوس» انتشرت دسنة من الحكايات عن المالك الجديد «بيرت مونرو» ، حتى قبل أن يتسلم ممتلكاته الجديدة . وقد لاحظ أن «جيران المستقبل» يتفحصونه ، وعلى الرغم من ذلك لم يتمكن من ضبط أى منهم وهو يحدق فيه ، فاختلاس النظر قد أصبح فناً رقيقاً بين سكان الريف . . ففى الوقت الذى تظن أنهم لا يشعرون بوجودك ، يلاحظون تماماً لون عينيك وشعرك ، وشكل أنفك ، وينظرون إلى كل جزء ظاهر منك ويعددون ويحفظون الملابس ، ويطلقون على شكلك وشخصيتك ثلاث أو أربع صفات .

بدأ «بيرت» بعد شراء المزرعة فى العمل فى الساحة الممتلئة بالنباتات ، وبدأت مجموعة من النجارين فى ترميم المنزل ، فأخرجت قطع الأثاث وأحرقتها ، وتم هدم بعض الحواجز وإنشاء أخرى جديدة ، وتم ترميم الجدران وبناء السقف ، وفى النهاية تم طلاء المنزل من الخارج بطلاء أصفر فاتح جديد .

قطع «بيرت» بنفسه جميع الأعشاب والأشجار فى الساحة ليسمح للمصوء بالدخول للمنزل ، واختفت من المنزل خلال ثلاثة أسابيع كل المظاهر التى تجعله يبدو كالبيت المهجور المسكن بالأرواح ، بل تغير ليبدو مثل مئات الألوفا من البيوت الريفية الموجودة فى الغرب بفضل مهارة المشرفين عليه ، ووصلت قطع الأثاث بعد أن جف طلاء البيت من الداخل والخارج :كراسى مبطنة مريجة ، وأرائك ، وفرن جديد مدهون وأسرة من الحديد المطلى بلون الخشب تضمن لمن يستخدمها الراحة التامة . . ووصلت

أيضاً مرايا لها إطارات من الصدف ، وسجاجيد « ويلتون » ، وعدة لوحات لفنانين من المحدثين أكثر من استخدام اللون الأزرق . ووصلت السيدة « مونرو » وأولادها الثلاثة مع الأثاث ، وكانت سيدة بدينة تضع على عينيها نظارة بلا ذراع ولا إطار ، ولكنها تركز على الأنف ، وترتبط بشريط تدلى على الصدر . أما مديرة المنزل فكانت شديدة البراعة ، اهتمت كثيراً بتنسيق الأثاث وجعلت العمال ينفضون به من مكان إلى آخر ؛ حتى تستقر على نظام يعجبها فنبسّم ، واستقر الأثاث في هذا المكان لا يتحرك إلا أيام التنظيف .

أما ابنتها « ماي » فكانت فتاة جميلة ، لها خدان ناعمان مستديران ، وشعرها ناعم ، وكان مطيرها منبراً ، ونحت ذقنها احناؤه ببسطة توحى برقيل ، وكانت نظراتها صادقة أليفة ، لا تُعبر عن ذكاء أو غباء ، وكان يبدو علينا أن الأناام سنبجدها بلاسلك مسورة طفق الأصل من أمها ، مديرة ماهرة وأبنا دلل لأذلة ال اصحاء .

في غروبها الدميرة رسمت « ماي » تراميج الرفص بين رجاء المرأة ، وإطارها « ماي » من مديرة ، على الخلدان سوزا لآدمياتها في « دوندي » . . .
نما وضعت ، من أن الصبور الحاسدة بها وكراثة دكتورها المعلقة على
أناة صنيعة ، اجترار فراسها . كانت « ماي » تكتفي مذكراتها بمن العود
البرلين ، ما سيجله بزينا ، من منير للانسام على الإطلاق فهو تعلق
الربيع والخلافت « داري » فيع اللوى ، إيعاعات ربيدة عن مساعرها
بحو بعض ال .

اجدارت « ماي » حرمها شداها رهري اللون لسنا ترشا التي اشترتها
ديتاتها بنفسها ، وإطارا من الكريستال ، المفوض بالرهفور ، ودمه فرنسة

ذات ساقين طويلتين تنام على سريرها المفروش بملاية من الساتان ، وعليه
تناثرت خمس وسائد . كانت « ماى » تعتبر هذه الدمية الدليل على سعة
أفقهة وتفتح عقلها ، وصبرها على أشياء لا ترضى عنها . وقد كانت تحب أن
يكون أصدقائها من أصدقاء الماضى الذين كانت تجد فى مغامراتهم ما
يعزىها عن حياتها الخاوية .

كان عمرها تسعة عشر عاماً ، وكان الزواج هو شغلها الشاغل . .
وكانت عندما تخرج بصحبة الشباب تتكلم بحماس عن المُثُل العليا التى لم
تكن تعرف عنها إلا أنها السيطرة على طبيعة الفبلات التى تتلقاها الفتاة وهى
عائدة من حفلات الرقص .

كان « جيمى مونرو » فى السابعة عشرة من عمره ، أنهى دراسته
الثانوية ، وكان يتصف بالسخرية ، ويتظاهر أمام أسرته بالرزانة والانطواء ،
فقد كان يدرك أنه لن يستطيع أن يعتمد عليهم فى الخبرة بالحياة ، فهم من
جيل لا يعرف الخطأ أو البطولة ، وبالتالى فمن المستحيل أن يقبلوا تصميمه
على أن يملأ حياته بالمغامرات العاطفية قبل أن يكرسها للعلم .

كان « جيمى » يعنى بكلمة العلم « الراديو ، وعلم الآثار ،
والطائرات » ، وكان يتخيل نفسه ينقب عن أوانى الذهب فى جمهورية
« بيرو » ، أو يحلم أنه حبس نفسه فى ورشة شبيهة بالزنزانة ، وبعد سنوات من
العذاب يخرج منها بطائرة مبتكرة فى تصميمها فائقة السرعة .

امتلأت غرفة « جيمى » فى البيت الحديد بالآلات الصغيرة . . فكان
فيها جهاز راديو مفتوح بساعات ، وموتور يُدار باليد ، ويدير بدوره مفتاحاً
لا سلكياً ، ثم مجهر من النحاس ، وأشياء كثيرة وعديدة تفككت إلى أجزاء
صغيرة .

كما كان له أيضاً مخزنٌ سرّيٌّ عبارة عن صندوق أغلقه بقفل كبير ، وكان الصندوق يحتوي على عدد من أصابع الديناميت ، ومسدس قديم ، وعلبة سجائر ، وثلاث صور تعرف باسم الأرامل المرحات ، وزجاجة « كونيكا » صغيرة ، وفتّاحة ورق على شكل خنجر ، وأربع حزم من الرسائل أرسلتها أربع فتيات مختلفات ، وستة عشر قلماً أحمر شفافاً ، حصل عليها للذكرى من صاحبات الرقص ، وعلبة بها مذكرات عن حبيبته الحاليات ، وبعض الزهور الذابلة والمناديل والأرزار ، وكان من أكثر ما يعتز به رباط للساق مغطى بالدانتيل الأسود ، ولم يكن « جيمي » يذكر من أين حصل عليه . . وقد اعتاد « جيمي » أن يغلق غرفته عليه قبل أن يفتح صندوقه .

وكان ما ارتكبه « جيمي » من خطايا أثناء دراسته الثانوية يماثل ما ارتكبه أصدقاؤه ، وكان بعضهم قد ارتكب ما يفوق ما فعله بكثير .

ولكنه بعد أن انتقل إلى « مراعي الفردوس » أدرك أنّ أخطأه كانت كبيرة ، واعتبر نفسه تائباً ، ولكن ذلك لم يكن يمنعه من الارتداد مرة أخرى عن الصواب والسير الحسن ، وفي الحقيقة لقد كانت حياته وما فيها تعصمه بشدة في تصرفه مع الفتيات في الوادي ، بالإضافة إلى وسامته وبشاشته ، أما « مانفريد » الابن الأصغر - ويُدلّل باسم « ماني » - فكان طفلاً رصيناً في السابعة ، كان وجهه يبدو متقلصاً مشدوداً بسبب الجيوب الأنفية ، وكان أهله يتحدثون عن إزالتها بالجراحة ، غير أن « ماني » كان مرعوباً من إجراء العملية الجراحية ، فاستغلت أمه ذلك لتهديده بها حتى تحجّ من شقاوته . . وكان أبواه يعتبرانه مفكراً ، وربما عبقرياً ، فقد اعتاد أن يلعب بمفرده ، أو يجلس الساعات الطوال متأملاً في الفضاء « حالماً » كما كانت تقول أمه ، وممرت عدة سنوات دون أن يدري والده أن نمو رأسه

قد توقف بسبب الجيوب الأنفية . وكان « ماني » في العادة طفلاً فظيلاً
يمكن نخويفه ودفعه إلى الطاعة يُسّر ، لكنه إذا خاف أكثر مما ينبغي كان
يُصاب بحالة من « الهستيريا » تفقده السيطرة على نفسه ، ويشلها بهرب
جهته في الأرض حتى نسيل الدماء على عينيه .

جاء « بيرت مونرو » إلى « مراعي الفردوس » بانساً من فنسلة في
مشروعات قام بها ، ولم يكن فنسلة يرجع إلى تقصير منه بمُدْر دا كانت ثوري
أكبر منه تتحكم في قَدْرِهِ ، فقد كانت المصائب نفع عليه بالمصانعة
البحثة .

واقنع « بيرت » أن قَدْرَهُ السَّيِّء يمعنه من النجاح ، ولهذا يئس من
الصراع مع هذا الشيء المجهول الذي لا يعرف اسمه . . وعلى الرغم من
أنه لم يتجاوز الخامسة والخمسين من عمره فإنه قرر الانسحاب ، لأنه شَارَفَ
على الاقتناع بأن لعنةً مَّا تطارده ، وهناك عشرات الأمثلة على ذلك . . فالمرّة
التي افتتح فيها منذ عدة سنوات مشروعاً في إحدى ضواحي المدينة ونجح
علمه وتدفق بين يديه المال وبدأ في الاستقرار ، أنشأت الحكومة طريقاً
جديداً رئيسياً يمر بشارع آخر ، فضعف موقف « بيرت » وانقطع عمله . .
وفي السنة التالية انتج مخزناً للبقالة ، ومرة أخرى ينجح ويسدد دينه ويبدأ
في الادخار في البنك ، فإذا ببقالة شهيرة تفتتح فرعاً بالقرب منه وتشن عليه
منافسة شديدة اضطرته أخيراً إلى إنهاء هذا العمل . سوء الحظ الذي كان
يطارده أفقده الثقة بنفسه ، وعند بداية الحرب كان غايةً في الإحباط ، وعلى
الرغم من أنه كان يمكنه الاستفادة منها ، فإن خوفه من المحاولة حَالَ دون
ذلك .

أما المرة التي تأكد فيها من سوء الطالع الذي يُلاحقه فكانت المرة التي

عمل فيها متعهدًا لمرزاع الفاصوليا بعد أن شجع نفسه كثيرًا على خوض هذا المجال ، وفي السنة الأولى كان ربحه خمسين ألف دولار ، وفي السنة التالية تضاعف ربحه ليصل إلى مائتي ألف دولار ، وفي السنة الثالثة تشجع وأصبح متعهدًا لألوف الأفدنة قبل بداية زراعتها . . وتعهد - كشرط من شروط العقد - أن يدفع عشر سنتات ثمنًا لرطل الفاصوليا ، متصورًا أنه سيبيعه بثمانية عشر سنتًا ، وبعد انتهاء الحرب حقق خسارة فادحة ، لأن الرطل قد بيع بأربع سنتات فقط . . هكذا أضعفت الخسارة رأسماله الذي بدأ به هذا العمل .

وبعد سنوات من الاعتكاف في منزله مكتفيًا بزراعة بعض الخضروات في حديقته ، شاردًا مع حظه السيء ، عاوده حنينه للأرض التي كان يؤمن بأنها السبيل الوحيد المضمون للرزق ، وفكر في الاستقرار في مزرعة صغيرة ، في هذا الوقت كانت مزرعة « باتل » معروضة للبيع عن طريق شركة عقارية في « مونتيري » . عاينَ « بيرت » المزرعة ، وشاهد ما يمكن القيام به من إصلاحات ، واشتراها على الرغم من مُعارضة الأسرة في أول الأمر ، وبعد تنسيق الحديقة وتوصيل الكهرباء والتليفون وتجديد الأثاث ، تحمست الأسرة للانتقال إليها وكانت « السيدة مونرو » ترحب بأي تغيير يمكن أن يزيل هذا العبوس عن وجه « بيرت » وهو في حديقته « بمونتيري » ، وفي شهر واحد كانت الثقة بالنفس قد عادت إلى « بيرت » ، وفارق العبوس وجهه ، وشعر أن سوء الحظ قد تخلص منه وأصبح متحمسًا لزراعته ، يقرأ الكثير عن طرقها ووسائلها ، واستدعى من يساعده في العمل الذي يستمر من الصباح حتى المساء . . كل يوم كان يمر يأتي بشيء جديد ، كل بذرة تشق التربة لتظهر

تبدو وعدًا بالحماية والأمان . . كان « بيرت » سعيدًا ، ولأنه استرد ثقته بدأ في علاقة الصداقة مع أهل الوادى وتعزيز مكانته فيه .

كان من الصعب على « بيرت » الاندماج بسرعة في مجتمع ريفى ، وخاصة أن أهل الوادى قد تابعوا قدوم « آل مونرو » إلى الوادى بجفاء ، فقد اعتبروا أن مرزعة « باتل » مسكونة واعتادوا عليها ، لذلك لم يشعروا بالارتياح لأن « بيرت » قد أثبت خطأهم وغيّر المنطقة بتحويلها إلى مزرعة خصبة .

كانت سعادة « بيرت » بسبب تخلّصه من « آلهة الانتقام » السبب الرئيسى الذى ساعده على كسب حب الناس ، كما أنه كان رجلاً لطيفاً يسعدُ بخدمة أصدقائه ولا يتردد فى طلب مساعدتهم ، فكان يستعير ويُعير الأدوات الزراعية ، فكان حدثاً هاماً أن يتغلب « بيرت » على مشاعر الحقد، وأن يصبح رجلاً قوياً وجاراً مألوفاً ، وأن يصبح بيته قطعة من الوادى ، وفى نهاية الشهر السادس انتخب عضواً فى مجلس إدارة المدينة ، ولم يمض على وصوله إلى الوادى وقت طويل حتى سأله « ت. ب. آلن » السؤال المعروف :

- اعتقدنا دائماً أن هذا المكان تلاحقه اللعنة ، فقد جرت فيه كثير من الأمور الغريبة ، فهل شاهدت شيئاً حتى الآن ؟

ضحك بيرت وقال :

- لو أبعثتم الطعام عن مكانٍ ما فستغادره الفئران . . لقد أزلت مظاهر القَدَم والظلمة عن المكان ، وهى الظروف التى تعيش فيها الأشباح . قال « آلن » معترفاً :

لقد صنعت فعلاً من هذا المكان شيئاً جميلاً ، فليس هناك ما يفوقه في «مراعى الفردوس» .

قطب «بيرت» جبينه وقال معبراً عن الفكرة التي طرأت عليه :
- لقد لازمني النحس لفترة طويلة ، فكل المشروعات التي بدأتها فشلت ، ولما جئت إلى هنا كانت فكرة «اللعة» تطاردني .

وفجأة ضحك مسروراً بالفكرة التي طرأت عليه واستطرد قائلاً :
- فما الذى حدث ؟ لقد اشتريت مكاناً المفروض أنه محاط «باللعة» ، وربما كانت لعنتي ولعنة المزرعة فد تصارعتا حتى قتلت كلُّ منهما الأخرى ، ولكنى متأكد أن اللعنتين قد زالتا تماماً .

ضحك الجميع وضرب «ت . ب . ب . آلن» يده على الحاجز صائحاً :
- نكتة رائعة فعلاً . . ولكن الأكثر روعة أن لعنتك تزوجت لعنة المزرعة ثم دخلتا إلى ثقب كما تفعل الأفاعى ، وربما سينجبان لعنات صغيرة كثيرة ستنتشر في «مراعى الفردوس» قريباً - وانفجر الرجال ضاحكين ، في حين احتفظ «ت . ب . ب . آلن» بهذا المشهد في ذاكرته ، لأنه يشبه إلى حد كبير حوار المسرحيات .



عاش « إدوارد ويكس » في منزل صغير عند أطراف الطريق المتقاطع مع « مراعى الفردوس » ، وكان خلف المنزل حديقة ومزرعة كبيرة للخضروات ، وكانت زوجة « ويكس » وابنته الجميلة تشاركانه في العناية بالحديقة والمزرعة ، فكانتا تعدان الحمص واللوبيا للبيع في « مونتيرى » .

أما « إدوارد ويكس » فكان له وجه أسمر عابس ، وعينان صغيرتان بلارموش ، وقد اشتهر بأنه من أكثر الأهالي حُبثاً ومكراً ، فقد كان يستطيع إتمام الصفقات الصعبة . وكان من دواعى سعادته البالغة قدرته فى الحصول على بعض دراهم أكثر من جيرانه ، لا يتورع عن الغش فى تجارة الخيول لو استطاع دون انكشاف أمره ، ولأنه حاد الذكاء فقد اكتسب احترام الجميع . ولكن من الغريب أن ذلك لم يؤثر على ثرائه زيادة أو نقصاناً على الرغم من تظاهره بإيداع النقود فى البنوك وعقود الضمان . وكان يستشير أعضاء مجلس إدارة المدرسة أثناء الاجتماعات حول مختلف الأسهم ، وبذلك استطاع إيهامهم أن مدخراته كبيرة . وكان أهل النادى يسمونه « شارك ويكس » أو « سمكة القرش » ، وكان الواحد يتهامس مع الآخر « شارك؟ إنه يملك عشرين ألفاً . . مبلغ ليس هيناً ! »

وفي الواقع فإن « شارك » لم يدخر في حياته أكثر من خمسمائة دولار دفعة واحدة ، وكان من دواعي سعادته البالغة أن يعتفد الناس أنه غنى ، فانتشار هذه الصورة الوهمية كان يسعده ، فاليوم قد أصبح كالحقيقة . وقد اعتبر أن ثروته الخيالية مقدارها خمسون ألف دولار ، واحتفظ بسجل يدون فيه ما تدره هذه « الثروة » من أرباح ، وكان حساب هذه الأموال والدخل هما السعادة الاولى والكبرى في حياته .

تأسست في « ساليناس » شركة للبترول تتولى حفر بئر في الجزء الجنوبي من مقاطعة « مونتيري » وما إن سمع « شارك » عنها حتى توجه إلى مزرعة « جون ويتسايد » كى يتشاور معه في قيمة أسهم هذه الشركة ، فقال له :

- إننى فى حيرة بشأن شركة البترول فى الجنوب .

فأجابه « ويتسايد » وكان يُستشار كثيراً فى هذه الأمور :

- إن تقرير علماء الجيولوجيا يبشر بالخير . . ولقد سمعت كثيراً أن هذه المنطقة تحتوى على بترول ، وأن الاشتراك فى هذا المشروع يحتاج إلى أموال كثيرة طبعاً .

فكر « شارك » فترة قصيرة ثم قال - وقد ثنى شفته السفلى بأصابعه :

- لقد كنت أقلب الأمر فى ذهنى ، ويبدو أنه عرضٌ مُغرٍ ، وخاصة أن معى عشرة آلاف أستثمرها جميعاً ، وأتصور أننى يجب أن أفكر فى هذا المبلغ بطريقة فعّالة ، ولهذا أردت أن أعرف رأيك . غير أن « شارك » قد استقر على رأى ، فما إن عاد إلى منزله حتى أجضر سجل حساباته وسحب عشرة آلاف دولار من رصيده المزعوم ، وأضاف ألف سهم من أسهم شركة البترول الجنوبية فى سجل مدخراته .

ومنذ ذلك الوقت وهو يتابع نشرة أسعار الأسهم باهتمام بالغ ، فلو ارتفعت الأسعار قليلاً كان يصفر بهدوء ، أما إذا هبطت الأسعار فكانت المرارة تغزو حلقه ، وبعد فترة طويلة شعر بالفرحة والفخر عندما ارتفعت أسهم الشركة ارتفاعاً سريعاً ، لدرجة أنه ذهب إلى المتجر الرئيس في «مراعى الفردوس» واشترى ساعة فخمة رخامية سوداء ، لها في أطرافها أعمدة مرصعة ، وفي أعلاها حصان برونزي .

أمّا أصحاب المتجر فقد تهامسوا وتشاوروا ، وقرروا أن «شارك» لابد أن يحقق ربحاً كبيراً .

وهبطت الأسهم تماماً بعد أسبوع واحد فقط ، واختفت الشركة تماماً ، وما إن بلغ «شارك» هذا النبأ حنى حسب حساباته ، وسجل فيها أنه قد باع حصته في هذه الشركة قبل بالإفلاس بيوم واحد ، وأن أرباحه في هذه الصفقة قد بلغت ألفي دولار .

أوقف «بات همبرت» سيارته وهو عائد من «مونتيري» على الطريق الزراعى أمام منزل «شارك» وناداه قائلاً :

- سمعت أنك خسرت كثيراً في صفقة شركة البترول الجنوبية ، فابتسم «شارك» باطمئنان وأجاب :

- ماذا تظننى يا «بات» ؟ لقد بعت أسهمى منذ يومين . يجب أن تعلم جيداً ، وأن تعلموا جميعاً أنني لست مغفلاً . لقد عرفت منذ البداية أن هذا المشروع فاشل ، ولكننى قدّرتُ أن أسهمه سترتفع حتى يحصل النصابون على أكثر ما يمكن ، ولما باعوا بعت أنا أيضاً .

فأجابه «بات» :

- لقد فعلت شيئاً رائعاً بحقّ !

وعندما دخل « بات » المتجر أذاع الخبر فبدأ الناس في التخمينات الجديدة حول ما بلغت ثروته « شارك » ، وخافوا أن يكونوا خصوصاً له في أى صفقة .

وفي هذه الأثناء استدان « شارك » أربعمئة دولار من « مصرف مونتيري » ، واشترى جراراً مستعملاً من نوع « وردسون » وذاغت شهرة « شارك » شيئاً فشيئاً ، وحكّمته ، وحسّن تقديره ، وبُعُد نظره ، حتى أنه لم يعد في « مراعى الفردوس » من لا يستشير « شارك » إذا فكر في شراء أسهم أو قطعة أرض ، أو حتى جواد ، فكان يولى مشكلات المعجبين عناية يذل فيها نصحاً مثيراً للتعجب ، وخلال سنوات أصبح سجل حسابات « شارك » المالية يشير إلى أنه جمع مائة وخمسة وعشرين ألف دولار من استثمارات تدل على المهارة والذكاء .

وكلما لاحظ جيرانه أنه يعيش عيشة الفقراء ازدادوا له تقديراً واحتراماً ، لأنه لم ينهر بالثروة ، ولأنه لم يكن غيبياً ، فقد ظلت زوجته وابنته الجميلة تعتنيان بالخضروات ، وتجهيزاتها للبيع في « مونتيري » ، كما ظل « شارك » يرمى حديقته بما تتطلبه هذه الرعاية من مختلف الخدمات .

لم يمر « شارك » في حياته بحالة غرام كالتى نقرأ عنها في الروايات ، ففي سن التاسعة عشرة اصطحب « كاترين مولوك » ثلاث مرات إلى حفلات راقصة كان متاحاً له التواجد فيها . . وأدت هذه المرات الثلاث إلى توقع أهلها وجيرانه كلهم أن يتزوجها ، فتزوجها كما توقعوا . لم تكن « كاترين » جميلة ، لكنها كانت نضرة كالعشب الجديد ، وكانت تتميز

بشموخ وحيوية الفرس الصغيرة ، لكن بعد زواجها فَقَدَتْ نضارتها وحيويتها، كما تتغير الزهرة عند تلقيها لحبوب اللقاح ، فقد ذبل وجهها ، وزاد عرض أردافها ، ودخلت مرحلة تالية في حياتها ، هي مرحلة العمل .

أما من ناحية معاملته لها فلم يكن « شارك » قاسياً ولا رقيقاً ، فقد سيطر عليها بنفس الشدة الممتزجة باللين . . الشدة التي كان يتعامل بها مع الخيول ، فقد كانت الفسوة مثلها مثل التسامح عنده ، والتساهل بالنسبة له كسلوك الحمقى ، فلم يتكلم يوماً مع « كاترين » كما يتكلم مع إنسان . . لم يُحَدِّثْهَا عن آماله أو آرائه أو نواحي فشله ، ولا عن ثروته الورقية الخيالية ، ولا عن محاصيله . . ولو كان قد تكلم معها في ذلك لَسَبَّبَ لها حيرة وهمماً ، فقد كانت حياتها معقدة تماماً ، ولا تحتاج إلى عبء جديد من مشاكل شخص آخر وآرائه .

كان منزل « آل ويكس » الأسمر الشيء الوحيد القبيح في هذه المزرعة ، فمخلفات الطبيعة وقذاراتها تلتفت في الأرض مع الأيام ، أما مخلفات البشر فهي تدوم أكثر ، كانت مساحة المزرعة مملوءة بالأوراق والزكائب القديمة، وقطع الزجاج ، ومجموعات من الأسلاك المشابكة التي كانت تُستخدم لرفع جرار الماء ، وكان المكان الوحيد الذي لم ينبت العشب فيه أو أزهار هو أكوام الأقدار المكدسة حول المنزل ، وكان تفريغ الصابون ومياه الحمامات أصاب بالعقم هذه الأقدار وجعلها غير صالحة للإنبات ، كان « شارك » يروى حديقته ، ولكنه كان لا يرى الإسراف في إهدار المياه الصالحة في تنظيف ما حول المنزل .

توافدت نساء « مراعى الفردوس » جماعات إلى منزل « شارك » لإبداء

إعجابهن بالطفلة الجميلة . وكان ذلك يوم مولد ابنته « أليس » ، ولما وجدنها جميلة فعلاً لم يعرفن ماذا يَقُلْنَ ، فقد فقدت تعبيرات السرور والإعجاب النسائي معناها . وكان الهدفُ منها أساساً طَمَأَنَةَ الأمهات الشبابات إلى أن المخلوقات الصغيرة المتحركة في أحضانهن مخلوقات جميلة ، وعندما تكبر لن تكون شيئاً مخيفاً .

ولما رأت « كاترين » ابنتها جميلة إلى هذا الحد امتلأت نفسها إعجاباً ورهبة ، ونظرت إليها بعينين ليس فيهما الحماس الزائف الذي يكون في أعين الأمهات حينما لايجيء المولود متفقاً مع أحلامهن . خافت « كاترين » على ابنتها من جمالها وما يمكن أن يسببه لها ، وكانت « كاترين » تردد بينها وبين نفسها أن الأطفال الذين يحظون بالجمال ينقلب هذا الجمال قُبْحاً عندما يكبرون ، فكانت بهذه الفكرة حاول أن تخفف عن توقعاتها بما يمكن أن يسببه لا بنتها هذا الجمال .

وفي اليوم الأول لتوافد المهنتات سمع « شارك » واحدة تقول : « ولكنها جميلة حقيقة . . مارأيك في هذا الجمال ؟ » .

عاد « شارك » إلى حجرة نومه ونظر إلى ابنته الصغيرة جداً ، وخرج إلى الحديقة واستغرق في تفكير عميق حول هذه المولودة الجميلة فعلاً ، ولا يمكن تصور أنها قد ورثت عنه أو عن « كاترين » أو أحد الأقارب هذا الجمال ، فهم جميعاً لا يصلون إلى هذا المستوى من الجمال ، بل هم جميعاً من البسطاء العاديين .

من الواضح أن هبة غالية قد مُنِحَتْ له ، وبما أن كل ثمين يكون قِبْلَةً للطامعين فلا بد « لأليس » من الحماية .

آمن « شارك » بالله الموجود القادر على كل شيء ، والذي يسمو على إدراكنا وعقولنا . . كبرت « أليس » وازدادت جمالاً ، كانت بشرتها متألقة وضيئة ، وكان شعرها الأسود مجعداً ، وإذا نظر الواحد إلى هاتين العينين الرزيتين فلا بد أن يسأل : ما هذا الشيء الذي أعرفه ويبدو لي أنني أتذكره جيداً ، الشيء الذي قضيتُ عمري في البحث عنه ؟

وعندما تستدير « أليس » يعود إلى صوابه فيقول : « لماذا كل هذا ؟ فإنها ليست أكثر من بنت صغيرة جميلة » .

لاحظَ « شارك » كل ذلك على عدد كبير من الناس ، ورأى رجالاً يحمرون خجلاً عند النظر إليها ، ورأى البتيان الصغار يتقاتلون كالنمور عندما تحضر جلساتهم ، وتخيل أنه يرى الرغبة في وجه كل منهم .

وأثناء عمله في الحديقة كم تالم من تصور ابنته وقد خطفها العمر ، ولذلك كان لا يمل من تحذيرها طوال النهار . . مرة من قوائم الخيل ، ومرة أخرى من الأسوار العالية ، وغير ذلك من الأخطار ، كعبور الطريق دون انتباه للسيارات المارة ، كان يتصور كل جارٍ وكل بائع متجول يريد إيذاءها ، وأسوأ من ذلك أنه كان يرى كل غريب كما لو كان شريكاً يمكن أن يخطف ابنته . . وكان لا يجعلها تفارق بصره ، وخاصة عندما علم بوجود متسولين في « مراعى الفردوس » .

وكان المتزهون يندهشون من شراسته عندما يطردهم من أرضه .

أما « كاترين » فكلما ازداد جمال « أليس » ازدادت خوفاً وشكاً . . كانت تعتقد كأن القدر ينتظر الفرصة ليضرب ضربته ، أو كأنه يستجمع قواه لضربة أكبر وأشد . . ولذلك لازمت ابنتها ، واستعبدت نفسها لها ، لا

تتركها تؤدي إلاّ أعمالاً قليلة ، فكانت كمن يتعامل مع شخص على وشك الموت .

وعلى الرغم من حب « آل ويكس » الجارف لابنتهم الصغيرة ، وحرصهم على سلامتها وعلى جمالها ، فقد ازدادت مخاوف « شارك » لعلم الأبوين أن ابنتها الحبيبة غبية لدرجة لا تُصدّق ، وأنها بليدة ، متأخرة فكرياً، وأنها لا تستطيع حماية نفسها، أنها يمكن أن تكون فريسة سهلة لكل من يُضمّر لها شراً . . أما « كاترين » فقد كانت غباوة « أليس » من دواعى سرورها ، فكانت تساعد في أشياء كثيرة ، وبتلك المساعدة كانت « كاترين » تنسى إلى حدٍّ ما الفارق الكبير بينهما . . ولذلك فقد سعدت بكل نواحي الضعف في ابنتها ، لأن ذلك يجعلها بأنها أقرب لها من ذي قبل .

وعندما بلغت « أليس » الرابعة عشرة أضيف همٌّ جديدٌ إلى الهموم التي كان يحملها والدها ، فإذا كان « شارك » يخاف قبل ذلك أن يخرسها أو يصيبها مكروه فهو اليوم قد أصبح مرعوباً من التفكير في أنها قد نفقد عفافها . . وتدرجياً سبّط عليه هذا الخوف أكثر من ذي قبل ، أصبح يرى في فقد عُذرية ابنته خسارة وعاراً في الوقت نفسه . . وأصبح الانزعاج والشك يُلاحقانه لوجود أيّ رجل أو فتى قرب المزرعة ، وأصبح هذا الموضوع كابوساً يؤرقه ، وكان دائم التحذير لزوجته حتى لا تسمح « لأليس » أن تغيب عن نظرها ، وكان يقول لها - والشك والخوف يملآن قلبه و عينيه :

- لا يمكن أن تتصوري ما يمكن أن يحدث !

وزاد من همومه ومخاوفه هذا التصور في عقلية ابنته ، وكان يعتقد أن أي إنسان يمكن أن يدمرها ، وأن أي شخص ينفرد بها لفترة سيتصرف تصرفاً

شائناً ، ولن تستطيع هي حماية نفسها لما هي عليه من غباء ، فكان «شارك» كالرجل الذي يسهر على كلبته الأصيلة ويحرسها خوفاً عليها في موسم «التكاثر» .

وبعد فترة لم يعد «شارك» يكتفى بالاطمئنان على طهارتها إلا عندما يتأكد من ذلك ، ففي كل شهر يزعج زوجته ، فقد كان يعلم التوقيت أكثر منها ، فيسألها بضاوأة :

- هل هي على مايرام ؟

وتجيبه «كاترين» بازدراء :

- لا . . . ليس بعد .

بعد ساعات يعود ليسأل :

- هل هي بخير ؟

وكان يظل على هذه الحال حتى تجيبه «كاترين» :

- طبعاً . . . هي بخير . . . ماذا تظن ؟

كانت هذه الإجابة تُطمئنه لمدة شهر ، ومع ذلك كان لا يخفف من مراقبتها وحراستها طوال الشهر ، فطالما ظلت العفة سليمة فيجب عليه مداومة السهر عليها .

وكان «شارك» يعرف أنه لابد أن يأتي «لأليس» من يطنّب للمزواج ، ولكنه كان يستبعد هذه الفكرة ويحاول تجاهلها ، فقد كان يعتبر زواجها لا يقل خطراً عن إغوائها . كان يعتبرها شيئاً غالياً ثميناً ، الحفاظ

عليه . . فإن فقدت بكارتها فلن تبقى هذا الشيء الغالى الذى أدخره بهذا
الحرص .

لم يكن يحبها كما يجب الأب ابنته ، بل كان ينظر إليها بنهم المتطلع
لتملك شيء نادر جميل . . وشيئاً فشيئاً أصبحت مسألة عُذريتها رمزاً إلى
صحتها ونقاها ووقايتها .

ولما بلغت « أليس » السادسة عشرة ذهب « شارك » لزوجته وعلى وجهه
مظاهر الانزعاج قائلاً :

- إننا لن نستطيع التأكد ومعرفة هل هى بخير أم لا إلا إذا استشرنا
طبيباً .

حملت فيه « كاترين » لفترة مُحاولَةً أن تفهم معنى كلماته . . ولأول مرة
تفقد أعصابها وتصرخ :

- أنت حيوان مملوء بالشكوك القدرة . . اخرج من هنا . . وإن عُدت
إلى هذا الكلام مرة أخرى فسأهجر بيتك .

تعجب « شارك » قليلاً لثورتها ، ولكنه لم يخف منها ، نسي فكرة
الفحص الطبي مكتفياً بسؤاله الشهرى التقليدى .

كانت ثروة « شارك » الخيالية تتضخم فى هذه الأثناء . . وفى كل يوم
بعد أن تأوى « كاترين » و « أليس » إلى فراشها - كان يفتح الدفتر السميك
تحت المصباح المعلق ، فتضيق عيناه الشاحبتان ، وترسم على وجهه
الغليظ نظرة خُبث ودهاء وهو يخطط لمشاريعه الاستثمارية ويحسب أرباحه .
وتتحرك شفاته قليلاً ، فهو الآن يطلب الأسهم بالتليفون ، وترسم على

وجبهه نظرة أسف باهتة وهو يوقع حجزاً على مزرعة خصبة ويهمس : « أكره ذلك ، ولكن يجب أن تعلموا يا إخوان أن العمل هو العمل » . ويغمس ريشته في دواته ويسجل هذا الحجز في سجله وهو يردد : الخس ، كلهم ينتجون الخس ، إنهم سيغمرون السوق به . . من الأصوب أن أزرع أنا البطاطس فأكسب بعض المال . . إنها أرض مناسبة » . سجل أنه زرع ثلاثمائة فدان البطاطس .

وتاهت عيناه وسط السطور . . ثلاثون ألف دولار مودعة في المصرف ولاتنال إلا الفائدة المصرفية فقط . . إن ذلك لمُخجل . . إنه مال مُجمد عملياً . . وارتسم على عينيه بعض العبوس الذى يصاحب الاستغراق والتفكير . . وتساءل في نفسه عن شركة تدعى « سان جوزيه للبناء والتسليف » ، فهي فائدة ٦٪ لكن الاستعجال ليس من الحكمة في التعامل معها قبل التحرى عنها .

وبينما كان يطوى السجل قرر أن يستشير « جون وايتسايد » في الأمر فتلك الشركات تفلس أحياناً ويختفى موظفوها .

قبل مجيء عائلة « مونرو » إلى الوادى ، كان « شارك » يشك في نوايا كل الرجال والفتيان تجاه « أليس » ، غير أنه بمجرد أن وقع بصره على « جيمى مونرو » تركزت كل شكوكه ومخاوفه حول هذا الشاب الغشاش المخداع .

كان الفتى جميلاً ونحيفَ الوجه ، تلمع عيناه بهذا الغرور المعهود في طُلاب المدارس الثانوية . . وكان يُشاع عنه أنه يشرب « الجين » ويرتدى زياً أهل المدن وليس زياً العمل المعروف في القرية . . وكان شعره يلمع من الزيوت . كان « جيمى » جريئاً في عاداته وحركاته إلى درجة جعلت فيئات « مراعى الفردوس » يضحكن ويتدلن إعجاباً وخبلاً . . وكان يُراقب

الفتات بعينييه الهادئتين السَّاحِرَتَيْنِ ، ويبدو عليه الاستهتار والانغماس فيه ،
والفتيات ينجذبن إلى الشاب الذي له ماضٍ ، و « جيمى » له ماضٍ ، فقد
شرب الخمر عدة مرات في الملهى الواقع على جانب النهر ، كما أنه قد قبَّل
حوالى مائة فتاة على الأقل . . . وقام بمغامرات آثمة في عدة مناسبات على
ضفاف النهر في مدينة « ساينلس » .

أجهد « جيمى » نفسه حتى لا تبدو عليه هذه الحياة الماضية ، ولم يكتفِ
بذلك ، فأطلق عدة إشاعات صغيرة انتشرت في « مراعى الفردوس » بسرعة
البرق ، ووصلت إلى « شارك » فزادت في نفسه مشاعر الكراهية تجاه
« جيمى » ، وخوفاً من تصرفاته وخبرته النسائية تساءل في نفسه :

- هل يمكن أن تجد « أليس » الجميلة الغبية مأمناً من شخص مثل
« جيمى مونرو ؟ » . فتعمد التحدُّث عنه بكراهية شديدة أثارته اهتماماً في
ذهن الفتاة البليدة :

- إِيَّاكَ أَنْ أَضْبَطُكَ مَعِ مَنْ يُسَمَّى « جيمى مونرو ! » .

- ومن هو « جيمى مونرو » يا أبى ؟

- لا يهم أن تعرفيه وإذا ضبَطْتُكَ تتحدثين معه أو تنظرين إليه مجرد نظر
فسأسلخ جلدك .

كان « شارك » يتعامل مع ابنته كما يتعامل مع إناء ثمين خشى عليه من
الحَدُّش ولم تضطره أن يعاقبها ، فقد كانت « أليس » دائماً طفلة طيبة
مطبعة ، والخطأ لا يصدر إلا عن فكر أو طموح ، وكانت بعيدة كل البعد
عن ذلك ، ومن كثرة ما حَدَّرَهَا من هذا الفتى تسلل إلى عقلها أنها يجب أن

ترى « جيمى مونرو » ، لدرجة أنها حلمت به ، وإذا عرفنا أن « أليس » نادراً ما تحلم عرفنا إلى أى حد تنبّهت إليه واهتمت به .

رأت فى منامها رجلاً يشبه صورة الرجل الهندى المرسوم على التقويم فى غرفة نومها اسمه « جيمى » ، وقد جاء إليها فى سيارة لامعة ، وقدّم لها ثمرة ناضجة ، ولما قضمتها سال عصيرها على ذقنها ، فارتبكت ، وعند ذلك أيقظتها أمُّها ، لأنها كانت تُشخِر .

وذات يوم تلقى « شارك » بَرَقية تخبره بوفاة العمّة « نيلى » فى الليلة الماضية ، وأن الجنازة يوم السبت . فتوجه إلى مزرعة « جون وايتسايد » ليعتذر له عن عدم حضوره اجتماع مجلس إدارة المدرسة ، فقد كان «جون» أمين سر هذا المجلس .

وقبل أن يغادر المكان تردد « شارك » للحظة قبل أن يقول :

- كنت أريد أن أسألك عن شركة « سان جوزيه » للبناء والتسليف .

ابتسم «جون» وايتسايد « وأجاب :

- لا أعلم الكثير عن هذه الشركة بالتحديد .

- فى الحقيقة الذى فى البنك ثلاثون ألف دولارٍ تُدرُّ ربحاً ٣ ٪ فقط

ففكرت أن أحصل على ربح أكثر إذا تحرّيت الأمر .

ضم « جون وايتسايد » شفّتيه ونفخ قليلاً وقال :

- من المُسلم به أن التسليف والبناء هما مجالك الأفضّل ، غير أن هذا

ليس أسلوبى ، فأنا لا أحب المضاربات إذا لم أستطع أن أحقق ربحاً

مؤكداً، فالمضاربون كثيرون .

فأجابه « جون » :

- معقول ياسيّد « ويكس » ، فشركات البناء والتسليف قليلاً ما تخسر ، وهى تدفع فائدة سخية .

ورد « شارك » كمن اتخذ قراره :

- سأبحث الأمر ، أمّا الآن فأنا ذاهب لحضور مأتم العمدة « نيلى » ، سأتوقف بضَع ساعات فى « سان جوزيه » وأبحث أمر هذه الشركة فى المتجر العام . . ودارت تكهنات وتقديرات جديدة لثروة « شارك » ، إذ أنه كان قد استشار عددًا من الرجال ، فاستنتج « ت . ب . آلن » قائلاً :

- هناك شىء واحد مؤكد ، هو أن « شارك ويكس » ليس غيبًا ، إنه يستشير عدة رجالٍ ليستفيد بآرائهم وخبراتهم ، ولا يُسَلِّم برأىٍ مَّا حتى يتفحصه بنفسه . وردّد الجميع .

- إنه ليس لعبة فى يد أحد .

ذهب « شارك » إلى « أولكراند » صباح السبت تاركاً زوجته وابنته لأول مرة فى حياته .

وفى المساء جاء « توم بريمان » يدعو « كاترين » و « أليس » إلى حفلي راقصٍ يُقام فى المدرسة ، فقالت « كاترين » بلهجة مذعورة مرتجفة :

- لا أعتقد أن السيد « ويكس » سيرضيه ذلك .

- ولكنه لم يقلّ لكما لا تذهبا . . هل قال ذلك ؟

- لا . . لكنه لم يتغيب عن البيت قبل اليوم . . ولا أعتقد أنه كان

سيقبل .

- أعتقد أن ذلك لم يخطر على باله . . هيا ارتديا ثيابكما .

وقالت « أليس » :

- دعينا نذهب يا أمي .

كانت « كاترين » تعلم أن ابنتها ستتخذ هذا القرار بسهولة ، لأنها أغبى من أن تخاف ، وما كان يمكنها تصور النتائج التي يمكن أن تحدث ، ولا أساييع المناقشات التي ستحدث عندما يعود « شارك » ، بل كان يمكن « كاترين » أن تسمع صوته يقول : « ظننت أنكما ستهتمان بالمكان في غيابي ، فكان أول عمل قمتم به هو أنكما سارعتما إلى حفل راقص . . وبعد ذلك يأتي دور الأسئلة المعهودة : « مع من رقصت « أليس » ؟ وماذا قال لها ؟ ولماذا لم تسمعي ماقاله ؟ كان يجب أن تسمعي » .

لن يغضب « شارك » لكنه سيظل يتحدث في هذا الموضوع لأساييع وأساييع ، إلى أن يجعلها تكره فكرة الرقص بشكل عام .

وعندما يأتي الموعد الشهري فستظن أسئلته كالباعوض إلى أن يتأكد أن « أليس » لن تضع طفلاً .

وهكذا اقتنعت « كاترين » أن متعة الذهاب للحفل لا يمكن أن تساوى استماعها إلى ما سيتبع ذلك من تأنيبٍ ونقيق .

وتضرعت « أليس » إليها :

- دعينا نذهب يا أماه . . إننا لم نذهب في حياتنا كلها إلى أى مكان وحدنا . واجتاحت « كاترين » موجة من الشفقة ، فالفتاة المسكينة لم يكن لها شيء خاص في حياتها ، ولم تتحدث حديثاً عابراً مع أى فتى ،

لأن والدها لم يكن يسمح لها أن تذهب إلى أبعد من مدى سَمْعِهِ ،
فأخذت قرارها وقالت لاهثة :

- حسناً إذا كان السيد «بريان» يستطيع انتظارنا حتى نستعد
فسنذهب . لقد شعرت بشجاعة هائلة بدخولها ، إذ إن ذلك سيشتعل
غضب «شارك» .

في الريف يعتبر الجمال الرائع نقمة مثله مثل القبح والدمامة . . كان
فتيان القرية ينظرون إلى « أليس » فتتضرع وجوههم وترتعش أيديهم ، وكانوا
يختلسون إليها النظر ، فإذا التفتت إليهم تظاهروا بعدم الشعور بوجودها ،
وكانوا لا يقدرّون على طلبها للرقص أو تبادل الكلام معها . . أما « أليس »
التي تتسبب في ذلك فلم تكن تدرك أنها جميلة إلى هذه الدرجة ، وكانت
«جيمي مونرو» مستندة إلى أحد الجدران في سَأم واضح عندما دخلت كل
من « كاترين» و « أليس » من باب المدرسة . . كان « جيمي » يرتدى
ثياباً جميلة ، وحذاءً لامعاً ، وربطة عنق سوداء فوق قميص أبيض من
الحرير ، كما كان شعره لامعاً . . وكواحد من شباب المدينة اندفع كالصقر،
وقبل أن تلح « أليس » معطفها كان يقف بجانبها قائلاً بصوته الرنان :

- هل ترقصين يا صغيرة ؟

فأجابت « أليس »

- ماذا ؟

- مارأيك في الرقص معي ؟

- تعنى أنا أرقص ؟

نظرت « أليس » إليه بعينيها الغامضتين المملوءتين بالتفاؤل ، وأصبح

السؤال السخيف مبهجاً باسم ، فقد كان يُلمَّحُ ضمناً إلى أشياء أخرى تثير حتى « جيمى المستهتر » ، وتصور أنها تعنى الرقص . . الرقص فقط ؟ على الرغم من خبرة « جيمى » منذ حياته ودراسته الثانوية فقد ارتعشت يدها ، واندفع الدم إلى وجهه ، واستدارت « أليس » لوالدتها التي كانت تتحدث مع السيدة « بريان » كعادة ربات المنازل وقالت :

- أمي ، هل لي أن أرقص ؟

ابتسمت « كاترين » وأجابتها :

- اسعدي بوقتك .

وجد « جيمى » رقصها سيئاً . . فلما توقفت الموسيقى قال لها : إن المكان حار جداً واقترح عليها الخروج قليلاً . . ثم قادها من يدها خارج القاعة إلى مابين شجيرات الصفصاف في ساحة المدرسة .

غير أن سيدة من الحاضرات كانت تقف عند مدخل المدرسة فرأتهما وأخبرت « كاترين » التي أصابها الذعر ، وأسرعت تنادى ابنتها بعنف وتأمرها بالعودة .

وعندما رأت الاثنتين التفتت « كاترين » وقالت لجيمى :

- إبتعد عنها . . هل تسمعني ؟ ابتعد عن هذه الفتاة وإلا تسببت لنفسك في المتاعب .

شعر « جيمى » بإهانة رجولته ، وكأنه طفل أرسل مطروداً إلى منزله .

دفعت « كاترين » ابنتها إلى فناء المدرسة متسائلة في رعب :

- ألم يأمرك والدك بالابتعاد عن « جيمى مونرو » ؟ أليس كذلك ؟

قالت « أليس » :

- هل كان هو « جيمى مونر » ؟

- نعم هُوَ ماذا كتبنا تفعلان بالخارج ؟

فأجابتها « أليس » بصوت مرتجف :

- كنا نتبادل القُبَل .

- امتلأت « كاترين » رعباً وقالت :

- يا إلهى ماذا أفعل ؟ !

- وهل كان هذا شرّاً يا أمى ؟

- لا . . ليس شرّاً لكن احذرى أن يعلم أباك بذلك ، لا تخبريه حتى لو سألك ، إنه سَيَجُنُّ . . اجلس إلى جانبي الآن وطوال السهرة إِيَّاكَ أن تحاولى رؤية « جيمى مونرو » مرة أخرى . . أرجو ألاّ يعلم والدك بما حدث .

وفي يوم الاثنين نزل « شارك ويكس » من قطار الليل في « ساليناس » ، وركب الأتوبيس الذى يمتد حَطُّ سَيَرِهِ من المرتفعات إلى « مراعى الفردوس » وبعد ذلك حَمَلَ حقييته وبدأ يكمل الرحلة سيراً على الأقدام ، قاطعاً مسافة أربعة أميال إلى بيته . . كان الليل صافياً ، والسماء منيرة بالنجوم ، وكانت التلال بأصواتها الغامضة كأنّها تُرحب به ، فتبعث في نفسه سلسلة من التصورات جعلته ينسى خطواته .

لقد استمتع باشتراكه في هذا المآثم . . فالزهور جميلة وكثيرة ، وقد بعث في نفسه بُكاء النساء وسير الرجال على أطراف الأصابع شيئاً عن الحُزن

النبييل الذى لم يكن مزعجاً . . حتى التراتيل الكنائسية ، تلك التى لا يفهمها ولا يصغى إليها أحد كانت بمثابة دواء صَبَّ في جسده وفكره حلاوة خفيفة ممتعة . . لقد أمضى ساعة في الكنيسة وعاد منها بالسلام المنعش الكامن في الأزهار وأريجها ، وفي البخور المتموج ، لقد أثار المأتم وبساطته البالغة كل هذه الأحاسيس في نفسه ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف العمدة « نيللى » جيداً فإنه سَعِدَ بمأتمها ، ولما سمع أقرباؤه عن ثرائه تعاملوا معه بحفاوة واحترام .

كانت هذه المشاعر قد يَسَّرت طريق عودته لمنزله ، أسرع بالزمن حتى وصل إلى باب المتجر العمومى في القرية ، فدخل ، لعلمه بأنه سيجد من يخبره عمَّا حدث في غيابه عن الوادى .

لم يكن بالمخزن غير صاحبه « ت. ب. آلن » الذى كان يعلم كل ما حدث . .

وقد اشتهر « آلن » بتحويله ومبالغته في كل خبر . . فأتفه شائعة تصبح مثيرة عندما يرويها .

دخل « شارك » ، بمجرد أن رآه « آلن » حتى اعتدل في جلسته ولمعت عيناه وقال بصوت واثق :
- سمعتُ أنك كُنْتَ غائِباً .

- كنتُ في « أوكلاند » لحضور مأتم ، وفكرت أن أودى بعض الأعمال في الوقت نفسه . وقهل « آلن » قبل أن يسأل :
- وهل قُمتَ بشيء ؟

- ليس عملاً بالمعنى المفهوم .. فقد كنت أتحرى أمرَ إحدى الشركات .

- هل استثمرت فيها بعض المال ؟

فأجابه « شارك » :

- قليلاً .

وسأل « شارك » :

- هل حدث شيء أثناء غيابي ؟

وفجأة تغيرت نظرات « آلن » العجوز كمن يحمل سراً لا يريد الإفشاء به وبدت على أساريه عدم الرغبة في الحديث فيما حدث تلافياً للفضيحة .. ولكنه قال أخيراً :

- حفل المدرسة الراقص !

- نعم .. قد علمت بأمره .

دار صراع في داخل « آلن » هل يُخبر « شارك » بمعلوماته من أجل مصلحته أم يحتفظ بمعلوماته لنفسه ؟ !

راقب « شارك » باهتمام هذا الصراع الذى رآه مرات كثيرة سابقة سأله بالحاح :

- حسناً .. ما الموضوع ؟

- سمعتُ أن زواجاً قد يحدث قريباً ؟

- زواج مَنْ ؟

- إنه قريب من بيتك . . كما أعتقد .

سأل « شارك » :

- من ؟

حاول « آلن » التهرب لكن دون جدوى ، فاستسلم وقال :

- أنت .

ردَّ « شارك » باستنكار :

- أنا !

فأجاب « آلن » :

- « أليس » .

فتصلبَ « شارك » وأسرع إليه منحنيًا ومهددًا :

- ماذا تعنى ؟ قل لي ماذا تعنى أيها ال... ؟

وأدرك « آلن » أنه تجاوز الحدود ، فتراجع إلى الوراء ثم قال :

- احذر يا سيد « ويكس » من إيذائي .

- أخبرني بما تعرف عن كل شيء .

هز « شارك » « آلن » من كتفيه بعنف ، قال « آلن » .

- لقد حدث ذلك في الحفل .

- هل كانت « أليس » في الحفل ؟

- نعم .

- ليس عملاً بالمعنى المفهوم .. فقد كنت أُنحري أمرَ إحدى الشركات .

- هل استثمرت فيها بعض المال ؟

فأجابه « شارك » :

- قليلاً .

وسأل « شارك » :

- هل حدث شيء أثناء غيابي ؟

وفجأة تغيرت نظرات « آلن » العجوز كمن يحمل سراً لا يريد الإفشاء به وبَدَتْ على أساريه عدم الرغبة في الحديث فيما حدث تلافياً للفضيحة . .
ولكنه قال أخيراً :

- حفل المدرسة الراقص !

- نعم . . قد علمت بأمره .

دار صراع في داخل « آلن » هل يُخبر « شارك » بمعلوماته من أجل مصلحته أم يحتفظ بمعلوماته لنفسه ؟ !

راقب « شارك » باهتمام هذا الصراع الذي رآه مرات كثيرة سابقة سأله باللاح :

- حسناً . . ما الموضوع ؟

- سمعتُ أن زواجاً قد يحدث قريباً ؟

- زواج مَنْ ؟

- إنه قريب من بيتك . . كما أعتقد .

سأل « شارك » :

- من ؟

حاول « آلن » التهرب لكن دون جدوى ، فاستسلم وقال :

- أنت .

ردّ « شارك » باستنكار :

- أنا !

فأجاب « آلن » :

- « أليس » .

فتصلبت « شارك » وأسرع إليه منحنيًا ومهددًا :

- ماذا تعنى ؟ قل لي ماذا تعنى أيها الـ ... ؟

وأدرك « آلن » أنه تجاوز الحدود ، فتراجع إلى الوراء ثم قال :

- احذر يا سيد « ويكس » من إيذائي .

- أخبرني بما تعرف عن كل شيء .

هز « شارك » « آلن » من كتفيه بعنف ، قال « آلن » .

- لقد حدث ذلك في الحفل .

- هل كانت « أليس » في الحفل ؟

- نعم .

- وماذا كانت تفعل في الحفل ؟

لا أعرف . . لا شيء .

جذبه « شارك » من على مقعده وأوقفه بشدة على قدميه المرتعشتين

وصرخ :

- أخبرني .

فهمس « آلن » :

- لقد تنزهت مع « جيمى مونرو » .

أمسكُ شارك كتفيه وهز البقال المدعور قائلاً

- احك لي ماذا فعلت ؟

- لا أدري ياسيد « ويكس » .

- صرخ « شارك » :

- أخبرني .

- قالت الأنسة « بيرك » إنها كانا يتبادلان القبلات .

ترك « شارك » « آلن » وجلس مذهولاً محققاً في « آلن » بنظرات فارغة ، غير أن عقله كان في صراع مع مشكلة « دنس » ابنته . . إذ لم يتصور أن الأمر قد توقف عند القبلات ، وأخذت عيناه تحملقان فيما حوله بنظرات يائسة ، فجأة وقعت عيناه على مكان البنادق المعروضة في واجهة المتجر .
فصرخ « آلن »

- حذارٍ أن تفعل شيئاً يا « شارك » ، فالبنادق ليست ملكك .

لم يكن « شارك » قد رأى السلاح ، غير أن هذه الكلمة قد وجهت انتباهه إليه ، فقفز بسرعة وفتح باب الواجهة الزجاجي وأخرج بندقية ثقيلة . . نزع عنها بطاقة السعر ، ودس في جيبه صندوقاً من الطلقات ، واندفع خارجاً ليذوب في الظلام دون كلمة أو نظرة إلى صاحب المتجر الذي تناول التليفون قبل أن ينتهي من سماع وَقَع خطوات « شارك » ، وبينما كان « شارك » متوجهاً إلى منزل عائلة « مونرو » كانت أفكاره تتدافع في ألم ويأس ، وبعد أن قطع هذه المسافة أصبح متأكدًا أنه لم يَرِدْ على خاطره فكرة قتل « جيمى مونرو » ، وإنما أوحى إليه البقال بهذه الفكرة ، ولقد قام بها دون تريث ، فماذا يفعل الآن ؟ . . وتحيل ما الذى يمكن أن يحدث لو دخل إلى منزل عائلة « مونرو » . . ربما اضطرته الظروف إلى إطلاق الرصاص على « جيمى مونرو » وارتكاب جريمة لحفظ كرامته في « مراعى الفردوس » .

سمع صوت سيارة قادمة فقفز نحو الغابة حتى مرت بهديرها بجواره ، ولاحظَ أنه سيصل إلى منزل عائلة « مونرو » بسرعة ، وأنه لم يكره « جيمى » ولم يشعر ناحيته إلا هذا الشعور عندما سمع بفقد ابنته لعذريتها ، وهو الآن لا يتصورها إلا « ميتة » . أصبح الآن يرى أضواء بيت عائلة « مونرو » . . ولكنه أدرك أنه لا يستطيع قتل « جيمى » حتى ولو أصبح موضع سخرية . . لن يقتل الفتى « مونرو » فهو ليس من هواة الجريمة . . وقرر أن يصل للبوابة ثم يعود إلى بيته . . وفجأة قفز رجل في وجهه وصرخ فيه :

- ارم البندقية يا « ويكس » وارفح يدك .

رَمَى « شارك » البندقية على الأرض بإذعانٍ . . لقد عَرَفَ صوت

ضابط الأمن فى المقاطعة وقد قابله عدة مرات، وكثيراً ما كان يُرْحَبُ به
قائلاً:

- هالو «جاك» .

ورأى جمعاً من الناس حوله ، وخلفهم رأى وجه «جيمى» مرعوباً . .
ورأى أيضاً «بيرت مونرو» والخوف ظاهر عليه ، فلما رأى «شارك» صاح به :
- لماذا أردت قتل «جيمى» . . إنه لم يُؤذِكْ ، أخبرنى «ألن» تليفونياً
عن نيتك ، ويجب أن أمنعك من إيذاء أحد .
أجابه رجل الأمن .

- لن تستطيع أن تسجنه فهو لم يفعل شيئاً ، كل مايمكنك عمله هو أن
يدفع كفالة مالية ويتعهد بعدم الإخلال بالأمن .

ورد «بيرت» بصوت مرتجف :

- هل هذا رأيك ؟ سأقوم بما أشرت به .

- من الأفضل أن تطلب كفالة كبيرة ، فشارك رجل ثرى ، هيا نصحبه
إلى «ساليناس» الآن وهناك تتقدم بدعواك .

فى الصباح دخل «شارك» ويكس» بيته وارتمى على فراشه ، كانت عيناه
مُجْهَدَتَيْنِ مَفْتُوحَيْنِ ، وارتمت ذراعاها إلى جانبه كجثة هامدة ، وظل هكذا
لساعات طويلة . سُرَّتِ الزوجة عندما رأتها قادماً إلى المنزل وكانت فى
الحديقة . وقد رأت الزوجة كتفيه المنحيتين ورأسه المحمول عليها بتعب
وإجهاد .

وسارت على أطراف أصابعها عندما ذهبت لإعداد الغذاء ، وطلبت
من «أليس» التزام الهدوء

وفي الثالثة أطلت الزوجة على باب غرفة النوم وقالت :
- « أليس » بخير . . كان يجب أن تسألني قبل أن تفعل كل ذلك .
وبقى « شارك » لا ينطق ولا يتحرك .
- ألا تصدقني ؟

وراعها جموده فقالت :
- إن كنت لا تصدقني فسعرضها على الطبيب وسأستدعيه الآن إذا
أردت .

أجاب « شارك » وهو جامد كأنه جثة تتكلم :
- إنني أصدقك .

كانت « كاترين » تقف عند مدخل الغرفة . . كانت غريزتها تقودها ،
ففعلت ما لم تفعله في حياتها ، فقد أشرفت أفكارها وجلست على طرف
الفرش وجذبت رأس « شارك » إليها ومسحت بيدها على جبهته . . كان
يبدو على جسده الإنهاك واليأس . . وظل بصره متعلقاً بالسقف ، غير أنه
بدأ يتكلم كلاماً متقطعاً :

- لقد عرفوا جميعاً أنني لا أملك مالاً ، وأني لم أملك ثروة في يوم من
الأيام ، فقد أخذوني وطلبوا مني تعهداً بعشرة آلاف دولار ، وكان يجب أن
أخبر القاضي . . هل تفهمين ما أعني ؟ لقد سمعوا جميعاً . .
لم يكن هذا السجل أكثر من كذبة . . كل ما فيه كان وهماً . . أنا
الذي صنعته ، والآن لم يبق أحد لا يعرف ذلك .



كانت قصة اكتشاف أصل « تولاريشيتو » الذى يحيطه الغموض مجرد أسطورة رفض أهالى « مراعى الفردوس » تصديقها تماماً كرفضهم الاقتناع بوجود أشباح . كان « بانشو » هندياً مكسيكياً يعمل أجييراً عند « فرانكلين جميز » ، وكان « بانشو » يدخر ليذهب إلى « مونتيرى » مرة كل ثلاثة أشهر ليعترف بخطاياها ويُكفّر عنها ، ثم يذهب بعدها ليحتسى الخمر . . . وكثيراً ما استطاع الفكاك من التعرض للحبس . . . كان يخرج من الحانة عندما تغلق أبوابها فيذهب إلى عربته ، وما إن يستقر بداخلها حتى ينام ، فينطلق به الجواد عائداً للمزرعة ، ليصل إليها قبل طلوع الشمس ، فيكون الإفطار مُعدّاً ، فينال « بانشو » إفطاره ثم يذهب إلى عمله . كان « بانشو » يصل المزرعة دائماً وهو نائم داخل العربة ، لذلك فقد تعجب الجميع بشدة عندما وصل ذات مرة إلى المزرعة مستيقظاً يقود عربته متجهاً إلى الحظيرة بسرعة كبيرة .

ارتدى « جوميز » ملابسه وذهب ليتعرف من « بانشو » على القصة الغريبة التى سمعها ، والتى كان ملخصها : « أن بانشو » كان عائداً إلى البيت وهو « يَقْظُ وَاع » كالمعتاد ، وفجأة اقترب من أرض « بليك » ، فسمع صوت طفل يبكى وسط النباتات على جانب الطريق ، أوقف

«بانشو» عربته واتجه للصوت ليتأكد منه ، فوجد طفلاً صغيراً مُلقًى في مكان واضح وسط النباتات ، وكان - على ما يبدو من شكله - طفلاً في الشهر الثالث من عمره ، فحمله وأشعل عوداً من الثقاب ، وأصابه الرعب عندما وجد الطفل يغمز له بعينيه ويقول بصوت عميق :

- انظر ، لَدَيَّ أسنان حادة جداً !

ألقى «بانشو» بسرعة ما في يده وقفز إلى العربية وانطلق بها وهو يضرب بالسوط حصانه العجوز ويصرخ صراخاً يشبه نباح الكلب .

جذب «جوميز» لحيته وفكر ملياً ، فقد كان يعرف «بانشو» جيداً ، ويعلم أنه بعيد عن الجنون والهستيريا ، حتى وهو تَمَلُّ ، ووجد أن مجرد صَحْوهِ يدل على أن شيئاً قد حدث ، فأخذ جواده وانطلق إلى المكان الذي حدده «بانشو» ووجد الطفل وعاد به إلى المزرعة .

لكن الرضيع لم يتكلم قبل ثلاثة أعوام ، وتبين أن فمه كان خالياً من الأسنان ، ومع ذلك لم يقتنع «بانشو» أن الطفل قد خاطبَهُ بهذه الكلمات المرعبة .

كان الطفلُ غريبُ التكوين ، فكان له ذراعان قصيرتان ، وساقان طويلتان مفككتا المفاصل ، ورأس ضخمة يرتكز على أكتاف عريضة مشوهة ، ولم يكن له عنق يفصل بين الرأس والكتفين ، وكان وجهه المسطح المرتبط بجسده الغريب سبباً في تسميته «تولاريشيتو» ، وهي بمعنى «الضفدع الصغير» . وكان «جوميز» على الرغم من ذلك يناديه : «الذئب» ، لأنه يرى في وجهه علامات المكر الشديد . . لم يوافق «بانشو» على هذه التسمية ، فاعترض مُدَّكِّراً سيده بشكل الطفل وتكوينه ، وهكذا لصق بالطفل اسم «تولاريشيتو» .

ولم يُعرَف مَنْ هو الذى تَرَكَ هذا المخلوق الصغير المشوّه وألقى به ، غير أن « جوميز » قد رباه فى مزرعته وأسند مهمة رعايته لبانشو الذى لم يستطع التخلص من مخاوفه من الطفل ، ولم تتمكن الأيام ولا السنون من محو الأثر الذى تركته العبارة التى نطق بها « تولاريشيتو » فى وجهه أول مرة .

كبر الطفل « تولاريشيتو » بسرعة ، غير أن عقله قد توقف عن النمو عند الخامسة .

وما إن بلغ السادسة حتى كان يستطيع أن يؤدى عمل رجل بالغ . كانت أصابعه أقوى وأمهر من معظم الرجال . واستثمروا فى المزرعة أصابع «تولاريشيتو» حتى أنه ما من عقدة صعبة تستعصى عليه . وعلى الرغم من هذه القوة فقد كانت هذه اليد تتعامل بحنو ورقة بالغة مع النباتات ، فلم يُؤذِ شتلة ، أو يחדش غصناً .

وكذلك ظهرت على « تولاريشيتو » موهبة تثير الإعجاب ، فقد كان ينحت بظفر إبهامه تماثيل دقيقة لمختلف الحيوانات على البلاط . ولقد احتفظ « فرانكلين جوميز » فى بيته بكثير من تماثيل الذئب والأسود والسناجب الصغيرة التى نحتها « تولاريشيتو » ، كما علق فى السقف صورة طولها قدمان لصقيرٍ مُخلَّقٍ نحته هذا المخلوق العجيب .

أمّا « بانشو » فقد أرجع موهبة الطفل إلى نوع من الملامح الشيطانية والنشأة غير الطبيعية . . ورفض أن يعتبر الطفل إنساناً بمعنى الكلمة . ومع أن سكان « مراعى الفردوس » لا يعتقدون فى النشأة الشيطانية «لتولاريشيتو» فإنهم لم يرتاحوا له ، فقد كانت عيناه عجوزتين ، على وجهه تبدو ملامح سكان الكهوف ، كما أن قوته الجسدية الهائلة المصحوبة بالموهب الغريبة قد أبعدت عنه الأطفال ، وتسببت فى قلق الرجال والنساء .

شيء واحد فقط كان قادرًا على إغضاب «تولاريشيتو» إذا حاول أحد أن يحطم عملاً من صنوع يديه ، فقد كان يهجم بوحشية على المدمر أو اللامبالي والشرر يتطاير من عينيه ، فكان «جوميز» في هذه الأحوال يربط يديه ورجليه ويتركه وحيداً حتى يهدأ وتعود إليه طبيعته الطيبة . . كان ذلك بعد أن تكررت هذه الحوادث ثلاث مرات كاد «تولاريشيتو» أن يقتل الشخص الذي أساء إلى أعماله .

وعند بلوغه السادسة لم يذهب «تولاريشيتو» إلى المدرسة ، على الرغم من موافقة «جوميز» على ضرورة ذهابه إليها ، ففي كل مرة يبحثون به إلى المدرسة كان يختفى يوماً أو أكثر لشدة خوفه من المدرسة ، لم تستطع قوة القانون أن تجبره على الذهاب إلى المدرسة إلا عندما بلغ الحادية عشرة ، وأصبحت يدها وكتفاه غاية في القوة .

كان «جوميز» يعلم أن «تولاريشيتو» لم يتعلم شيئاً على الإطلاق ، إلا أنه قد أضاف لموهبته في النحت موهبة جديدة على نفس القدر ، وهي الرسم .

عندما اكتشفت المدرسة «مسز مارتن» فيه هذه الموهبة أعطته قطعة من الطباشير وطلبت إليه أن يرسم على السبورة قافلة من الحيوانات ، فأمضى الفتى فترة طويلة بعد اليوم الدراسي في الرسم ، وفي الصباح التالي كانت الجدران تحمل صورة رائعة لمهرجان حيوانى تجتمع فيه كل الحيوانات التى رآها «تولاريشيتو» ، وفوقها تُحلق جميع أنواع الطيور ، وكذلك أفعى تزحف وراء بقرة ، وذئب وراء خنزير ، وقد رسم كل هذا في دقة وتفصيل مدهش .

انبهرت «مسز مارتن» بعبقرية «تولاريشيتو» فأثنت عليه ، وامتدحت عمله أمام التلاميذ، وألقت محاضرة قصيرة عن كل حيوان من الحيوانات التي رسمها وشرحت مع ما تصوره من مجد لاكتشافها هذه الموهبة وإنائها .

وقال «تولاريشيتو» «لمسز مارتن» ذات يوم :

-إننى أستطيع أن أنتج أكثر من هذا بكثير .

وربتت «مسز مارتن» فوق كتفيه قالت :

- لك ما تشاء ، سترسم كل يوم . . لقد منحك الله موهبة كبرى .

انحنى عليه وتطلعت إلى عينيه مؤكدة أهمية ما قالت :

-إنها موهبة عظيمة وهبها الله لك .

ونظرت إلى الساعة وأعلنت بابتسامة بدء الحساب للصف الرابع .

اندفع تلاميذ الصف الرابع لمحو رسوم الحيوانات التي رسمها «تولاريشيتو» ليتسع مكانها لكتابة الأرقام ، ما كادوا يمرون بالمساحة على اللوح مرتين حتى هجم عليهم «تولاريشيتو» . . وكان ماحدث يوماً مشهوداً . . فلم تستطع «مسز مارتن» يعاونها تلاميذ المدرسة جميعاً من السيطرة على «تولاريشيتو» بسبب ما يكتسبه عند الغضب من قوة رجل ، بل قوة رجل مجنون . . وأسفرت المعركة عن تحطيم أثاث عُرف الدراسة ، وقلب المقاعد وسكب الحبر ، ونثر وبعثرة باقات الزهور المهداة إلى المدرسة وتمزقت ثيابها وأصيب الطلاب الكبار الذين وقع عليهم عبء المعركة ، بجروح ورضوض وإصابات بالغة ، فقد قاتل «تولاريشيتو» بيديه وقدميه

ورأسه وأسنانه دون ضوابط حتى انتصر في النهاية . . أما « مسز مارتن » فقد فُكَّت ومعها جميع الطلاب تاركة المدرسة لتولاريشيتو ، الذي ما إن وجد نفسه وحيداً حتى أغلق عليه الباب ومسح الدم من على عينيه ، ثم بدأ في إصلاح الرسوم التي ضاعت بعض معالمها بسبب المسح .

وتوجهت « مسز مارتن » في هذه الليلة إلى « فرانكلين جوميز » وطلبت منه معاقبة « تولاريشيتو » بالجلد .

هز « جوميز » كتفيه ونظر إليها قائلاً باستنكار :

- هل تريدان حقاً أن أجلده ؟

فأجابته بوجه مملوء بالخدوش :

- طبعاً أريد ذلك . . لو شاهدت بنفسك ما فعله لَمَّا استنكرت طلبى هذا ، إنه فعلاً طلبى ، وهو في حاجة إلى تأديب .

استدعى « جوميز » « تولاريشيتو » وإنزع من على الحائط سوطاً كبيراً ، وبينما كان « تولاريشيتو » يتسم برقة في وجه « مسز مارتن » وَجَّهَ « جوميز » سوطه من الخلف بقسوة إلى ظهر « تولاريشيتو » فأخذت يد « مسز مارتن » تتحرك لا إرادياً كما لو كانت تشاركه الضرب ، وعندما انتهى العقاب تحسس « تولاريشيتو » نفسه وعاد إلى فراشه وهو لا يزال مبتسماً ، لقد شاهدت « مسز مارتن » العقاب والرعب يملأ قلبها .

وأخذت تصرخ :

إنه حيوان . . لقد كان الأمر كما لو أنك تجلد كلباً .

بَدَأَ بعضُ الاحتقار لها على وجه « جوميز » وهو يقول :

- لو كان كلباً لتذلل . . تقولين إه حيوان . . لكنه حيوان طيب ، لقد طلبت إليه أن يرسم ، ثم طلبت إزالة ما رسمه هو لا يجب ذلك ، وعلى الرغم من محاولاتها مقاطعته فإنه استرسل قائلاً :

- لا يجدى هذا الضفدع الصغير الذهاب للمدرسة ، فهو قادر على تأدية أعمال مدهشة بيديه . . فعقله لا يستوعب ما تُعلمه له المدرسة . . فهو ليس بمجنون ، وإنما من أولئك الذين لم يكتمل خلقهم تماماً .
وأضاف :

- حاولت أن يكتفى بذلك ، وبحثت الأمر مع المفتش ، فقال إن القانون يُلزمه الذهاب إلى المدرسة حتى سن الثانية عشرة ، أى بعد سبعة أعوام من الآن . . إن ضفدعى الصغير سيقى سبعة أعوام في الصَّفِّ الأول ، لأن القانون يحتم ذلك ، والأمر ليس في يدي .
قاطعته « مسز مارتين » قائلة :

- إن « تولار يشيتو » المخلوقُ حَظَرٌ يجب أن يُجَبَسَ ، وكان يجب أن ترى ما فعله اليوم .
أجابها « جوميز »

- كلاً . . هو ليس مخلوقاً حَظَرًا ، ويجب أن يبقى حُرًّا طليقًا ، فليس هناك من يملك قدرته على حَلْبِ الأبقار بهذه السرعة والرقّة . . ولا في استطاعة أحد أن يفعل مثله فَيُرَوِّضُ حصاناً جامعاً دون أن يركبه ، أو يدرّب كلباً دون أن يلجأ إلى ضربه ، ولكنه القانون يُلزمنا أن يظل في الصف الأول سبعة أعوام ليردد : « قاق . . قطة » . . ولو كان خطراً فعلاً لا استطاع أن يقتلني بسهولة عندما كنت أضربه .

- هنا أدركت « مسز مارتين » أن هناك أموراً كثيرة لا تفهمها عن «تولاريشيتو» ، وشعرت أنها تصرفت بحقارة ، في حين كان « جوميز » كريماً شهماً .

وفي صباح اليوم التالي في المدرسة وجدته أمامها ، وكانت رسوماته للحيوانات تغطي كل الجدران ، وقال لها :

- هل رأيت رسوماتي الجديدة ؟ لَدَيَّ كتاب به صور كثيرة لم أجد مكاناً كافياً لأرسمها .

لم تحاول « مسز مارتين » أن تطلب مسح رسوماته واستبدلت السبورة بالورق ، وقدمت استقالتها في نهاية السنة الدراسية لأسباب صحية .

كانت المدرسة الجديدة « مس مورجان » شابة غاية في الجمال ، ورأى شيوخ الوادي أنها أصغر مما يجب ، وكان جمالها خطراً على بعض الطلاب في الصفوف العليا ممن في سن السابعة عشرة ، وكان مشكوكاً أن تقوم مدرسة في هذه السن بالقدرة على حفظ النظام في المدرسة .

أضفت « مس مورجان » بحماسها الشديد لعملها روحاً جديدة على المدرسة التي اعتادت على وجود العوانس من المُدَرِّساتِ المتقدمات في السن - كانت « مس مورجان » تجد متعة كبيرة في عملها كمُدَرِّسة ، فأثارت دهشة المُدَرِّسة ، وغيرت من طابعها المعتاد .

أثرت حالة « تولاريشيتو » في نفس « مس مورجان » منذ رأته أول مرة ، وكانت على علم ، بظروفه كما كانت قد قرأت كتباً وأخذت دروساً عن المخلوقات ناقصة التكوين مثله . . ولأنها سمعت عن المعركة التي أشعلها فقد قسمت السبورة نصفين خصصت النصف العلوي لرسوم «تولاريشيتو»

واشترت له كراسة رسم كبيرة من مالها الخاص . فأصبح لا يهتم بخصص القراءة والكتابة ، وإنما لزم كراسة الرسم ليقدم لها كل مساء رسماً رائعاً لأحد الحيوانات ، فكات تأخذه شاكرة وتعلقه أعلى السبورة .

شغف التلاميذ بخصص « مس مورجان » وطريقتها الجديدة ، بل إن أكثر التلاميذ شغياً مع المدرسة السابقة فقدوا اهتمامهم بهذا الشغب ، كما لجأت « مس مورجان » إلى حيلة جديدة أقبل عليها التلاميذ ، فقد كانت تقرأ عليهم ولمدة نصف ساعة يومياً ، فقرات من « إيفانهو » أو « التعويذة » ، وقصص الصيد والمغامرات . . فلم تكن تقرأ عليهم قصص الأطفال التقليدية ، مثل قصة « الزجاجة الحمراء الصغيرة » ، وقصة « الإوزة والذئب » ، كانت تقرأ عليهم القصص المثيرة للكبار . . فالتف حولها التلاميذ حتى المشاغبين ، فقد كانوا يتركون ، اللعب خوفاً من أن يضيع عليهم جزء من القصة التي كانوا يتابعونها بشغف .

أمّا « تولاريشيتو » فلم يكن يهتم بسماع القصص ، وإنما كان يستمر في الرسم بعناية ، وبين فترة وأخرى يتوقف ليختلس النظر إلى « مس مورجان » محاولاً أن يفهم لماذا يهتم التلاميذ بهذه القصص التي كانت في نظره كالدروس ، ولهذا لم يكن يهتم بها .

شعرت « مس مورجان » بعد فترة أنها قد بالغت في ذلك ، فأصبحت مهتمة بخصص الجنيات ، وصارت وتهتم بالذين اقتنعوا بوجود جنات ، ثم كانت النتيجة أن شاهدها وقد خصصت نصف ساعة من بعد ظهر كل يوم لقراءة حكايات الجن . . وهبنا بدأ « تولاريشيتو » يتغير كلما قرأت لهم « مس مورجان » قصصاً عن الجن ، والحوريات ، والغيلان . . فكان

ينسى القلم في يدهُ ويترك كل شيء ليستمع إليها في اهتمام بالغ بكل كلمة
تقرأها .

كانت « مس مورجان » تجتاز طريقها وحيدة إلى المزرعة التي كانت
تعيش فيها سيرًا على الأقدام في نهاية اليوم الدراسي ، فتقطف زهرة بريّة من
هنا وتقدف حجرًا هناك ، وتراقب طيور السَّمان وهي تطير خائفة . .
وفكرت في اقتناء كلب يشاركها هذه الرحلة الممتعة ، فيلاحظ حبال الحفر
والمخابىء في الأرض ، ودبيب الزواحف على الأوراق الجافة ، وسحر
التغريد الحزين لبعض الطيور ، وهذه الرائحة العطرة التي تنبعث من
الأرض . . لقد تسلقت بعد ظهر أحد الأيام رُبوة مرتفعة لترسم أحرف
اسمها الأولى على طرف صخرة ، وبينما كانت تتسلق جرحت أصبعها ،
فحفرت على الصخرة عبارة : « هنا كنت ، وفي هذا المكان تركتُ بقعةً من
دمي » . . ثم ضغطت بإصبعها المجروحة على الصخرة فانطبعت عليها
بقعة صغيرة من الدم .

وفي تلك الليلة دَوَّنت انطباعاتها فقالت :

« بعد أن يُؤمَّن الإنسانُ مصدرَ رزقه ، لديه أمل منشود في أن يترك
بصمةً أو دليلاً على أنه قد عاش . . ربما يترك هذه البصمة على الصخور،
أو على الخشب ، أو على حياة غيره من الناس . . هذا الأمل المنشود يكمن
في نفس أيِّ إنسان ، ابتداءً من الطفل أو الفتى الذي يكتب عبارات بديئة
على جدران المراض ، إلى « بوذا » الذي يخفر صورته في عقول أتباعه ، إن
الحياة مُغرقة في اللاواقعية . . وربما شككنا في وجودنا ، ولذلك فإننا
نحاول جاهدين أن نثبت ونؤكد أننا نعيش في الواقع » .

واحتفظت « مس مورجان » بصورة من هذه الانطباعات . وذات يوم ، بعد قراءة فصل عن الأشباح لتلاميذها ، عادت ذات مساء إلى البيت ، وفي طريق عودتها أحست بحركة بين الأعشاب ، ظهر بعدها رأس «تولاريشيتو» المخيف .

صرخت « مس مورجان » :

آه ! أفزعنتي . . لا يصح أن تُفاجئني هكذا !

قام « تولاريشيتو » واقفاً على قدميه وابتسم خجلاً ، وأخذ يضرب بقبعته على فخذه . شعرت « مس مورجان » بالرعب يملؤها ، فالطريق كانت مهجورة . . وقد قرأت قصصاً كثيرة عن المعتوهين ، تحكمت بصعوبة في صوتها المرتعش وسألته :

- ماذا . . ماذا تريد ؟

انفرج فم « تولاريشيتو » عن ابتسامة عريضة ، في حين أسرع حركة القبعة في يده . فسألته مرة أخرى :

- هل كنت مستلقياً على الأعشاب ؟ أم أنك تريد شيئاً ؟

بذل الغلام جهداً حتى يتكلم ، ثم احتفى وراء ابتسامته . . فقالت وهي على وشك أن تفر من أمامه :

- ماذا تريد ؟

بذل جهداً كبيراً حتى ينطق لسانه :

- كنت أريد أن أسالك عن هذه المخلوقات .

- سألته :

أى مخلوقات تعنى ؟

- هؤلاء الذين حكى عنهم الكتاب .

ضحكت « مس مورجان » فى ارتياح وقالت :

- هل تعنى الأقسام والأشباح حُرَّاس الكنوز ؟

أوما برأسه موافقاً .

- وماذا تريد أن تعرف عنها ؟

أجابها « تولاريشيتو » بصوت لا يعلو ولا ينخفض :

- لم أرَ واحدًا منها فى حياتى .

- من النادر أن يراها أحد .

- ولكننى أعرف عنها أشياء .

- لمعت عينا « مس مورجان » فى اهتمام وسألته :

- مَنْ حكى لكن عنها ؟ وماذا عرفت ؟

فأجاب « تولاريشيتو » .

- لم يَحْكِ لى عنها أحد .

- مادمت لم ترها ولم يَحْكِ لك أحد ، فما الذى تعرفه عنها ؟

أجاب :

- ربما أكون قد سمعتها تتكلم .

وفكرت « مس مورجان » :

- « لماذا أنفى وجود الأقزام والأشباح من خيال هذا الكائن الناقص الغريب ، ألا يمكن أن يسعد بحياته عندما يعيش معها بخياله ؟ وما الضرر في ذلك ؟ »

وسألته : هل بحثت عنها ؟

- لا لم أبحث عنها ، وكنت أعرف وجودها فقط ، لكنى سأبحث عنها من الآن

انبهرت « مس مورجان » بالموقف وشعرت أن أمامها فرصة قدمها لها لوجود قصة واقعية مبهرة أكثر من أى كتاب .

وسألته : أين سبتحت عنها ؟

فأجاب :

- سأحفر .

- ولكن الأقزام والأشباح لا تظهر إلا ليلاً يا «تولاريشيتو» . . يجب أن ترقبها في الليل ، وعليك أن تخبرنى إذا وجدت واحداً منها هل تعدنى؟

- أعدك .

وتركته يتابعها ببصره ومضت في طريقها وهى سعيدة ببحثه عن الأشباح ليلاً ، فقد يعثر عليها ويتحدث إليها . . لقد استطاعت بكلمات قليلة أن تغير حياته وتفضله عن البلهاء المتشردين حوله ، وتجعل الأشباح أكثر جاذبية وإثارة .

- وفى المساء ارتدى « تولاريشيتو » ملابسه وأخذ فأساً وهم بالخروج .
ولكن « بانشو » العجوز رآه فسأله :

- إلى أين أيها الضفدع الصغير؟
أصابت «تولاريشيتو» بعض العصبية لأنه قد يحول بينه وبين الخروج .
- إننى أخرج دائماً ليلاً ، فما الجديد؟
- ولكنك تحمل فأساً ، فهل ستبحث عن الذهب ؟
وبدت الجديدة على وجه الصبى وقال :
- إننى ذاهب لأبحث عمّن يعيشون فى باطن الأرض .
- أصاب «بانشو» الرعب ، وقال :
- لا تذهب . . استمع إلى صديقك العجوز ، إلى أبيك الروحى . .
اسمع نصيحتى ولا تذهب ، فأنا الذى وجدْتُكَ فى الحقل ، وأبعدُ عنك
أقرباءكَ من الشياطين ، إنكَ الآن الأخ الصغير للمسيح . . فلا تعد إلى
أهلك واسمع نصيحة رجل كبير . نظر «تولاريشيتو» إلى الأرض وأضاف
إلى عقله هذه المعلومات الجديدة ، وقال لبانشو :
- قُلْتُ إن الشياطين هم أهلى . . وأنا لا أشبه الآخرين ، هنا أو فى
المدرسة ، وأنا أعرف ذلك . . إننى أحسن إلى أهلى فى باطن الأرض . . إنهم
مثلى ، وقد نادونى ، ويجب أن أذهب إليهم يا «بانشو» .
وهنا تراجع «بانشو» رافعاً إصبعين متعاقدين وقال :
- اذهب إذن إلى أبيك الشيطان ، فأنا لا أكفى لأقاوم هذا الشرير ،
فذلك يحتاج إلى قديس ، ولكن انظر ، لقد رسمت علامة الصليب ضدك
وضد أهلك جميعهم ، فى الهواء وابتسم «تولاريشيتو» فى حزن واتجه نحو
التلال .

خفق قلب « تولاريشيتو » من شدة الفرح لعودته إلى موطنه الحقيقي ،
قد قضى حياته غريباً منبوذاً وها هو ذا يعود إلى وطنه . . وكما اعتاد فقد
سمع أصواتاً تنبعث من باطن الأرض ، ورنين الأجراس المعلقة في رقاب
الأبقار ، وأصوات ملايين الحشرات ، وزجاجة ذئب ، وصفير الطيور ، غير
أنه كان يسترق السَّمْعَ إلى أصوات أخرى ، صوت حركة الكائنات ،
والأصوات الصادرة من مخلوقات خفية تعيش تحت الأرض .

وتوقف ذات مرة لينادى « ياأبى » لقد عدتُ إلى البيت ، لكن بلا
جواب . وهمس : « أين أنتم يا قومي ؟ ، لقد عاد « تولاريشيتو » إلى وطنه .
لكنه لم يتلق رداً ، بل ولم يشعر بأى أشباح قريبة منه

وهنا ظهر القمر من وراء التلال ، فأخذ « تولاريشيتو » يهمس ويبتهل
في نفسه : « إن الحيوانات ستنتقل الآن ، وسيخرج سكان العالم السفلى .»

كان هناك بستان مملوء بأشجار الفاكهة كثيفة الأوراق ، ومزرعة خصبة
تطل على الوادى ، هى مزرعة « بيرت مونرو » وكان « تولاريشيتو » يأتى إلى
هذا البستان ليستلقى تحت الأشجار وينظر للنجوم ، لقد شعر في لحظة
اقتربه من البستان ، أنه يقترب من وطنه . . لم يكن يسمع صوت الأشباح ،
لكنه كان يعرف أنها قريبة منه . . ونادى عليها مرة بعد مرة ، ولكنها لم تُكَلِّبْ
نداءه ، فقال في نفسه : « ربما لا تحب الظهور في ضوء القمر » .

حفر « تولاريشيتو » حفرة عميقة جداً عند جذع شجرة ضخمة ، وظل
يَحْفَرُ طوال الليل ويتوقف للحظات يستمع ثم يواصل الحفر في الأرض
المبللة ، وعلى الرغم من أنه لم يسمع شيئاً فإنه كان واثقاً من أنه يقترب من
العالم السفلى ، وتوقف عند ظهور خيوط الفجر ، فانسحب وسط الأشجار
الكثيفة لينام .

وفي اليوم التالي خرج «بيرت مونرو» من منزله ليرقب فخاً نصبه لاصطياد الذئاب ، ففوجيء بالحفرة التي حفرها «تولاريشيتو» عند الشجرة ، فغضب وثار ، وقال : لابد أن الأولاد كانوا يحفرون خندقاً ، وهذا شيء قد يعرضهم للخطر ، فقد ينهار الخندق عليهم أو يقع أحدهم فيه ويؤذي نفسه . وعاد إلى البيت بعد أن ردم الحفرة ، وسأل أبناءه الذين نفوا علمهم بالحفرة ، ولما أقبل الليل ، خرج «تولاريشيتو» من بين الأشجار ليتابع الحفر ، فوجد الحفرة وقد رُدمت ، فزجر غاضباً ، غير أنه فكر وضحك متصوراً أن من يبحث عنهم قد ظهوروا ، وأنه سيختبئ ليراهم ويعرفهم بنفسه .

وبدأ «تولاريشيتو» يحفر الحفرة ويعمقها ، وقبل بزوغ الفجر اختبأ وسط الأشجار وأخذ يتربص .

خرج «بيرت مونرو» قبل الإفطار ليرقب الفخ من جديد ، فوجد الحفرة ، فصباح غاضباً : «لقد حفروها مرة أخرى ، ولابد «مانى» مشترك معهم» . بدأ «بيرت مونرو» في ردم الحفرة ، وفجأة سمع زججة متوحشة ، وفي لحظة هجم عليه «تولاريشيتو» وهو يقفز كالضفدعة على ساقيه الطويلتين وهو يلوح بفأسه كالعصا .

حضر «جيمى مونرو» ليستدعى والده لإفطار فوجده مُلقى على الأرض والدم ينزف من فمه وجبينه ، والتراب يتطاير من الحفرة . وتصور «جيمى» أن هناك مَنْ قتل والده ويحفر قبراً ليدفنه ، فجرى مذعوراً إلى المنزل واستدعى فريقاً من جيرانه ، فعثروا على «تولاريشيتو»

الذى قاومهم كالأسد الجريح بكل ما أوتى من قوة ، حتى ضربوه على رأسه فسقط فاقدًا الوعي ، فقيده ووضعه فى السجن .

وفى « ساليانس » فحصت مجموعة الأطباء « تولاريشيتو » الذى كان يتسم بوداعة كلما سألوه ، لكنه لم يكن يجيب . أما « فرانكلين جوميز » فقد أدلى بمعلوماته عنه للأطباء ، مطالباً بوضعه تحت وصايته ، لكن القاضى رفض طلب « جوميز » قائلاً :

- لا يمكن أن نُجيب طلبك ، فقد حاول أن يقتل رجلاً ، ولذلك فلا يمكننا إطلاق سراحه ، وإلاّ كرر المحاولة إن عاجلاً أو آجلاً

وبعد مداولة قصيرة حكم القاضى بإيداع « تولاريشيتو » مصححة للأمراض العقلية للحالات الخطرة فى « نابا » .



كانت حياة « هيلين ديفنتر » مرتبطة بالكوارث ، متصفة بها . . كانت « هيلين » طويلة القامة ، حزينة العينين ، حادّة الملامح . . بدت كأنها أرملة عند موت قطتها حينما كانت في الخامسة عشرة ، وظلت في حُزن عليها ستة أشهر ، حزن هادىء عميق . . أمّا والدها الذى توفى في نهاية هذه الأشهر الستة فقد ظل حدادها عليه مستمراً بلا توقف ، وكان واضحاً أنها باحثة عن المآسى ، فغمرتها بها الحياة .

عندما بلغت الخامسة والعشرين تزوجت من « هيوبرت ديفنتر فان » الذى توفى بعد ثلاثة أشهر من زواجه بها . . فقد كان صياداً يقضى ستة أشهر من كل عام في مهمة صيد ، فأصاب نفسه بطلق نارى . . وبينما كان يحتضر سأله : هل يريد إبلاغ أى وصية لزوجته ؟ فأجاب :

- أوصوها أن تضع صورتى بين الإبل ووحيد القرن

أسدلت « هيلين ديفنتر فان » الستائر ، وكرست قاعة الاستقبال وكل ما فيها من تذكارات الصيد لروح « هيوبرت » . . لم تبك « هيلين » فليس من طبيعتها البكاء ، بل اتسعت عيناها ، وأصبح واضحاً عليها السرحان في الماضى . . وكان « هيوبرت » قد ترك لها المنزل في « سان فرانسيسكو »

وثروة كبيرة . وقد لدت ابنتها « هيلدا » بعد ستة أشهر من مقتل « هيوبرت » ، وكانت طفلة جميلة كالدمية ، لها نفس عيني والدتها الواسعتين غير أن « هيلدا » أصيبت بجميع أمراض الأطفال بسرعة غريبة . . وقد بدأت في البداية بالصراخ وما إن بدأت في التنقل حتى أخذت في تحطيم كل ما يعترض طريق غضبها . . وكانت « هيلين دفنتر » تحاول دائماً تدليلها ، غير أن ذلك لم يسبب إلا زيادة ثورتها .

وعندما بلغت « هيلدا السادسة أكد « د . فيليبس » طبيب العائلة لهيلين ما شككت فيه من قبل :

« إن عقل « هيلدا » ليس على مايرام . واقترح أن تعرضها على طبيب نفسى ، وامتلات عينا الأم السوداوان ألاماً .
وأضاف الطبيب :

- إننى لست متخصصاً فى هذا ، ، وعليك أن تعرضيها على من هو أقدر منى .

قالت هيلين :

- لقد تعودنا أن نحيطنا برعايتك . . لن أستطيع أن أتق بغيرك .

انفجر « د . فيليبس » صائحاً :

- يجب أن تدركى أننا نستطيع شفاءها إذا تدراكنا الأمر .

رفعت « هيلين » يديها وخفضتها فى يأس ، وقالت :

- لن تُشفى أبداً يادكتور ، فقد وُلدت فى توقيت غير مناسب ، كانت وفاة والدها أقسى من أن أحتملها ، ولم تكن حالتى تسمح بحمل طفلة

مكتملة . . ما الذى يمكن عمله يا دكتور ؟ لا أملك إلا الصبر ولاأمل فى أن أستوعب الموقف ، وسأراقبها وأرعاها وأكرس لها حياتى ، لكن لن أستطيع عرضها على غيرك .

قال الطيب :

- يبدو أنك تُصعِّبِين الأمور على نفسك .

- إننا نأخذ ما يُمنح لنا ، وسأستطيع الاحتمال . . أنا متأكدة من ذلك ، فلا توجد كارثة أقوى من قُدرة تحملى . . ولكن شىء واحد لا يمكن أن أتحمله . . وهو سلب « هيلدا » منى . . سأتمسك بها ، وستأتى لتراها كالمعتاد ، لكن لا يجب أن يتدخل واحد آخر .

غادر « د فيليس » المنزل مندهشاً . . فقد كان احتماها وجلدها غير المُبرَّر يدهشه دائماً . وقال :

- لو كنت من القَدَر لعملتُ جاهداً على تحطيم هذه المقاومة المستكينة !

لم تمض فترة طويلة على هذا الحوار حتى بدأت الأحلام والرؤى تهاجم « هيلدا » . . فترى مخلوقات مفزعة ذات مخالب تحاول قتلها وهى نائمة . . أو تعضها أقزام مخيفة فى أذنها . . وصاحت « هيلدا » ذات صباح :

- جاء نمر وجرَّ الغطاء عنى .

- لا تخافى منه يا حبيبتى .

- لكنه حاول أن يعضنى يا أمى .

- سأنام بجوارك الليلة حتى لايعود النمر إليك .

وظلت تسهر بجانب سرير الطفلة كل ليلة حتى الفجر وزادت عيناها

احمرارًا بسبب هذا العناء المجنون ، ولكن الأكاذيب التي بدأت « هيلدا »
تحكيها كانت تقلقلها أكثر من الأحلام :

- ركبت فيلاً ذهبياً هذا الصباح يا أمى ، وذهبت للحديقة ، فوجدت
عجوزاً جالساً فى الشارع ، طَلَبَ منى الذهاب معه إلى منزله ، فذهبت ،
وهناك تركنى أركب الفيل الكبير .

كانت عينا الفتاة تسرح بعيداً وهى تحكى قصتها ، وكانت أمها تتوسل
إليها :

- لا تَحْكِ هذه الحكايات يا حبيبتي . . فأنتِ تعرفين أن ذلك لم يحدث .
- ولكنه حدث ، وقد أعطانى العجوز ساعة . . انظرى ، هاهى ذى .
ومدت يدها بساعة يد مُرَصَّعة بالماس . . ارتعشت يد « هيلين » فزعاً
وهى تأخذ الساعة ، وقالت بغضب :

من أين هذه الساعة يا « هيلدا » ؟

- لقد أعطها العجوز لى يا أمى .

وكان محفوراً على ظَهْرِ الساعة الحرفان الأولان من اسم لا تعرفه
« هيلين » ، التى نظرت بياس إلى الحرفين وقالت بحزم :

- ستأخذ « ماما » هذه الساعة يا عزيزتى .

وتسللت هذه الليلة ودفنت الساعة فى حفرة عميقة فى الحديقة ، وفى
نفس الأسبوع أقامت سوراً حديدياً حول الحديقة ، ولم تعد تسمح لهيلدا
بالخروج وحدها ، وفى سن الثالثة عشرة هربت « هيلدا » من المنزل ،
واستأجرت « هيلين » مخبرين سرين خصوصيين للبحث عنها . . وبعد

أربعة أيام عُثِرَ على « هيلدا » نائمة في مكتب عقارى مهجور في « لوس أنجلوس » . . . وتَسَلَّمَتْ « هيلين » ابنتها من قسم الشرطة ، وسألتها :

- لماذا هربتِ يا « هيلدا » ؟

- أردتُ أن أعزف على البيانو .

- لماذا لم تعزفي على البيانو الذى فى بيتنا ؟

- أردتُ أن أعزف على النوع الآخر ، الطويل .

- أجلست « هيلين » « هيلدا » وضممتها بقوة :

- وماذا فعلت بعد ذلك يا حبيبتي ؟

- خرجت إلى الشارع ، واصططحبني رجل فى سيارته ، وأعطاني خمسة دولارات ، وعشتُ مع بعض الغجر وجعلوني ملكة عليهم ، ثم تزوجت واحداً منهم ، وكنا على وشك إنجاب طفل ، ولكنى تعبت ونمت وجاء شرطى وأخذنى .

قالت « هيلين » :

- يا حبيبتي المسكينة . . تعرفين أنه لا شىء من هذا صحيح .

- ولكنه صحيح يا أمي .

واستدعت « هيلين » الدكتور « فيليبس » وقالت له :

- تقول « هيلدا » إنها تزوجت غجرية ، هل تظن ذلك صحيحاً . . .

لا يمكن تحمُّل هذا .

فحص الطبيب الفتاة بعناية وقال :

- لقد نصحتك بعرضها على طبيب متخصص .
واقترت من الفتاة وسألها :
- ' - هل عادت العجوز الشريرة إلى غرفة نومك يا « هيلدا » ؟ !
ارتعشت يدا « هيلدا » وقالت :
- جاءت أمس ومعها قرد كبير حاول أن يعضني .
- تذكرى أن هذه العجوز تخافنى ولا يمكن أن تؤذيك ، لأننى أركاك ،
وإذا عادت أخبريها أننى أركاك وسترين أنها ستهرب بسرعة .
ابتسمت الفتاة وقالت :
- وهل سيهرب القرد أيضاً ؟
- طبعاً . . وعلى فكرة هذه قطعة حلوى لابنتك .
وأخرج من جيبه قطعة من حلوى النعناع وهو يقول :
- هذه لبابيت . . هذا اسمها ، أليس كذلك ؟
انتزعت « هيلدا » الحلوى من يده وجرت خارج الحجرة .
- خبرتى وعلمى من المؤسف أنها أقل مما يتطلبه علاج « هيلدا » التى
أعرفها أنها ستتدهور ، خاصة أنها تقترب من سن البلوغ ومرحلة النمو وما
يرافقها من انفعالات ستزيد من اضطرابها العقلى ، ولا يمكن تصور ما قد
يحدث . . فقد تتحول إلى قاتلة ، أو تهرب مع أول رجل يصادفها . . فإذا لم
تضعيها فى أيدي خبيرة وتوليها رقابة دقيقة ، فقد يحدث ما تندمين عليه .
فهروبها مؤخراً ليس إلا مقدمة لما يمكن أن ترتكبه .

جلست « هيلين » في جمود ، وكان الصمود الذى استنفره مرسوماً على ملامح وجهها ، فسألته مُعنفة :

- ما الذى تنصح به ؟

- إيداعها فى مستشفى خاص للأمراض العقلية .

كان مسروراً لأن رده جاء قاسياً .

تقلص وجه الأم ، وارتبكت صلابتها ، وصاحت :

- أنا مسئولة عنها وهى لى ، ولن أفعل ذلك . . سأبقى معها ولن أتركها تغيب عن بصرى ، ولن أبعداها عنى .

فرد بحنق :

- إنك تعرفين النتيجة .

ثم أدرك صعوبة التفاهم معها فقال :

- إننى صديق لك يا « هيلين » منذ أعوام . . فلماذا تتحملين كل هذا العبء من الحزن والخطر وحدك ؟

- يمكن أن أتحمل أى شىء إلا أبعداها عنى !

- لقد أعجبتك دور الشهيدة ، فأنتِ تتلذذين بالألم ، ولا تتركين جزءاً من أى مأساة إلا وعشيتيه بالكامل .

ثار غاضباً وصاح مكماً

- هيلين ، على الرغم من أننى رجل هادىء فإننى أريد أن أضربك بقبعتى .

ونظر إلى عينيها السوداوين وأدرك أنه أضاف إلى مآسيها مأساة جديدة، وأضاف إليها ما ستعاني بسببه وقال :

- أنا ذاهب . . لا تستدعيني مرة أخرى . . لقد بدأت أكرهك .

عرف سكان « مراعى الفردوس » قدوم سيدة ثرية إلى الوادى للعيش فيه، وشاهدوا السيارات التى تنقل الأخشاب وتصعد الطريق إلى «كريساس كانيون» ، وسخروا من إنفاق المال بحماقة ، وإحضار الأخشاب لبناء كوخ . . قضى « بيرت مونرو » نصف النهار مراقباً للنجارين وهم يشيدون المنزل فى « كريساس كانيون » .

وفى المتجر العمومى وقف يحكى ما شاهده :

- لا بد أن السيدة « فان ديفنتر » واسعة الثراء ، لقد بدّءوا العمل فى بناء المنزل بالفعل ، ولا شك أنه سيكون جميلاً ، كل خشبة فيه رائعة الشكل ، أكثر من بستانى يأتون بالشتلات والأشجار المزهرة ويزرعونها فى الأرض . وقال « بيرت هنبرت » :

- هؤلاء الأثرياء يسرفون فى النفقات .

وأضاف :

- حزرُوا ما اذا وضعوا على النوافذ ؟ لقد ركّبوا قضباناً ، وهى ليست حديدية ، بل خشبية سميقة . . أليست هذه من تصرفات النساء الغريبة ؟ لا بد أن هذه العجوز تخاف الذئاب .

وتكلم « ت . ب . آلن » :

- هل ستُخَصِر معها كثيراً من الخدم ؟ لا بد أنها ستشتري احتياجاتها من المدينة كأمثالها .

وصلت « هيلين فان ديفنتر » ومعها « هيلدا » وخادم فلبيني ، وطاقه صيني بالسيارة إلى « كريسماس كانيون » . . وبمجرد إتمام المنزل والحديقة كان المنزل الخشبي جميلاً ، وقد أضيف الصنّاع عليه مساحة قديمة برشّه بالحوامض ، وكذلك الحديقة التي كانت بها أشجار الغار والسنديان ، ونبتت بجوارها زهور بيضاء وزرقاء ، كما أُحيطت الممرات بسور من الأزهار الزرقاء . . سارع الخادم والطاهي إلى مكانها في حين أمسكت « هيلين » بذراع « هيلدا » وتمشيا في الحديقة

قالت « هيلين » :

- هل تعتقدى يا حبيبتى أننا سنحب الإقامة في هذا المكان الجميل ؟

قطفت « هيلدا » زهرة طويت بها جذع سنديانه وقالت :

- إننى أفضل منزلنا السابق .

- لماذا يا حبيبتى ولم يكن عندنا هذه الزهور الجميلة والأشجار الباسقة ؟

هنا نستطيع التنزه بين التلال .

- أننى أفضل منزلنا القديم .

- لماذا يا حبيبتى ؟

- لأن أصدقائى كلهم هناك ، وكان يكفى أن أنظر من السور لأشاهد

الناس وهم يمرون .

- ستحبين الحياة هنا بعد أن تعتادى عليها .

- لا . . لن أحب الحياة هنا أبداً .

أخذت « هيلدا » تبيكى ثم أخذت فى الصراخ فجأة ، والتقطت لوحاً من الأرض وضربت أمها على صدرها به .

تسلل الخادم فى هدوء من خلف الفتاة وأمسك بذراعيها وحملها إلى المنزل وهى تحبب بساقيها وتصرخ .

حطمت « هيلدا » أثاث الغرفة التى أعدت لها . . مزقت الوسائد ، ونشرت الريش فى الغرفة . . وحطمت زجاج النافذة ، وطرقت على الألواح الخشبية وهى تصرخ بغضب . . أما « هيلين » فقد ظلت فى غرفتها ، وكلما قررت القيام والذهاب إلى « هيلدا » ظلت فى مقعدها . . وجاءت لحظة أو شك فيها هذا الجلد أن ينهار ، غير أنه عاد أقوى مما كان . . لم يعد يؤثر فيها هذا الصراخ القادم من غرفة « هيلدا » . .

ودخل الخادم يسأل :

- هل أغلق النوافذ ؟

- لا يا « جو » . . إننا بعيدون عن الناس ، ولن يسمع هذا الصراخ أحد .

* * *

- من الصعب على سيدة أن تبدأ حياتها هنا وحدها ، أعتقد أن يجب أن أرى هل يحتاجون إلى شىء ؟

قال « بيرت مونرو » ذلك لزوجته وهو يرى السكان الجدد داخل السيارة متجهين إلى المنزل الخشبي فى « كريسماس كانيون » .

قالت زوجته مازحة :

- الفضول وحده . هو الذى يدفعك إلى ذلك .

- إذا كنتِ تعتقدين ذلك فلن أذهب .

- كنت أمزح يا « بيرت » . . من حسن الجوار أن تفعل ذلك ،
وسأذهب أنا لزيارتها فيما بعد مع السيدة « وايتسايد » . . اذهب الآن
لتساعد في تنظيم أمورهم .

ومشى على ضفاف الجدول في قاع « كريساس كانيون » وقال لنفسه :
« الحياة جميلة في هذا المكان غير أنه غير صالح للزراعة . كان يمكن
أن أقيم في مثله دون عمل ، لولا عقْد الهدنة في الموعد الذى تمت فيه » .
وصل إلى سمعه صراخ « هيلدا » وهو لا يزال على بُعد ربع ميل من
المنزل ، فقال في نفسه :

« ما هذا ؟ كأنهم يقتلون أحداً . »

أسرع ليرى ماذا يحدث .

رأى « بيرت » الفتاة من النافذة المحاطة بالقضبان تطل على الممر
الأمامى للمنزل ، وكانت ممسكة بالقضبان وقد ملأتها الثورة والخوف ، فقال
لها :

- ماذا يحدث ؟ لماذا حبسوكى ؟

قالت « هيلدا » :

- إنهم يُجِيعُوننى ويريدون أن أموت .

قال « بيرت » :

- لماذا يريدون أن تموتى ؟

وأجابت كمن يهمس بشيء مهم :

- مالى هو السبب . . فهم لن يحصلوا على مالى إلا بعد أن أموت .

- ولكنك فتاة صغيرة .

قالت « هيلدا » :

- لست فتاة صغيرة . . فأنا امرأة مكتملة الأنوثة وأبدو صغيرة فى السن

لأنهم يضرّبوننى ويُجِيعُوننى

تجهّم وجه « بيرت » وقال :

- سأبحث الأمر .

- لا تخبرهم . . يكفى أن تُخرجنى من هنا وسوف أحصل على أموالى

وأتزوجك . شك « بيرت » فى الأمر ، وقال مهدئاً :

- طبعاً . . سأساعدك . . انتظرى قليلاً وسأخلصك .

سار إلى المدخل

- هل يمكن أن أقابل ربة المنزل ؟ أجاب الخادم :

- لا .

ثم أغلق الباب .

أحمرّ وجه « بيرت » خجلاً ، ولكنه عاد يدق الباب بغضب :

- قُلّت لك أريدُ مقابلة ربة المنزل بخصوص الفتاة المحبوسة .

أجابه الخادم :

- السيدة مريضة جداً . . متأسف جداً .
وأغلق الباب . . سار « بيرت » في الممر عائداً وهو يقول لنفسه :
سامرُ زَوْجَتِي أَلَّا تزرهم . . فتاة مجنونة ، وخادم وقح . . فليذهبوا إلى
الجحيم .

نادت « هيلين » من غرفة النوم :
- ما الأمر يا « جو » ؟
- طلب رجل مقابلتك فقلت له إنَّكِ مريضة .
حسناً . . من هو ؟ ولماذا كان يريد مقابلتي ؟
- لا أعرف من هو . . ولكنه كان يريد مقابلتك بخصوص الأنسة
« هيلدا » .
وفجأة تلون وجه « هيلين » غضباً وعنفته قائلة :
- من هو ؟ وماذا كان يريد ؟
- لا أعلم ياسيدتى .
- وتركته يُذهب ؟ إنَّكَ تتصرف دون الرجوع إلَيَّ . . أُخْرِجْ من هنا .
وألقت بنفسها على مقعدها وغطت عينيها . . قال « جو » وهو ينسحب
ببطء :
- أمركِ ياسيدتى .
- فقالت :

- تعال يا « جو » .. ارجع .

فلما عاد قالت ولم تزل تخبىء عينيها :

- ساعجني يا « جو » .. لقد فعلت الصواب .. ستبقى معي أليس كذلك ؟

- نعم ياسيدتى .

قامت « هيلين » وسارت نحو النافذة وقالت والقلق يبدو عليها .

- لا أعرف ماذا حدث لى اليوم .. هل « هيلدا » بخير ؟

- نعم .. الأنسة هادئة الآن .

- حسناً ، أشعل النار فى مدفأة غرفة المعيشة ثم استدعى « هيلدا » .

وكانت « هيلدا » قدر راعت فى تصميمها لحجرة المعيشة أن تصنع نصباً تذكاريًا لزوجها .. فجعلتها أقرب إلى كوخ الصيد .. كانت غرفة واسعة ، جدرانها وأعمدتها من الخشب الأحمر .. وعلى جدرانها مجموعة مختلفة الأنواع من رءوس الغزلان ، وفى أحد الجوانب مدفأة حجرية ضخمة عُلِّق فوقها عَلم حربى فرنسى ممزق ، أحضره « هيوبرت » من مكان ما .. وقد اصطفت بنادق « هيوبرت » فى صندوق زجاجى مغلق .. وكانت « هيلين » تعرف أنها لن تفتقد زوجها ، لأن لديها هذه الحجرة المشبعة بعبق ذكره لتجلس فيها .

كانت « هيلين » تتمنى أن تحقق لها هذه الحجرة فى البيت الجديد ما كانت تمنحه لها غرفة الاستقبال فى بيت « التل الروسى » من أحلام وخيالات ، كانت تجلس أمام النار معقودة اليدين ، وتتأمل تذكارات الصيد

المعلقة ، وتكرر : « لقد اصطاد هيوبرت هذا » ، فتتوالى خيالاتها بالترتيب ، و يُجَيَّل إليها أنها تراه أمامها ، فتتأمل شكل يديه ، وطول ساقيه . وبعد ذلك تتذكر طريقة كلامه ومقاطع الشدّ على الكلمات ، وكيف كان وجهه يزداد احمراراً عندما يغضب ، وكيف كان يتنقل بين ضيوفه ويستعرض تذكارات الصيد معهم . . كان « هيوبرت » يتوقف أمام كل تذكارة شابكاً يديه وراء ظهره ، راوياً طريقة صيد الحيوان بكل تفاصيلها الدقيقة .

كانت « هيلين » تتخيل أنها تستمع إليه يرى كل هذه الحكايات ذات النهايات المتشابهة :

« كانت المسافة بعيدة جداً ، والرياح تهب من الشمال . . وأوقعت الصيد . . وكان الأمر مجرد حظ طبعاً » .

ولم يكن « هيوبرت » يعنى فعلاً أن الأمر مجرد « حظ » ، ولكنه مجرد تواضع منه .

كانت خيالات « هيلين » تتسلسل بهذه الصورة ، إلى درجة أنها كانت تشعر بهذا الصياد الماهر يملأ بحيويته المكان ، وعندما كانت تصل بخيالها إلى هذه المرحلة تسمع جرس الباب يُصدر رنةً حزينة ، وترسم أمامها وجوه الرجال المرتبكين وهم يروون الحادثة لها في حزن .

وتسترجع صورتهم وهم يصعدون سلم المدخل الأمامى حاملين الجثمان . وهنا كانت موجة طاغية من الحزن تملأ صدرها فتغوص في مقعدها . . وهكذا إستبقت زوجها حياً بداخلها ، وكانت ترفض بعناد أن تسمح لصورته أن تغيب في ذاكرتها . كانت زوجة لمدة ثلاثة أشهر . . ثلاثة أشهر فقط . . ومن هنا كان شعور بالاكئاب واليأس يتملكها ،

وكانت تتسبب في طغيان هذا الشعور ، لكنها كانت ترحب به وفاء لذكرى «هيربرت» .

وكانت « هيلين » تتهياً لخيالاتها في الليلة الأولى من الإقامة في منزلها الجديد ، وهى أمام المدفأة أمام الحطب المشتعل والنور اللامع المنعكس على عيون الحيوانات الزجاجية . عاد « جو » إلى غرفة النوم وقال :

- أشعلتُ النارَ ياسيدتى . . هل أدعو الأنسة « هيلدا » الآن ؟

نظرت « هيلين » من نافذتها ، كان الغروب يكسو قمم التلال ، وبدأت بعض الخفافيش في الطيران هنا وهناك ، ونادت طيور السَّان بعضها البعض وهى تتجه إلى الماء ، في حين كانت الأبقار في قلب الوادى تعود إلى الحظيرة . من القريب أن يغمر « هيلين » في هذه اللحظة شعور بالسلام . . وشعرت أنها بعيدة عن يد الكوارث التى ارتبطت بها فترة طويلة ، وتنهدت بارتياح . . كان « جو » لا يزال واقفاً عند الباب .

فقال « هيلين » :

- ماذا ؟ الأنسة « هيلدا »؟ لا تُحضرها الآن . . لا شك أن العشاء أصبح جاهزاً ، وإذا كانت « هيلدا » لا تريد العشاء فسأراها بعد ذلك . لم ترغب في رؤية « هيلدا » حتى لا يتلاشى الشعور بالسلام . . أرادت أن تجلس لتستمتع بها حولها ، ضوء الغروب ، وطيور السَّان ، وأصواتها وهى قادمة لتشرب قبل هبوط الليل . وضعت « هيلين » وشاحاً حريرياً على كتفيها وخرجت إلى الحديقة - التى بدت كأن السلام قد غلَّفها وأحاط بها ، ورأت أرنباً رمادياً صغيراً له ذيل أبيض بين الزهور . . فسرها هذا المشهد ، وأدار الأرنب رأسه وتطلع إليها برهة ثم تابع قضم النباتات الجديدة ، وفجأة

شعرت « هيلين » بسعادة جنونية كأن شيئاً مثيراً سيحدث ، من فرط سرورها
خاطبت الأرنب :

- أَكْمِلْ وجبتك ، يمكن أكلُ الزهور القديمة .. غداً سأزرع لك
كرنباً.. هل اسمك « بيتر » ؟ جميع الأرنب اسمها « بيتر » لم أنتظر شيئاً منذ
زمن بعيد ، أليس هذا مضحكاً ، بل إنه محزن ، لكننى الآن أكاد أنفجر
ترقباً .. لا أعرف ما هذا الشيء الذى أترقبه .. ومشت مبتعدة ، وأشارت
للأرنب قائلة :

- أعتقد أن الزهور الأخرى أَلدُّ طعماً .

وجذبها صوت خرير المياه ، فسارت نحو الجدول .. لما اقتربت من
الضفة، اندفع سربٌ من طيور السمان فى فزع ، وخجلت « هيلين » لأنها
أفزعتهما ، فقالت :

- عُوْدِي ، إن الأرنب لم يهرب منى .. إننى لن أؤذيك أبداً ، وتذكرت
كيف اصطحبها « هيوبرت » ليعلمها الصيد بالبندقية ، كيف كان جاداً
رزيناً وهو يعلمها طريقة حمل بنادق الصيد ، وكيف تُصوبها وعيناها
مفتوحتان قائلاً :

- سأقذف الآن علبة من الصفيح .. لا أريدك أن تطلقى النار على شىء
ثابت .. فإنَّ من السهل أن تُطلق النار على طير واقف ، .

وقد ظلت تُطلق النارَ بحماسٍ على علب الصفيح .. وفى طريق
العودة إلى المنزل رَبَّتْ ذراعها قائلاً :

- سيمر وقت طويل قبل أن تصطادى طيور السمان ، ولكن يمكنكِ بعد
فترة قصيرة اصطيد الأرنب .

وتذكرت الحبال الجلدية التى أحضرها إلى المنزل وقد عُلقَت بها الطيور من رقابها . وفجأة أدركت « هيلين » أنها لم تكن تريد استرجاع ذكرى « هوبرت » ، فقد كانت ذكريات الماضى تقضى بداخلها على هذا الشعور بالسلام .

أسدلّ الظلام ستائره ، وامتلاً الجو برائحة النبات . . . وسمعت صوت جرس الطاهى للدعوة للعشاء . . . شدت « هيلين » وشاحها وعادت إلى المنزل ، وجدت ابنتها قد سبقتها إلى غرفة الطعام . . . وبدت سعيدة راضية جداً عن نفسها ، وقد اختفت ثورتها وقت الظهيرة . . . وقالت « هيلين » :
- « هيلدا » يا حبيبتى ، أنتِ أحسن الآن ، أليس كذلك ؟

- نعم .

قبلتها « هيلين » على جبينها وضممتها بقوة وقالت :

- عندما تشعرين كم هى الحياة جميلة ستحبينها . . أنا واثقة من ذلك .

ولم ترد « هيلدا » ولكن المكر بدا فى عينيها .

وردت « هيلين » :

- ستحبين الحياة هنا . . أليس كذلك ؟

وردت « هيلدا » ردّاً غامضاً :

- قد أحب الحياة هنا وربما لا أحبها .

- ماذا تقصدين ؟

- ربما لا أبقى هنا لفترة طويلة

- ماذا؟

نظرت « هيلدا » إليها بسرعة . . وكانت تحاول أن تحتفظ بسرِّها ،
وقالت :

- قد أهرب وأتزوج .

استرخت « هيلين » في مقعدها وابتسمت قائلة :

- آه فهمت ، سيحدث ذلك طبعاً ، ولكن من الأفضل الانتظار بضع
سنين ، ومن هو هذه المرة؟ الأمير أيضاً؟

- لا ، إنه رجل فقير ، ولكنى سأحبه ، لقد رسمنا اليوم جميع خططنا
وأعتقد أنه قادم لمصاحبتى .

وتذكرت « هيلين » وسألته :

- هل هو الرجل الذى حضر ظهر اليوم إلى المنزل؟

وقامت « هيلدا » مسرعة من على المائدة وقالت :

- لن أخبرك بشيء ، وليس من حقك أن تسألينى . . انتظري قليلاً
وسأثبت لك أننى لن أبقى فى هذا المنزل العتيق .

جرت إلى غرفتها وأغلقت باب حجرتها بعنف .

قرعت « هيلين » الجرس للخادم وسألته :

- « جو » . . ماذا قال الرجل الذى جاء اليوم بالضبط؟

قال إنه يريد مقابلتك بخصوص الفتاة الصغيرة .

- كيف كان يبدو؟ وكم يبلغ من العمر؟

- لم يكن عجوزاً ولا شاباً أعتقد أنه في حوالي الخمسين .

أدركت « هيلين » أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد مأساة من المآسى التي تخترعها « هيلدا » وتحكيها ، وإن كانت « هيلدا » تتخيل أنها حقيقة . . مسكينة ! تناولت « هيلين » طعامها ببطء ثم جلست أمام المدفأة في حجرة المعيشة وراحت تبعد النار عن الحطب المتوهج ، وأطفأت جميع الأنوار . . ورجعت إلى عاداتها القديمة ، وبدأت تتخيل « هيوبرت » ، يديه وساقيه المستقيمتين ، ولكنها لم تستطع تخيله بوضوح ، لقد اختفت ملامحه . . وعاد إليها السلام عندما عاودها الأمل .

أخفت « هيلين » وجهها بيديها وبكت . . ثم جففت عينيها وسارت ببطء في الحجرة وفتحت النوافذ الكبيرة ، وعالجت المزاليج الجديدة ، وتسلسل نسيم الليل إلى الحجرة ، ولفح النسيم كتفيها العاريتين ، واستندت إلى النافذة تستمع إلى هذه الأصوات الرقيقة القادمة من التل ، وشردت . . إنها مملوءة بالحياة ، تتفجر حيوية ، وبينما هى تستمع انتبهت إلى صوت يأتى من الناحية الأخرى للمنزل ، صوت مبرد الخشب ، وقالت :

- ما هذا ؟ هل هو صوت حيوان يحفر تحت شجرة ؟ لقد سمعتُ عن وجود حيوانات تقرض أساس المنازل الخشبية ، ولكن لا أعتقد بوجودها هنا .

وسمعت صوت ارتطام ثم سكون ، فانتابها القلق ، وأسرعت إلى غرفة « هيلدا » وصاحت :

- هل أنتِ بخير يا حبيبتى ؟

ولما لم تسمع ردًا دخلت الحجرة فوجدت أحد الألواح الخشبية مخلوعاً ،
وأن « هيلدا » قد اختفت .

جمدت « هيلين » للحظة مذهولة أمام النافذة المفتوحة والظلمة خارجها ،
وشحب وجهها وتقلصت شفاتها ؛ كعادتها عندما تواجه المصائب ،
وذهبت إلى حجرة المعيشة ، ودون شعور فتحت صندوق الأسلحة وأخذت
بندقية . جلس الدكتور « فيليبس » بجانب « هيلين » في مكتب المحقق
الجنائي ، كان عليه أن يتواجد بصفته طبيب الفتاة ، وكان باعته أيضاً حماية
« هيلين » من الفزع ، لكنها بدت في حُزنها الشديد كالصخرة التي يغسلها
البحر . . كان المحقق يسأله :

- هل كان هروبها متوقعاً ؟

نظر الدكتور « فيليبس » بارتباك إلى « هيلين » وقال :

- من المستحيل معرفة ذلك . . فقد كانت مريضتى منذ ولادتها ، وفي
مثل حالتها يمكن أن تتحرر أو ترتكب جريمة قتل . . وكذلك من الممكن
أن تعيش دون أن تُلحق الضرر بأحد ، أو تأتي بفعل عنيف .

كان المحقق يوقع أوراقاً ويقول :

- كان الأمر مروعاً . . بالتأكيد كانت تعاني من الجنون ، وبغض النظر
عن الدوافع التي من الممكن في مثل حالتها أن تكون دوافع تافهة جداً .
كان رأسها في الجدول والبندقية بجوارها . سأوصى باعتبار الحادث حادث
انتحار ! . . آسف للحديث بهذا الأسلوب ياسيدة « فان ديفنتر » ، أنا
مُقدّرٌ أن عثورك عليها كان صدمة رهيبية لك .

ساعد الدكتور « فيليبس » « هيلين » على الخروج من المحكمة وقال لها :
- تماسكى . . إن ما حدث هو الأفضل ، فلا تتألمى لهذا القدر .
لم تنظر إليه ، وقالت بصوت رقيق :
- أعرف الآن ما ينتظرنى فى الحياة . . ما كنت أشك فيه دائماً ،
لاتقلق يا دكتور . . إنى أستطيع الاحتمال .



6

كان « جونيوس موليتي » سليل عائلة طيبة مثقفة ، نشأ
نشأة طيبة ، وكان شاباً نحيفَ الحجم ، وعندما توفي والده
مفلساً اضطرَّ للالتحاق بعملٍ كتابيٍّ استمر فيه عشر
سنوات تم تركه .

كان « جونيوس » يعود إلى غرفته المفروشة بعد عمله فيستند إلى الوسائد
على « الشيزلونج » ويقضى مساءه في القراءة ، وكان يرى أن « ستفنسون »
هو أرفع من كتب بالإنجليزية ، وقد أعاد قراءة كتاب « رحلات مع حمار »
عدة مرات ، وبعد أن بلغ عامه الخامس والثلاثين فقد وعيه ذات مساء على
سُلم المنزل الذي يستأجر إحدى حجراته ، ولما أفاق اكتشف أنه يتنفس
بصعوبة . . كان الطبيب الذي استشاره متفائلاً ولطيفاً قال له :

- لَمْ تُهْمَلْ في نفسك إلى درجة عدم تدارك الأمر . . ولكن يجب أن
تبتعد برئيتك عن « سان فرنسيسكو » التي إن بقيت فيها لن تعيش عاماً
واحداً . . إنك تحتاج إلى جو جاف دافئ .

سُرَّ « جونيوس » بما حدث ، وشعر أن القيد الذي كان يكبله قد كُسِرَ
من تلقاء نفسه وكان لديه خمسمائة دولار نسي أن ينفقها ، فقال :

- بهذا المبلغ إما أن أشفى وأبدأ حياتي من جديد بداية نظيفة ، أو أموت وأتخلص من هذه الحياة .

نصحه أحد موظفي المكتب بالمعيشة في وادي « مراعى الفردوس » الدافئ ، فانتقل «جونبوس» فوراً إلى هناك ، وأعجبه الاسم ، فقال :
- قد يكون نديراً بالموت أو بديلاً عنه .

كانت في «مراعى الفردوس» عدة أسر مستعدة لاستضافة الوافدين ، وبعد أن استعلم «جونبوس» عن كلُّ منها ذهب للعيش في مزرعة الأرملة «كويكر» . كانت تحتاج إلى المال ، أما هو فقد استطاع أن يجد مكاناً منفصلاً للنوم . . وكان لهذه السيدة ولدان وخادم يقوم بأعمال المزرعة .

وكان من دواعي سروره تخلصه من وظيفته . . ترك «جونبوس» شعره دون تمشيط ، وازداد بصره قوة ، ولم يعد يرتدى عدساته إلا بحكم التعود .

وعلى الرغم من اجتيازه فترة النقاهة عام ١٩١٠ ، فإنه بقي مقيماً عند الأرملة «كويكر» عام ١٩١١ . وبدأت «مسز كويكر» تقلق بشأن بقائه وما يمكن أن يثيره وجود رجل أعزب في منزلها من أقاويل . . ولما تأكدت من تمام شفائه فاتحته في الأمر ، فتزوجها فوراً وهو سعيد بذلك ، لأنه أصبح بعد زواجه منها يمتلك منزلاً ومستقبلاً مشرقاً ، فمسز «موليتى» كانت تملك مائتى فدان عند سفوح التلال ، مملوءة بالعشب ، وخمسة فدادين مزروعة فاكهة وخضروات . . أحضر «جونبوس» كتبه ومقعده «الشيزلونج» ونسخة من كتاب «الكاردينال» لفيلا سكيكز . . وبدأ المستقبل أمامه مشرقاً سعيداً .

فجأة استغنت «مسز موليتى» عن العامل ، وحاولت دفع زوجها للقيام

بِمَهَامُهُ ، لكنها لم تجده مُهَيَّئًا لذلك ، فقد أصبح مُجِبًّا للكسل بعد تَعُودِهِ عليه في فترة النقاهاة . . لقد أحب الوادى والمزرعة ، ولكن كما هما دون إضافة ، فلم يكن يريد زرع جديد أو اقتلاع قديم ، ولما أعطته السيدة «موليتى» فأساً ودعته للعمل في مزرعة الخضراوات والفاكهة ، وجدته بعد ساعات يقرأ في كتاب «المخطوف» ، واضعاً قدميه في مياه الجدول ، وأبدى أسفه لأنه لم يَدْرِ بما فعل . . وكانت هذه هي الحقيقة .

لاحقته كثيراً بملاحظاتها حول كسله وإهماله لملايسه ، ولكنه أصبح قادراً على عدم الاستماع إليها أو الاهتمام بكلامها تماماً . . ولما طالت فترة توجيهه بدون فائدة بدأت هي أيضاً تهمل في شعرها .

في الفترة من ١٩١٠ إلى ١٩١٧ عانت عائلته - عائلة «موليتى» - من الفقر الشديد بسبب إهماله للمزرعة ، واضطرارها لبيع عدة أفدنة من المراعى لتوفير المال اللازم للحياة ، ومع ذلك لم تجد الأسرة ما يكفيها . وبدا الفقر على المزرعة ، وظهر جلياً على ملايسهم ، ومع ذلك ظل «جونبوس» مستغرقاً في مقالات «ديفيد جريسون» و«مغامرات في القناعة» ، يجلس بزي العمل تحت أشجار الجميز ليقراها لزوجته وولديها .

وفي بداية عام ١٩١٧ حملت «مسز موليتى» ، وفي آخر العام أصاب وباء الإنفلونزا الأسرة ، ربما بسبب قلة التغذية . . وأصيب الولدان في وقت واحد ، في حين كانت والدتها تلزم الفراش أيضاً ، وعلى الرغم مما حاوله الجيران من المساعدة فإن الحُمى اللعينة قد أصابتها وهي في المخاض ، وقتلتها قبل أن ترى وليدها .

وحكت الجارات اللاتي ساعدتها في الولادة أن «جونبوس» كان يقرأ الكتب ، في حين كانت زوجته وولداها يحتضرون . لكن هذه الحكاية لم

تكن حقيقية ، فلم يكن يعرف أن الطفلين مريضان . ولما عرف أخذ يتنقل بين الولدين المحتضرين ليحكى لهما قصصاً عن الماس ، وجمال الصليب المعقوف ، وتاريخه ورمزه . . وأسلم أحدهما الروح وهو يقرأ له بصوت عالٍ الفصلَ الثاني من كتاب « جزيرة الكنز » ، ولم ينتبه إلى وفاته إلا بعد نهاية الفصل . . كان مذهولاً في تلك الفترة ، ولم يكن يعرف ماذا يمكن أن يفعل لهما ، فقد قدّم لهما الأشياء الوحيدة التي يمتلكها ، ولكنها لم تفعل شيئاً أمام الموت .

وبعد إجراءات الدفن عاد « جونيوس » إلى الجدول وقرأ بضع صفحات من كتاب « رحلات همار » . عَنَّقَتْهُ إحدى الجارات وشمته بوقاحة ، فحاول الامتناع عن الاستماع إليها ، فأخذت تنظر إليه باحتقار . ثم أحضرت طفله ووضعت بين ذراعيه ، ولما استدارت كان لا يزال واقفاً والطفل بين ذراعيه يصرخ ، فلم يستطع أن يجد له مكاناً يضعه فيه ، وكان سكان الوادي أحياناً يكرهون « جونيوس » لكسله ، وأحياناً يشفقون عليه لرؤيته ، وكانوا يتبادلون الحكايات عن كسله ، لكنهم لم يتصوروا أن « جونيوس » كان سعيداً ، فقد حكوا أنه اشترى عَنَزاً لتغذية الطفل . تبعاً لنصيحة الطبيب . . ولم يسأل عن جنس العَنَزِ عند شرائها، ولم يوضح أنه يحتاجها من أجل اللبن . . ولما وصلت إليه نظر وسأل بجديّة :

- هل هذه عَنَزٌ طبيعية ؟

أجابه صاحبها :

- طبعاً .

- ولكن أليس من الضروري وجود كيس أو ما يشبه ذلك ؟ أعنى من أجل الحصول على اللبن ؟

انفجر سكان الوادى ضاحكين ، ولما تسلّم « جونيوس » عنزاً أخرى قَصَى يومين دون حَلْبِ نقطة لبن واحدة وأراد أن يعيدها هى الأخرى ، ولكن البائع عَلَّمَهُ كيف يجلبها . . وحكى البعض أنه وضع الطفل تحت العنز وتركه يرضع الحليب ، ولكن ذلك لم يكن صحيحاً . . وأعلن سكان الوادى عدم علمهم بكيفية قيامه بتربية الطفل .

ذهب « جونيوس » إلى « مونتيرى » واستأجر رجلاً مُسْتَأْجراً لمساعدته فى المزرعة ، ودفع له تحت الحساب خمسة دولارات ، ولم يدفع له شيئاً بعد ذلك قط ، وفى خلال أسبوعين كان الرجل قد تعلم منه الكسل حتى صار مثله تماماً .

وكانا يجلسان يتبادلان الحديث حول ألوان الزهور ، وهل فى الطبيعة علم رموز ؟ وأين تقع قارة أطلنطا ؟ وكيف كان هنود الأنكا يدفعون موتاهم ؟

أهمل « جونيوس » وخدامه المزرعة تماماً . . فكانا يزرعان البطاطا فى الربيع فى وقت متأخر عن موسم زرعها ، ودون أن يغطيها بالتراب لإبعاد الخنافس عنها . . وزرعا فاصوليا ، وذرة ، وبازلاء ، وراقبها مرة ثم أهملها ، فنمت الأعشاب حتى حجبت كل شىء عن الأنظار ، وأصبح أمراً عادياً أن يُشَاهَدَ « جونيوس » يسير محترقاً الأعشاب البرية ليخرج ومعه خيارة ذابلة ، وقد توقف عن ارتداء الأحذية ، لأنه يجب ملامسة التراب الدافىء بقدميه ، ولأنه لم يكن يملك حذاءً .

كان « جونيوس » يتبادل الحديث كثيراً مع خادمه « جاكوب شتوتز »
وقد قال له مرة :

- تصور . . عند وفاة الولدين تصورت أن ذلك قمة الأهوال ، ثم قلَّ
حجم الأهوال وتحولت إلى غَمٍّ ، ثم تضاءل الغمُّ ليصبح حُزناً ، وأعتقد
أننى لم أفهم زوجتى والولدين جيداً ، فالمعرفة أمر غريب . هناك عقول
بعيدة الإدراك ، وعقول أخرى محدودة الإدراك ، فأنا مثلاً أشعر « بالبارتينون »
أكثر من إحساسى بمنزلى . . هل رأيت يوماً يا « جاكوب » صورة لسور
«البارتينون» الذى أقيمت عليه تماثيل بديعة لعربات تجرها خيول متوثبة ؟

قال « جاكوب » :

- نعم . . إنه رائع !

أضاف « جونيوس » :

- هذه الخيول الجميلة المتوثبة المنطلقة إلى مرعى سهاوى . . وهؤلاء
الفتيان المتحمسون إلى مهرجان لا يدركه العقل خلف السور ، كيف
يمكن الإنسان أن يتصور شعور هذه الخيول عندما تكون سعيدة . .
لابد أن المثال قد تصور هذا الشعور ، وإلا لما كان قد نحتها بهذه الروعة

هكذا كان الوقت يمضى . . كان « جونيوس » يقطعه بالحديث فى أى
موضوع . . وغالباً ما شعر الرجلان بالجوع ، لأن الطعام لم يعد فى وقت
العشاء . اختار « جونيوس » لطفله اسم « روبرت لويس » ، ولكن
« جاكوب شتوتز » قال :

مقطع واحد كافٍ للاسم ، فروبرت اسم طويل . . يستحسن أن
نسميه « بوب » .

قال « جونيوس » :

- سأتساهل معك وسنسّميه « روبر » ، فهو أقصر من « روبرت » كان « جونيوس » يتساهل مع « جاكوب » ، فهو الذى يتولى المهمة الشاقة للتنظيف وإزالة العنكبوت ، وكان بين فترة وأخرى يتحمس وتصيبه حمى لتنظيف المنزل .

نشأ « روبر » فى جو جادّ . . فلم يتعامل معه والده كطفل ، لأنه لم يكن يعرف كيف يتعامل مع الصغر . . فإذا أبدى « روبر » ملاحظة استمع إليها الرجلان بكل اهتمام واحترام . . وكثيراً ما كان « روبر » يستمع إلى أحاديث الرجلين . . مدت شجرة جميز عملاقة فرعاً أفقياً فوق الجدول ، وكان الثلاثة يجلسون عليه . . يدلى الرجلان أقدامها فى الماء ، فى حين يحاول « روبر » بصعوبة تقلبدهما . . كانت ملامسة قدمه للماء علامة على نُموه بالقدر الكافى . . ولأن « جاكوب » وصل إلى الفترة التى نخلّى فيها عن الحذاء ، فلم يَرْتِدِ « روبر » حذاءً فى حياته .

ولأن المناقشة بين الرجلين كانت راقية وناضجة اللغة ، فلم يعرف « روبر » معنى الحديث الطفولى ، وكانوا يطلقون لأفكارهم العنان لتصبح الفكرة غير محدودة . على فرع الشجرة كان الثلاثة يجلسون وملابسهم بالية ، وشعرهم غير مشذب ، لا يقصونه إلاّ لحماية لعيونهم . . وكانت لحيّتا الرجلين طويلتين مُشعّتين ، وكانت الشجرة تتمايل مع الريح ، وتسقط منها أيضاً ورقة بنية اللون تشبه المنديل ، كان « روبر » فى الخامسة من عمره وقت ملاحظة سقوط الورقة فقال :

- أشجار الجميز طيبة .

أمسك « جاكوب » بالورقة وقال :

- إنها تنمو بالقرب من الماء ، فالأشياء الطيبة تقترب من الماء ،
والأشياء السيئة دائماً جافة .

وقال « جونيوس » :

- أشجار الجوز طيبة لأنها كبيرة الحجم . . الأشياء الشريرة صغيرة ،
ونادراً ما تجد شيئاً كبيراً سائماً أو غادراً ، ولهذا السبب يُعدُّ كِبَرُ الحجم رمزاً
« للخير » وصِغَرُ الحجم رمزاً للشرِّ عند البشر ، هل فهمت يا « روبر » .

وكان « روبر » يرد

- نعم . . فهمت ، مثل الفيلة .

- الفيلة تبدو شريرة ، ولكننا إذا تفكرنا فيها وجدناها طيبة لطيفة .

قاطعها « جاكوب » :

- وماذا عن الماء ؟ ما رأيك فيه ؟

أجاب « روبر » :

- لا أعرف شيئاً عن الماء .

فقال « جونيوس » :

- الماء هو أصل الحياة .

وعلى الرغم من ابتعاد سُكان « مراعى الفردوس » عن « جونيوس
موليتي » بعد وفاة زوجته وولديها ، وعلى الرغم من الروايات عن استغراقه
في القراءة حين كان الولدان يحتضران ، فإن مشكلته الجديدة أثارت

انتباههم . . فقد كان يعيش في فقر شديد ، في حين أن العلائق المجاورة في هذا الوادي الخصب كانت تجمع ثروات صغيرة ، وتشتري السيارات الفورد، وأجهزة الراديو ، وتوصل الكهرباء إلى منازلها ، وتذهب مرتين أسبوعياً إلى السينما في « مونتيري » و « ساليناس » . . وكان «جونبوس» يزداد تدهوراً ، ويتحول إلى بدائي يرتدى الملابس البالية .

ازداد حياته نفوراً منه ومن أرضه الخصبة التي امتلأت بالعشب البري ، والأشجار المثمرة المهملّة ، والأسوار المنهارة ، والمنزل القذر الذي امتلأ مدخله بالحفر ، ونوافذه بالقذارة . . فقد كانوا - رجالاً ونساءً - يكرهون كسله وتهاونه الشديد في حق نفسه ، وكانوا قد اهتموا بزيارته لفترة ، لعل نظافتهم تثنيه عن كسله ، ولكنه استقبلهم بلا حجل من فقره أو ملابسه البالية . . وتدرجياً نبذوا « جونبوس » وأبعده عن مجتمعهم ، وقررا عدم استقباله إذا زارهم . ولم يدرك « جونبوس » نفور جيرانه ، فظل مستغرقاً في السعادة في حياته اللاواقعية ، فقد كان يقنع بالجلوس في الشمس وإسقاط قدميه في مياه الجدول ، فإذا لم تكن لديه ثياب جميلة فهو على الأقل لا يذهب إلى مكان يتطلب تواجد فيه الثياب الجميلة .

وعلى الرغم من أن الناس لا تحب « جونبوس » فإنهم كانوا يشفقون على « روبر » وفضاعة تركه ينمو، وينشأ في هذه القذارة، ولكنهم لم يتدخلوا في خصوصيات « جونبوس » وقالت السيدة « باتكس » لفريق السيدات في قاعة استقبالها .

- سننظر حتى يبلغ الطفل سن المدرسة . . فلن نقدر أن نفعل له الآن أيّ شيء . . ولكن عندما يصل للسابعة سيصبح من حقنا التدخل .

هزت السيدة رأسها بأسف وقالت :

- لا يجب أن نغفل أنه ابن « مسز كويكر » وليس « جونيوس موليتي » فقط ، كان يجب أن نتدخل من فترة طويلة ، وسنشمل هذا الطفل عندما يلتحق بالمدرسة بالرعاية التي لم يتلها من قبل .

وبدا كأن الوادى فى انتظار التحاق « روبر » بالمدرسة ، وعندما حان الوقت ولم يذهب . . كتب « جون وايتسايد » أمين مجلس إدارة المدرسة إلى «جونيوس موليتي» بهذا الشأن . وتلقى «جونيوس» ، وقال لروبر :

- لقد غفلت عن ضرورة إلحاقك بالمدرسة .

قال روبر :

- لا أريد أن أذهب .

- أعرف ذلك . . وأنا أيضًا لا أريدك أن تذهب ، ولكن هناك قوانين وعقوبات إذا لم ننفذها ، ويجب أن نضع فى اعتبارنا هذه العقوبات . إن أبناء « قرطاجة » كانوا يُعاقبون على سوء الحظ . . فالقائد الذى ينجس المعركة لسوء حظه كان يعاقب بالإعدام .

واستغرقوا فى مناقشات أنستهم الرسالة ، فأرسل « جون وايتسايد » رسالة أخرى شديدة اللهجة .

قال « جونيوس » عندما تسلمها :

- يجب أن تذهب يا « روبر » . . سيعلمونك أشياء كثيرة مفيدة .

- ولماذا لا تعلمنى أنت ؟

- لا أستطيع ذلك . . لقد نسيت الأشياء التى يُعلمونها .

وهكذا وصل « روبر » إلى المدرسة . . كان يرتدى بنطلوناً ممزقاً عند الركبتين وقميصاً أزرق دون « ياقة » ، وكان شعره طويلاً يتدلى فوق عينيه الرماديتين مثل الحصان .

التف الأطفال حوله في فناء المدرسة وراحوا يحملقون فيه . . كانوا جميعاً يعلمون بفقر أسرة « موليتي » وكسل « جونيوس » وكانوا ينتظرو مجيء « روبر » للسخرية منه ، ولكنهم التزموا الصمت فلم ينطق واحد بعبارة مثل : « من أين لك هذه الملابس ؟ » . أو : « انظروا إلى شعره ! » . . كما كانوا ينوون .

أمّا « روبر » فقد أخذ ينظر إلى دائرة الأطفال من حوله بجديّة ، ولم يشعر بأى خوف ، وسألهم :

- ألا تلعبون ؟ لقد أخبرني أبي أنكم تلعبون .

انفرط عقد الدائرة وقالوا : « إنه لا يعرف أى لعبة . . لنعلمه لعبة « بيوي » . . لا . . لعبة « الطفل الزنجي » .

وبدأ التفكير على وجه « روبر » ، وأخيراً قرر :

- سنجرب لعبة « بيوي » أولاً .

كان « روبر » غيرَ ماهرٍ في تعلُّم اللعبات الجديدة ، ولكنَّ مُدْرِسيه صبروا عليه ، ولم ييأسوا منه ، بل تنافسوا ليعلموه لعبة العصا . . وكانت هناك أساليب مختلفة لتعلُّم هذه اللعبة . . وقف « روبر » يستمع ثم اختار مدرّبه - فرضت شخصية « روبر » نفسها على المدرسة فوراً . . فقد تركه الأولاد الأكبر سنّاً وشأنه ، في حين بدأ الصغار في تقليده في كل شيء ، حتى بنطلونه الممزق ، وكانوا يجلسون معه تحت الشمس وقت الغداء

ويسندون ظهورهم إلى الحائط . كان « روبر » يحكى لهم عن شجرة الجميز، فكانوا يستمعون إليه باهتمام ويتمنون لو كان آباؤهم مثل أبيه .

تسلل عدد من الأطفال إلى مزرعة « موليتي » على الرغم من إرادة أهلهم، وكان « جونيوس » جالساً على فرع شجرة الجميز . . فأخذ يقرأ عليهم قصة « جزيرة الكنز » وجلسوا هم بجانبه .

وفي فترة قصيرة أصبح « روبر » - بمساعدة أبيه - ملكاً في فناء المدرسة كان الحكيم في كل الخُصومات ، ولم يحاول أحدٌ قط الاختلاف معه .

شعر « روبر » تدريجياً أنه زعيم الأطفال في المدرسة ، كما شعر زملاؤه بنضجه ، ولم تمض فترة طويلة حتى أصبح هو الذي يختار اللعبة التي سيلعبونها . . وكان الحكيم الأكبر في لعبة « البيسبول » . . فلم يكن هناك طفل يستطيع التحكيم إلا ويثير معركة ، أمّا هو فعلى الرغم من عدم إجادته للعبة فإن قضايا النظام كانت تُحال إليه دائماً .

ولفت « روبر » نظر « مس مورجان » ، فقد كان مدهشاً في قاعة الفصل ، وكان رائعاً في فناء المدرسة ، وكان يمكنه القراءة بصورة ممتازة ، كما كان يستخدم أسلوباً لا يستخدمه إلا الكبار، وعلى الرغم من هذا فقد تعلم الكتابة بصعوبة بالغة ، وكتب بيده حروفاً مشوهة .

حاولت « مس مورجان » مساعدته فقالت :

- اختَرُ عبارة واكتبها مرات كثيرة حتى تتعلم كتابتها ، واهتمّ بكل حرف .

اختار « روبر » عبارة « ليس هناك أفضح مما نتصوره في أنفسنا » . وكتب العبارة عدة مرات . . ولما جاءت « مس مورجان » سألته :

- روبر . . أين سمعت هذه العبارة ؟
- إنها عبارة لستيفنسون . . والذى يعرفها جيداً .
كانت « مس مورجان » قد سمعت طبعاً عن « جونيوس » ولكنها الآن
تَوَدُّ لو قابلته .
شكا « روبر » لجونيوس أنهم قد شعروا بالملل من اللعبات المعروفة في
فناء المدرسة . . استغرق « جونيوس » في التفكير وقال لروبر :
- لعبة التجسس جذابة . . أذكر أنا كنا نحبها .
- وعلى مَنْ نتجسس ؟
- لافرق ، يمكنكم التجسس على مَنْ تريدون .
وذهب « روبر » إلى المدرسة متحمساً . . وبعد ظهر هذا اليوم كان قد
شكل « م . م . ص . أ . ت . ع . ي . » وهى الحروف الأولى لمكتب المخبرات
الصبيان الاحتياطى للتجسس على اليابانيين .
كان اسم هذه المنظمة وحده كفيلاً بأن يجعلها تبدو كقوة لها وزنها .
أخذ « روبر » الأطفال واحداً بعد الآخر إلى ظل شجرة في فناء المدرسة
ليُقسِّموا على الكتمان ، وكأنهم يُنشئُونَ حزباً حقيقياً .
اجتمع « روبر » مع الأولاد وأخذ يشرح لهم أن « أمريكا » ستحارب
اليابانيين بالتأكيد ، وعلينا الاستعداد بالمعلومات التى يمكننا بها مساعدة
بلادنا إذا قامت الحرب .
اجتذبت الجميع هذه العبارات الخطرة ، وهذا المنطق الجاد ، وأصبح
التجسس موضع اهتمام المدرسة بأسرها . . وقد سبب هذا المتاعب

لتاكاش كاتو الطالب الياباني في الصف الثالث ، فقد خضع لمراقبة دقيقة ، فلم يقض لحظة واحدة على انفراد ، وحتى بعد عودته لمنزله كان خمسة أولاد على الأقل يتسللون خلفه ، غير أن « مستر كاتو » أطلق النار في الهواء عندما لاحظ وجهًا يتطلع من نافذة بيته ذات ليلة . . واضطر « روبر » لدعوة أفراد المنظمة وأمرهم بالتوقف عن التجسس ليلاً . .

ولم يُعان « تاكاش كاتو » لمدة طويلة من المراقبة التي يتعرض لها ، فقد اضطروا ألا يتركوه ، بل صاحبهم في كل رحلة ، ودُعي إلى كل مكان يذهبون إليه .

كانت ضربة قاضية عندما قدم « تاكاش » طلباً للانضمام للمنظمة التي يعلم بوجودها .

وشرح له « روبي » :

لا يمكن أن تضم إلينا . . فنحن عمل ضد اليابانيين .

كاد « تاكاش » يبكي :

- لقد ولدتُ مثلكم هنا ، وأنا « أمريكي » مثلكم تماماً ، أليس كذلك ؟

وفكر « روبر » . . لم يكن يريد أن يقسو على « تاكاش » . . ثم ابتسم قائلاً :

- هل تتكلم اليابانية ؟

- طبعاً وأجيدها تماماً .

- تستطيع أن تعمل معنا مترجماً ، وأن تقوم بترجمة الرسائل السرية .

وبدت السعادة على وجه « تاكاش » وقال :

- من المؤكد يمكننى القيام بذلك . . ويمكن أيضاً أن نتجسس على والدى ، ولكن المنظمة انهارت . . فلم يكن هناك من تتجسس عليه غير « مسز كاتو » أما « مستر كاتو » فكان عصبياً جداً ، يستخدم بندقيته كثيراً .
مر عيد « هالروين » وعيد الشكر . . وظهر تأثير « روبر » على الأولاد بازدياد ما يعرفونه من مفردات لغوية كثيرة ، وكرههم لارتداء الثياب الجميلة والأحذية . . وأرسى « روبر » - دون أن يقصد - فكراً جديداً يعتبر أن الملابس الجميلة ليست من صفات الرجولة .

وبعد ظهر يوم جمعة كتب « روبر » أربع عشرة مذكرة ووزعها سراً في فناء المدرسة ، وقد جاء في هذه المذكرات المتشابهة : « يخطط كثير من الهنود لإحراق رئيس الولايات المتحدة في العاشرة غداً في منزلى . . تسللوا إلى هناك وأغوروا مثل الثعالب في حقننا ، سوف ألحق بكم وأقودكم لإنقاذ المسكين » .

أثارت أخبار وقصص « جونيوس » اهتمام « مس مورجان » ، فقررت أن تقوم بزيارة لهذه الأسرة ، خاصة بعد معرفتها بابنه وتأثيره على الأولاد ، إلى درجة أن ولدًا مشهورًا بالغباء حكى لها أن « هنجست » و « هورسا » قاما بغزو إنجلترا . . ولما تعجبت من إلمامه بهذه الملغومات أخبرها أن « جونيوس موليتى » أخبره بها . وأضحكتها كثيراً قصة العنز التي اشتراها لتغذية طفله ، لدرجة أنها كتبتها وأرسلتها إلى إحدى المجلات . . وأجلت « مس مورجان » لعدة مرات زيارتها لمزرعة « موليتى » . . وذات صباح من شهر ديسمبر على الرغم من سطوع الشمس فإن الهواء كان شديد البرودة ، وبعد تناولها الإفطار ارتدت ملابسها وغادرت المنزل .

تقع «موليتى» على بعد ميلين . . كان الجو بارداً ولم تكن الشمس قد ارتفعت فوق الجبل بعد . . عرفت «مس مورجان» مزرعة «موليتى» من حواجزها المنحنية من وطأة النباتات الطفيلية والأغصان العارية لأشجار الفاكهة . قفزت السناجب والأرانب تحت قدميها . وطاررت حمامات رقيقة الصوت ورفرفت بأجنحتها . . كان الهدوء يجيم على المكان ، فبدا وكأنه مهجور من مائة عام . . قالت فى نفسها : « كم هو جميل ومهما هذا المكان » .

كان لون المبانى قد استحال رمادياً بفعل الزمن والجو . . دخلت «مس مورجان» إلى فناء المنزل من بوابة متهدمة ، وجدت فى مكانها وقد انفرجت شفتاها من الدهول ، فقد رأت عجوزاً مهلهل الملابس مربوطاً فى عمود فى وسط الفناء وأمامه رجل أصغر سنّاً فى ملابس أكثر تمزقاً يقوم بتكديس العشب عند قدمى أسير . ارتجفت «مس مورجان» وتراجعت إلى الوراء ، وراحت تردد فى نفسها :

« لا يمكن أن يحدث ذلك . . أنت تحلمين . . لا يمكن أن يحدث ذلك » واستمعت إلى حوار بين الرجلين :

قال الجلاد :

- الساعة تقترب من العاشرة .

أجاب الأسير :

- نعم . . انتبه وانظر كيف تشعل النار فى العشب ، وتأكد من أنهم قادمون قبل أن تشعله .

كادت «مس مورجان» أن تصرخ ، وتقدمت ببطء إليها ، فالتفت

إليها الرجل الطليق ورآها ، فظهرت عليه الدهشة ، ولكنه تمالك نفسه بسرعة وانحنى لها . . كانت انحناءة ساحرة ، وساحرة أن تصدر من مثل هذا الرجل الملتحي ذى الملابس المهلهلة .

قالت « مس مورجان » :

- أنا مُدرّسة المدرسة ، خرجت للنزهة فرأيت هذا المنزل ، وتصورت للوهلة الأولى أن الإعداد للحرق حقيقى .

ابتسم « جونيوس » وقال :

- ولكنها حقيقية فعلاً . . لقد تصورت أنك النجدة التى ستأتى فى العاشرة .

وسمع فجأة عواء الثعالب تحت المنزل بين شجر الصفصاف ، فقال «جونيوس » :

- أسف يا « مس مورجان » هذه هى النجدة . . أنا « جونيوس موليتى » ، أما هذا الرجل فهو فى الأحوال العادية « جاكوب شتوتز » . . أما هذا فهو رئيس الولايات المتحدة الذى يحرقه الهنود . . وقد فكرت فى أن أجعله الجنرال الإسكتلندى « غوينفير » ولكنه يصلح كرئيس أفضل .

قال « الرئيس » المقيّد إلى مكان الحريف :

- اللعنة على هذا الجنون !

ضحكت « مس مورجان » وقالت :

- هل أستطيع مراقبة النجدة يا مستر « موليتى » ؟

- أنا لست مستر « موليتى » . . أنا الآن ثلاثمائة هندى .

عاد عواء الثعالب يتردد ، وقال الثلاثائة هندی للمدرسة :

- اذهبي إلى السلم ، فلن يعتقدوا أنك هندية وسيقتلونك هنا .

أشعل « جونيوس » عود ثقاب وأشعل الأعشاب ، وارتفع اللهب بين أشجار الصفصاف . . وانطلق الأولاد وهم مسلحون بأسلحة تشبه أسلحة الفرنسيين عندما اقتحموا سجن الباستيل . . وما كاد اللهب يرتفع نحو الرئيس حتى أخذ المنقذون يحلون الحبال ويطفئون النار بسرعة ، ووقف « جاكوب » حُرًّا سعيدًا . . لم يكن الاحتفال الذي أعقَبَ ذلك أقل من عملية الإنقاذ جمالاً . . فأخذ الرئيس يتنقل بين الأولاد وهم يؤدون التحية ، ويُعلق على صدر كل منهم قطعة رصاص محفور عليها كلمة « بطل » . . وانتهت اللعبة .

وأعلن « روبر » :

- السبت القادم سنقوم بشنق الأشرار المذنبين مرتكبي هذه المؤامرة الدنيئة . هتف الأولاد :

- لنشنتقهم الآن

- لا . . هناك أمور كثيرة يجب تجهيزها . . يجب إعداد المشنقة .

كان هذا اليوم من أجمل أيام « مس مورجان » ، وعلى الرغم من أن موقعها كان مُميَّزًا فوق فرع شجرة الجميز فقد أصبحت علاقة الأولاد بها أقوى من مجرد كونها مُدرسة .

قال « روبر »

- أليس لطيفًا لو خلعتِ حذاءك ؟ تأكدت « مس مورجان » من ذلك عندما خلعت حذاءها ، وأدلت بقدميها في الماء .

في الغروب حكى « جونيوس » للأولاد عن أكلى اللحوم البشرية ،
وحكاية صنغ المكرونة ، واكتشاف النحاس وأخيراً عاد الأولاد إلى منازلهم ،
وسمحت لهم « مس مورجان » أن يسبقها ، فقد كانت تريد أن تفكر في هذا
الرجل الغريب بهدوء .

ترقبت المدرّسة وتلاميذها باهتمام بالغ يوم زيارة مجلس إدارة المدرسة .
كان هذا اليوم يوماً تسوده الرسميات والاضطراب . . كان شرح الدروس
يتم بقلق ، والخطأ في الهجاء يُعامَل على أنه جريمة عظمى .

كان ذلك اليوم من الأيام الصعبة للتلاميذ والمدرّسة . . بعد ظهر يوم
الخامس عشر من ديسمبر جاء أعضاء مجلس الإدارة لزيارة مدرسة « مراعى
الفردوس » . اضطفوا وقد بدا الجمود على ملامحهم كأنهم مشيعو جنازة .
دخلوا المدرسة بعد الغداء مباشرة وفي مقدمتهم « جون وايتسايد » العجوز
الذى تعرض لا نقادٍ من أهل الوادى ، نظراً لتساهله في عملية التعليم .
وجاء بعده في الصف « بات همبرت » - الذى انتخب بناءً على إرادته . . فقد
كان رجلاً وحيداً يسعى لأى فرصة تقربه من الناس . . كان يرتدى ملابس
غامقة وعادية كما لبس التمثال البرونزى للنكولن في واشنطن ، وجاء بعدهما
« ت . ب آلن » الذى كان من حقه الاشتراك كعضو في مجلس الإدارة ، لأنه
التاجر الوحيد في الوادى ، وتلاههم « ريموند بانكس » المرخ الضخم ، ذو
اليدين والوجه الأحمر ، أمّا آخر من دخل فكان مضطرباً بعض الشيء وهو
يتبع الأعضاء الآخرين إلى مقاعدهم في صدر القاعة .

جلس أعضاء مجلس الإدارة في تعالٍ ، في حين جلست زوجاتهم في
أواخر القاعة وراء الأولاد الذين شعروا بالحصار والطريق المسدودة للهرب ،

ولما التفتوا إلى الورا كانت السيدات يتسمن لهم . . ورأوا لفة ورق على ركبتي « مسز مونرو » .

بدأ الدرس ، فرحبت « مس مورجان » وهي تبتسم بارتباك بمجلس إدارة المدرسة وقالت :

- أعتقد أيها السادة أنكم مهتمون بمشاهدة كل شيء على طبيعته في المدرسة ، لذلك سيبدو كل شيء عادياً .

شعرت بالأسف ، فلم تشاهد في حياتها أولاداً على هذا القدر من الغباء . . توالت الأخطاء الشنيعة المخيفة في الهجاء والحساب والقراءة ، والتي كانت تشبه هذيان مجنون . . وعلى الرغم من تملك أعضاء مجلس الإدارة لوقارهم فإنهم لم يتمكنوا من منع أنفسهم من الابتسام ، وابتسمت السيدات في الخلف بعصبية ، وتصورت « مس مورجان » أن مجلس الإدارة سيقوم بالاستغناء عنها .

وقام « جون وايتسايد » وقال :

- شكراً « مس مورجان » . . أستأذنك في بعض الكلمات للأولاد ، ثم يمكن السماح لهم بالانصراف بعد أن تحملونا هذا الوقت . . وتنفست المدرسة الصعداء وقالت :

- أنا سعيدة لأنكم قدرتم أن الأولاد لم يكونوا على مايرام ، وفي غير حالتهم الطبيعية .

ابتسم « جون وايتسايد » ، فكثيراً ما شاهد هذا الاضطراب ، ثم تحدث خمس دقائق إلى الأولاد ونصحهم بالاستذكار كثيراً ، والشعور بالحب تجاه

مدرستهم . . وكانت هذه نص الكلمات التقليدية التي يرددها منذ سنوات، وتكرر سماعها لدى التلاميذ الكبار ، وسُمح للتلاميذ بالانصراف، فخرجوا في هدوء ، وما إن أصبحوا في الهواء الطلق حتى عبروا عن ارتياحهم بالصياح والاستغراق في اللعب في معارك وهمية بسكاكين وسيوف خيالية .

صافح « جون وايتسايد » « مس مورجان » وحيها برقة قائلاً :

- لم نر مدرّسة حافظت على نظام المدرسة أكثر منك . . وأعتقد أنكِ لاتعلمين مدى حب الأولاد لكِ .

أجابت :

- إنهم أولاد طيبون .

سأل « جون وايتسايد » :

- وما أحوال « موليتي » الصغير ؟

- مجتهد وعلى درجة عالية من الذكاء .

- لقد تشاورنا بخصوصه في مجلس الإدارة ، وقد أبدينا اهتمامنا به في زيارتنا بشكل خاص تعرفين طبعاً أن حياته في المنزل ليست على مايرام .

أحست « مس مورجان » أنها تريد الدفاع عن « موليتي » فقالت :

- يسكن منزلاً غريباً ، لكنه ليس سيئاً .

- لا تُسيئي فهمي يا « مس مورجان » . . إنها أردنا منحه بعض الأشياء .

تعرفين أنه فقير جداً ، ولقد اشترت له « مسز مونرو » بعض الملابس ، فهل

تناديه حتى تعطيهها له ؟

ردت قائلة :

- أفضل ألا تفعلوا ذلك ، فهو ولد ذو كبرياء .

- لم لا . . . اشترينا له بضعة قمصان وبنطلونات وبعض الأحذية ، فالطقس بارد ومن غير اللائق أن يظل حافيًا في هذا الوقت من العام ، فالجليد يغطي الأرض كل صباح ، ومن غير المعقول أن يخرجه امتلاكه لثياب مناسبة .

قالت المعلمة بيأس : أفضل ألا يحدث ذلك .

- أعتقد يا « مس مورجان » أنك تبالغين ، أرجوك استدعيه فوراً .

جاء « روبر » . . . كان شعره يتدللى على وجهه ، وعيناه تلمعان من تأثير اللعب في فناء المدرسة . . . نظر إليه الجميع في رقة وهم يحاولون تلافي النظر إلى ملابسه الممزقة ، في حين أخذ هو يحملق فيهم بارتباك .

قالت « مس مورجان » :

- « مسز مونرو » ستعطيك أشياء لك يا « روبر » .

تقدمت « مسز مونرو » وأعطته اللفة التي معها ، فوضع « روبر » اللفة على الأرض بعناية ، ووضع يديه خلف ظهره .

قال « ت . ب . ألن » :

- افتحها يا « روبر » . . . هل يروق لك هذا الذوق ؟

نظر إليه « روبر » بنفور ، وحل عقدة الخيط فانفردت القمصان والبنطلونات أمامه . . . ونظر إليهم دون أن يفهم ، وفجأة أحمرَّ وجهه بشدة

وكأنه فهم كل شيء ، ثم جرى نحو الباب تاركاً كومة الملابس على الأرض ،
واختفى . وسألت « مسز مونرو » المدرسة :

- ماذا به ؟

قالت « مس مورجان » :

- شَعَرَ بالخرج .

- لماذا ؟ لقد تعاملنا معه بلطف بالغ .

حاولت المدرسة أن تفسر لهم ما حدث وهي حائقة عليهم

- كان يعرف أنه فقير .

قال « جون وايتسايد » :

- آسف يا آنستي . . أنا السبب .

'وسأل « بيرت مونرو » :

ماذا يمكننا أن نفعل من أجله ؟

قالت « مسز مونرو » لزوجها :

« بيرت » ، من الأفضل أن تذهب وتحدث مع « مستر موليتي » في
الأمر ، على أن يكون ذلك بلطف . . انصحته بأنه لا يجب سير الأطفال حُفَاءً
على الجليد ، فقد تفيد هذه النصيحة وتجعله يقنع ابنه بقبول الملابس ،
مارأيك يا « مستر وايتسايد » ؟

- عليكم أن تقرروا جميعاً ذلك وتسجلوا اعتراضى على القيام بهذه المهمة ،
فقد تسببنا في إحراجه بما فيه الكفاية .

أصرت « مسز مونرو » :

- أعتقد أن صحته أهم من مشاعره .

بدأت المدرسة إجازة عيد الميلاد من ٢٠ ديسمبر ، وقررت « مس مورجان » تفضية إجازتها في « لوس أنجلوس » وبينما كانت تقف لا تنتظار سيارة تحملها إلى « ساليناس » لمحت رجلاً وصبيًا يرتديان ملابس رخيصة جديدة ويقفان على طريق « مراعى الفردوس » بجانبها . . وعندما اقتربا منها تعرفت عليهما ، كانا « جونيوس » وابنه « روبر » الذى بدا حزينا تعيساً . . فقالت :

- « روبر » . . إلى أين ؟ ماذا بك ؟

قال الرجل :

- إلى « سان فرانسيسكو » يا « مس مورجان » .

كان « جونيوس » دون اللحية ، وبدا كما لو كان كبيراً فى السن ، حتى عينيه بدّا عليهما الذبول والعجز .

كان « جونيوس » فاتح اللون ، لأن لحيته قد منعت عنه حرارة الشمس ، وكانت الحيرة مرتسمة على وجهه . فسألته :

- هل تسافران لتمضية العيد ؟ أنا أحب محلات المدينة فى أثناء عيد الميلاد . . ولا أمل مشاهدة واجهات المحلات فى العيد .

أجاب « جونيوس » ببطء :

- لا أعتقد أننا سنقيم هناك - باستمرار . . فأنا مُحاسِب . . أو بالدقة كنت مُحاسِباً منذ عشرين عاماً . . وسأسعى لإيجاد عمل .

كان الألم واضحاً على كلماته ،

فسألته : - ولماذا تترك هنا ؟

أجاب جونيوس :

- لم أكن اعتقد أنني أسىء هنا إلى الصغير ، ولم يخطر على بالي ذلك قط . . كان عليّ أن أدرك أنه يجب ألاّ ينشأ في هذا الفقر . . هل تفهمين ذلك ؟ لم أكن أعرف ما يقوله الناس عنا .

- لماذا لا تبقى في المزرعة ؟ إنها أرض خصبة .

- لكنني لا أفهم شيئاً في الزراعة . . سيحاول « جاكوب » العمل في المزرعة . . ولكنه كسول . . وبعد فترة سأبيع المزرعة لأوفرلوير بعض ما حُرِّمَ منه .

حزنت « مس مورجان » وأوشكت على البكاء ، وقالت له :

- هل يؤثر فيه رأى الحمقى ؟

- طبعاً لا . . ولكن لا يجوز تربية الولد هكذا ، أليس كذلك ؟

ظهرت السيارة على الطريق واقتربت منهم ، فأشار « جونيوس » إلى « روبر » وقال :

لم يكن يريد المجيء . . أمسكنا به أنا و « جاكوب » ليلة أمس بعدما هرب منا واختبأ في التلال . إنه لا يعرف كم ستكون الحياة جميلة في « سان فرانسيسكو » .

توقفت العربة ، وصعد « جونيوس » و « روبر » إلى المقعد الخلفي . .

وأوشكت « مس مورجان » أن تجلس بجوارهما ، ولكنها قررت فجأة
الجلوس بجانب السائق ، وقالت لنفسها :
« لا بد أنهما يفضلان الانفراد »



لم يترك « نورمو لوبيز » عند وفاته لا بنتيه الصغيرتين إلا أربعين فداناً على سفح الجبل من الأرض الصخرية التي لا تنبت إلا الأشواك ، وكانت الفتاتان تسكنان بيتاً صغيراً من الألواح الخشبية ، و يتبع البيت بئر وحظيرة، وقد فشلت مجهودات الفتاتين في زراعة بستان صغير كجزء من هذه الأرض ، غير أنها استطاعتا زراعة قليل من الخضراوات والبقول لا يكفى لتمامهما . . كانتا بدينتين مرحتين ، وذات يوم سألت « روزا » أختها « ماريا » :

- ألسنا أمهر صُنَّاع الفطائر في هذا الوادى ؟

فأجابت « ماريا » بتأثر :

- ورثنا هذه المهارة من أمتنا رحمها الله .

قالت « روزا » :

- إذاً فهناك حل . . سنقوم بطهى ثلاثة أنواع من الفطائر ونبيعها إلى سكان « مراعى الفردوس » .

قالت « ماريا » وهى تشكك فى إمكانية ذلك :

- هل تظنين أنهم سيقبلون على فطائرنا ؟

فردت :

- اسمعى يا « ماريا » .. لا يرقى مستوى الأماكن التى تباع الفطائر فى « مونتيرى » إلى مستوى جودة فطائرنا .. ومع ذلك فعلا مآت الثروة والغنى بادية عليهم وعلى ملابسهم الجديدة .. لا يمكن أن نقارن فطائرهم بفطائرنا .. فذكرى أمانا دائما فى بالى .

دمعت عينا « ماريا » لما أعتمل بداخلها من مشاعر ، وقالت بحماس :

- لا يمكن مقارنة ما يصنعه هؤلاء الباعة بما نصنعه نحن .. فليس فى الدنيا كلها مثل الفطائر التى كانت تصنعها أمانا بيدها الطاهرة .

فقالآ « روزا » :

- بما أنها جيدة فسيقبل الناس عليها .

بعد أسبوع واحد من هذا الحوار استغرقت الفتاتان فى الاستعداد للتنظيف والديكورات ، ولما أتمتا عملهما ، كان بيتها الصغير قد ارتدى رداءً أبيض من الخارج والداخل ، ووزعت الورود عند مدخل البيت ، وتم جمع النباتات الذابلة ، وما تراكم من أتربة على مر السنين وأحرقآ ، وجهزت الغرفة الأمامية للمنزل كمطعم به مائدتان عليها مفرشان من المشمع الأصفر اللون ، وعلقت لوحة خشبية كُتب عليها :

« عندنا ثلاثة أنواع من أشهى الفطائر ، وبعض الطعام على الطريقة

الإسبانية »

كان الإقبال قليلاً جداً فى بادىء الأمر .. وكانت الأختان تجلسان فى انتظار الزبائن ، وما إن يدخل أحدهم حتى تقف الفتاتان كالطفلتين

المرحتين لا استقباله بابتسامة وسرور ، وكانتا تشمران أكمامهما حتى يظهر بياض بشرتهما الرائق دلالة على عدم انتمائهما للهنود . ولكن قلة الزبائن سببت المتاعب الكبيرة للأختين ، فلم تتمكننا من إعداد كمية كبيرة من الفطائر حتى لا تفسد إذا بقيت مدة طويلة . . ولاعتياد الفطائر على اللحم الطازج ، كانتا تصطادان الطيور والأرانب داخل الأقفاص لحين الحاجة إليها .

طلبت « روزا » من أختها « ماريا » ذات صباح أن تجهز الجواد لتشتري قليلاً من الذرة من « مونتيري » ، على أمل أن تتحسن الأحوال ، فتشتري الكثير .

وقالت وهي تُعطي أختها قطعة نقود فضية :

- إذا تبقى معك شيء فأحضري لنا قطعة حلوى كبيرة .

ذهبت « ماريا » وعندما عادت في المساء وجدت أختها هادئة بصورة غريبة ، فلم تصح وتلح في الاستماع إلى تفاصيل الرحلة ، بل ظلت جالسة تفكر بعمق . . اقتربت منها « ماريا » وقالت :

- اشتريتُ الذرة بثمان رخيص جداً . . وهذه هي الحلوى التي طلبتها من النوع الكبير ، بأربعة سنتات فقط .

مدت « روزا » يدها إلى الحلوى وأخذت تأكلها وهي شاردة ، وجلست « ماريا » بالقرب منها تبستم لها في رقة ، ولكن « روزا » جلست جامدة كالصخر وهي تأكل الحلوى ، وفجأة نظرت إلى « ماريا » وقالت بتجهم :

- منحثُ نفسي اليوم لأحد الزبائن .

أخذت « ماريّا » تبكى من شدة الحزن ، فى حين أكملت « روزا »
حديثها :

- أنتِ مخطئة إذا تصورتِ أنى حصلت على ثمن ذلك .. ولكن الرجال
تأكل ثلاث فطائر .. ثلاث دفعة واحدة .

فانفجرت « ماريّا » تبكى وتولول كالأطفال . فهزتها « روزا » قائلة :
- كُفّى عن البكاء والعيول .. ماذا كان يمكننى أن أفعل .. علينا
اجتذاب الزبائن ، إذا أردنا النجاح .

استجمعت « ماريّا » شجاعتهأ وقالت لأختها :
- أظن أن أمنّا سترتاح ، إذا طلبتِ المغفرة من أمنّا العذراء والقديسة
« روزا » .. لتهدأ روحك .

فأبتسمت « روزا » ابتسامة عريضة وعانقت أختها :
- فعلتُ ذلك فعلاً .. فلم يكذب ينصرف حتى ركعت أطلب الغفران .
جرت « ماريّا » إلى غرفة نومها وركعت تحت صورة السيدة العذراء المعلقة
على جدار الحائط ثم قامت وأرتمت فى حضن أختها وهى تصيح بسرور :
- « روزا » ، سأقوم باجتذاب الزبائن أيضاً .

كان هذا اليوم بداية تحول فى حياة الفتاتين ، برغم أن العمل لم يزدهر
كثيراً ، ولكنه كان يكفى لتغطية متطلباتهما من مآكل ملبس .. ولقد
التزمت الفتاتان بالتدين والورع .. فعند كل خطيئة كانت كل منهما تصلى
طلباً للغفران عند تمثال العذراء .. كانت كل منهما تعترف بكل خطيئة أولاً
بأول وبسرعة .. وكانت الأرض تلمع تحت تمثال العذراء من كثرة ركوع
الفتاتين .

سارت حياة الأختين مرحلة سعيدة . . فلم يكن هناك أى احتمال للمنافسة بينهما . . كانتا على شبه كبير . . « ماريا أكثر سمنة من « روزا » بعض الشيء و « روزا » أطول من « ماريا » بعض الشيء . امتلأ البيت بالضحك والسرور وصوت غناء الفتاتين وهما تعدان الفطائر بأيديهما الممتلئة القوية . . وكانتا تستغرقان فى الضحك المثير عندما ينطق أحد الزبائن بأى نكتة - وخاصة « توم بريان » - فقد كان فى رأيها رجلاً غنياً لطيفاً جذاباً .

كانت الفتاتان لا تحصلان إلا على ثمن أطباق الطعام ، ولا يصح تصور أنهما كانتا تسرفان فى تشجيع الزبائن ، ولكن قلبيهما الرقيقين كانا يفيضان امتناناً للزبون الذى يأكل ثلاثة أطباق فأكثر من طعامهما ، فهو فى هذه الحالة يستحق التشجيع . . عرض رجل من الرواد نقوداً على « روزا » لمقابل ما منحته فى ليلة مشئومة ، فقد كانت معدته تعجز عن التهام ثلاثة أطباق . . وصلت إلى سمع بعض الزبائن كلمات هذا العرض المالى ، فتوقف الكلام ، وساد المكان سكون مخيف . . خبأت « ماريا » وجهها بيديها ، وأصفر وجه « روزا » من الغضب والانفعال ، واحمرّت عيناها شرراً ، وخبطت بيديها الممتلئتين القويتين على ركبتيها ، ولكنها ضببطت مشاعرها وتحكمت فيها وقالت :

- هذا العرض يعتبر إهانة لى . . فنحن تقريباً أحفاد الجنرال « فاليجو » فهو شديد القرابة لنا ، وعروقنا تسرى فيها دماء نقية . ما الذى كان يمكن أن يصنعه الجنرال « فاليجو » إذا علم بهذه الإهانة ؟ كأنك تقول لنا «لسنا إلا امرأتين شائنتين » كان لابد سيقبض على سيفه ليغسل هذه الإهانة بالدم .

أخذ الرجل يتمتم :

- لم أقصد ذلك يا « روزا » . . أقسم أنني لم أقصد أى إهانة ، فهدأت ثورتها وأشارت بإحدى يديها إلى الباب وهى تقول بهدوء وجمود :

- انصرف . . فعلى الرغم من أنني لا أظن أنك قصدت الإهانة ، فإنها قد حدثت بالفعل .

وبمجرد انصرافه صاحت :

- والآن من يريد الطبق الخاص على الطريقة الإسبانية ؟ طعام لا نظير له فى العالم .

اعتادت الشقيقتان على أن تكونا سعيدتين . . وكانت « ماريا » الرقيقة الحلوة تزرع الزهور حول البيت والسور . . ومن « ساليناس » اشترت كل من الأختين قبة مصنوعة من الشرائط القرنفلية والزرقاء أشبه بعش العصافير المقلوب ، وكانتا تسيران بها فى منتهى السعادة . . نظرت كل منهما إلى الأخرى وقد جال بخاطرها أن هذه الفترة من أسعد فترات عمرهما .

تمنيتا لهذه السعادة الدوام ، وقدمت « ماريا » لتمثال العذراء آنية كبيرة مملوءة بالزهور . وفى الواقع لم يكن هناك ما يدعو لهذه المسحة من التشاؤم .

اشترت « ماريا » فونوغرافاً ومجموعة أسطوانات للتانجو والفالس ، كانتا تصنعان الفطائر على أنغامه .

وبدأت الهمسات حول سلوك الشقيقتين تتردد فى وادى « مراعى

الفردوس « بين النساء اللاتي يتعاملن مع الأختين بفتور ، وما من أحد يعرف كيف نما إلى علمهن أخبار الفتاتين ، فليس من المعقول أن يكون أزواجهن قد حكوا لهن ، ولكن النساء دائماً تعرف كل شيء .

وفي صباح يوم سبت أحضرت « ماريا » سرج الحصان القديم المرتق ووضعته على ظهر حصانها « ليندو » الهزيل ، وعندما أكملت ربط السرج واللجام نظرت إليه بحزن ، فقد بلغ الحصان الكبر ، وقالت له مشفقة :
- سنسير على مهل . . لا تخف يا « ليندو » ، فالمسافة ليست بعيدة .

لم يكن « ليندو » يخاف الرحلة إلى مونتيري فقط ، بل كان يكرهها وينفر منها أيضاً . ارتقت « ماريا » العربة التي مالت بصورة مخيفة وصاحت في الحصان وهي تضرب ظهره :

- هيا يا « ليندو » . . سنذهب إلى « مونتيري » لشراء بعض المستلزمات .

انفض الحصان وأدار رأسه نحوها ولم يتحرك ، فقالت له غاضبة :
- قلت يجب أن تسير . . أنا غاضبة منك .

وأخذت تشد اللجام وتضرب ظهره بعنف .

خفض « ليندو » رأسه إلى الأرض كما تفعل الكلاب وهي تفتنى الأثر ، خرج ببطء . . كان عليه أن يسير تسعة أميال ذهاباً ومثلها في العودة ، ولأن « ليندو » كان يعرف ذلك فقد كان ساخطاً . . أما « ماريا » فقد راحت تغنى بعض أنغم التانجو بعد أن زال غضبها وتبخر حزمها .

كانت التلال تتلألأ بما عليها من الندى ، وكانت رثنا « ماريا » تمتلئان هواءً نقياً منعشاً ، فانتعش صوتها ، وعلا صوتها بالغناء .

وأطلت « ماريا » فإذا برجل يسير في الطريق على البعد ، وقبل أن تصل إليه بعربتها ، عرفت مشيته المتناقلة أنه « آلن وينكر » أقبح رجال الوادى وأشدهم خجلاً .

كان « آلن وينكر » يشبه القروذ في مشيته وهيئته ، حتى أن الصبية إذا أراد أحدهم إهانة صاحبة أشار إلى « آلن » وهو يقول : هذا أخوك . أما « آل » فقد حاول بإطلاق لحيته إخفاء جهه ، ولكن الشعر الخشن الأشعث نما في غير المطلوب ، فزاد من قُبْح هيئته .

وقد قبلت زوجته الزواج منه لأنها بلغت سبعاً وثلاثين عاماً . ولأن للغيرة ضرورة كبيرة في حياتها ومشاعرها فقد أخذت تؤلف القصص عنه وتحكى لجيران عن جُرْأته مع النساء ، ومغامراته وآثامه الغامضة ، من كثرة ترديد هذه القصص الوهمية صدقتها في حين سخر الجيران منها ، إذ لا يوجد في « مراعى الفردوس » من لا يعلم مدى خجل هذا الرجل القبيح .

تعثر الحصان بجانب « وينكر » ، فشدت « ماريا » اللجام . كان « ليندو » جواداً ، قوياً ، جامحاً .

صاحت ماريا :

- قف يا « ليندو » .

كان أقل شد للجام كفيلاً بتوقف الحصان طلباً للراحة من السير . أَلقت « ماريا » التحية على « آلن » بلطف :

- صباح الخير .

فابتعد « آلن » خجلاً على جانب الطريق وهو يتكلف النظر إلى سفح
الجبَل ، أجاب باقتضاب :

- صباح الخير

قالت « ماريا » : أنا ذاهبة إلى « مونتيري » هل تود الركوب ؟

أخذ « آلن » ينظر للغيوم وقال :

- لست ذاهباً إلا إلى الموقف العمومي للسيارات .

- مسافة قصيرة . . من الأفضل أن تكون راكباً .

- حاول الرجل اتخاذ قرار ، ثم ارتقى العربة وجلس إلى جوار « ماريا »

التي أفسحت له مكاناً . . وأمرت الحصان بالسير ، فطأ برأسه وسار
على مهل .

سارت العربة وخيم الصمت ، فبادرت « ماريا » إلى الحديث قائلة :

- أذهب في رحلة ؟

نظر « آلن » إلى سنديانة كبيرة ولم يجب ، فقالت « ماريا » :

- لم أركب القطار في حياتي ، ولكن « روزا » أختي ركبتة مرة إلى « سان

فرانسيسكو » ذهاباً وإياباً . . وقد سمعت عددًا من الأغنياء يمتدحون
السياحة والسفر .

- أنا أيضاً لم أسافر إلا إلى ساليانس .

- سافرت إليها كثيراً ، فأنا و « روزا » لنا فيها أفضل الأصدقاء ، هي

بلدة أمنا ، وكان أبي يذهب إليها لبيع الأخشاب والحطب .

اجتهد « آلن » للتغلب على اضطرابه وقال :

- لم أتمكن من استعمال « الفورد » القديمة ، وإلا كنت سافرت بها .
فقالت « ماريا » :

- هل تمتلك سيارة فورد ؟
- ليست إلا « فورد » قديمة .

- قررنا أنا وأختي امتلاك سيارة فورد ، وعندئذ يمكننا السفر إلى أماكن كثيرة . يقولون إن السفر مُمتع .
في هذه اللحظة ظهرت سيارة فورد تتجه إليهما من أعلى التل ، وكأن المصادفة تؤكد الحديث عن السفر .

كانت السيارة الفورد يستقلها « بيرت مونرو » وزوجته . . تجاوزتهما السيارة . . ولكن « بيرت مونرو » ظل ينظر إلى « آلن » و « ماريا » وصاح ضاحكاً لزوجته :

- هل شاهدتني زئرا النساء مع « ماريا لوبيز » ؟
ابتسمت زوجته ، فقال « بيرت » :

- ستكون دعاية طريفة أن نخبر « مسز وينكر » أننا رأينا زوجها هارباً مع « ماريا لوبيز » .
- لا تفعل ذلك يا « بيرت » .
- لكنها ستكون دعاية غاية في الطرافة .

أثناء ذلك كانت « ماريا » مازالت تقود العربة ، وقالت لضيفها المنزوي :

- لماذا لا تأتي إلينا لتناول الفطائر . . فطائرننا لا مثيل لها ، علمتنا صنعها أمنا التي بلغت شهرتها في صنع الفطائر إلى « سان جوان » وأبعد منها ، وعرف الجميع أنه ليس هناك من يصنع الفطائر في مهارتها ، فالفن في صناعة الفطائر هو رقتها . . وأنا ذاهبة إلى « مونتيبرى » لشراء الدقيق الذي يُباع هناك بسعر رخيص .

خاص « آلن » في مقعده يتمنى سرعة الوصول إلى موقف السيارات .

شارفت الشمس على الغروب عندما عادت « ماريا » إلى البيت من « مونتيبرى » . . كانت « ماريا » تضحك في سرها متوقعة ثورة أختها ، عندما تعرف أنها اشترت أربع قطع من الحلوى بدلاً من اثنتين . . بل وزادت في الإسراف واشترت لروزا رباطين للجورب من الحرير مزينين بوردتين حمراوين في كل جانب . . وتصورت الرباط في ساقى أختها . وصلت « ماريا » إلى المنزل وحلت « ليندو » من العربة ، فوجدت البيت غارقاً في السكون ، ولم تكن هناك عربات تدل على وجود زبائن ، فأطلقت الحصان ، وحملت قطع الحلوى ورباط الجورب وسارت إلى المنزل ، فوجدت روزا جالسة في صمت وملامح وجهها تعبر عن الحزن والألم ، كانت عيناها شاخصتين ووجهها متجهماً ولم تلتفت إلى « ماريا » .

قالت « ماريا » : لقد عدت يا « روزا » ؟

أدارت « روزا » وجهها ببطء وقالت :

- نعم .

- هل أنت مريضة يا « روزا »

أجابت أختها :

- كلا :

- لك معى هدية يا « روزا » .

نظرت « روزا » إلى رباط الساق ، ولكنّ دمعين انهمرتا من عينها .

- ماذا بك ؟ هل أنت مريضة ؟ يجب أن تخبرينى هل جاء أحد ؟

فأجابت « روزا » :

- نعم جاء الشريف مدير البوليس .

قالت « ماريا » :

- الآن اقتربنا من الغنى والثروة .. كم فطيرة أكلها ؟

عانقت « روزا » أختها وقالت :

- ياأختى المسكينة ، لا يمكننا من الآن بيع الفطائر وسنعود مرة أخرى

للحرمان من الثياب الجديدة ..

لقد جاء الشريف ، ولكنه لا ليأكل من فطائرنا ، ليقول : « هناك

شكوى ضدكما إنكما تديران بيتًا للدعارة » .. وعندما صرخت : هذا

كذب وإهانة لأمننا وللجنرال « فاليجو » قال : « وصلتني شكوى بهذا فإمّا

أن تغلقا بيتكما ، وإما سأضطر للقبض عليكم بتهمة إدارة بيت

للدعارة» .. فعدت للصراخ هذا كذب حين قال : « لا أستطيع عمل

شئ فأنا فى خدمة الجمهور الذى أرسل الشكوى» .

وقعت الصدمة على « ماريا » التى ما إن أدركت فداحة المصيبة حتى

انفجرت فى الكاء .

- كُفِّي عن البكاء يا « ماريا » . . لقد فكرتُ كثيراً . . وأعتقد أنكِ تعلمين أنا سنجوع لو لم نبع الفطائر . لقد اتخذت قرارى النهائي بالسفر إلى « سان فرانسيسكو » للعمل كامرأة ساقطة .

أطرقت « روزا » برأسها . . وتوقفت « ماريا » عن البكاء قالت برعب :
- من أجل النقود ؟

- نعم من أجل النقود . . والمال وأتمنى أن تغفر أُمى خطيئتي .

فتركتها « ماريا » وجرت إلى تمثال العذراء ، وهى تصيح :

- لقد قدمْتُ لكِ الشموع وكنت أضعُ الزهورَ أمامك كل يوم ، فما هو ذنبنا حتى تسمحي بما حدث ؟

وركعت على ركبتيها تصلى ، ورسمت على وجهها علامة الصليب ، وكررت السلام على « مريم » خمسين مرة .

وقامت وقد ارتسم على وجهها العزم والتصميم .

دخلت « ماريا » الحجرة وقالت لروزا بصوت عال :

- « روزا » أنا أختك ، وأنا مثلك تماماً . . سأرافقك إلى « سان فرانسيسكو » لأحترف نفس المهنة .

وراحت الأختان فى عناق طويل مصحوب بالبكاء والتهنئات .



8

ظلت « مولى مورجان » فى انتظار سيارة نقل الركاب الكبيرة لمدة ثلاثة أرباع ساعة بعد وصولها بالقطار إلى محطة « سالىناس » فى طريقها إلى حقول الفردوس . . ولم يكن بالسيارة إلا السائق و « مولى » التى سألت :

- إنها زيارتى الأولى لحقول الفردوس ، فهل تبعد كثيرًا عن الطريق العام ؟

أجاب السائق :

- نعم ، حوالى ثلاثة أميال .

- وهل يمكننى العثور على سيارة تنقلنى إلى الوادى ؟

- لا ، فلا بد أن يكون أحد بانتظارك .

- وكيف يصل الناس إلى هناك ؟

مرت عجالات السيارة فوق جسد أرنب برىّ ، وبدا السائق خائفًا ، وقال معتذرًا :

- لا أدهسها إلاّ عندما تكون ميتة . إننى أحاول تفاديها دائماً وهى تنبهر بأضواء السيارة .

- ولكن .. ماهى الوسيلة التى تمكننى من الوصول إلى « مراعى الفردوس » ؟

- لا أدرى .. ولكن يمكنك أن تسيرى إلى الوادى كما يفعل معظم الناس الذين لا ينتظروهم أحد .

سارت « موللى مورجان » متجهة الوجه بعد نزولها من السيارة عند بداية الطريق الجانبى القدر متجهة نحو الممر عبر التلال .. وقفت بجانبها سيارة نفل فورد قديمة وسألها سائقها :

- هل أنت ذاهبة إلى الوادى؟

- نعم .. نعم .

- إذاً .. اركبى ، ولا تخافى ، فأنا « بات همبرت » صاحب مزرعة فى الوادى . تفحصت « موللى » الرجل المتجهم وهى تقول :

- أنا المدرسة الجديدة ، هل تعرف عنوان « مستر وايتسايد » ؟

- طبعاً .. فى طريقنا .. إنه أمين سر مجلس الإدارة .. وأنا أيضاً من أعضاء مجلس الإدارة ، وكنا نسأل ، على أى حال وسنجده . واحمرّ وجهه وارتبك حين تحدث عن جوانب تمس شخصية « موللى » ، وبَرَّر ذلك بقوله :

- طبعاً .. أقصد كيف ستكون شخصيتك .. فالمدرسة السابقة قد أتعبتنا كثيراً .. كانت مدرسة جيدة ولكنها دائماً مريضة وعصبية جداً .. وأخيراً اضطرت إلى تركنا .

أمسكت « موللى » قفازها وهى تقول :

- في رسالتكم قلتُم إنه علىّ الاتصال بالسيد « وايتسايد » ، ألا تجد أى محاذير في التعامل معه ؟ أقصد : أى نوع من الناس هو ؟

- ستفتقن معه بسهولة . . فهو رجل طيب . . وُلد في البيت الذى يعيش فيه الآن . . وتخرج في الجامعة . . إنه رجل طيب ، وهو أمين سر مجلس الإدارة منذ أكثر من عشرين عاماً .

أنزلها أمام منزل مستر « جون وايتسايد » الكبير . شعرت بالرهبة ، وقالت لنفسها :

- ليس هناك ما يخيف .

كانت في التاسعة عشرة من عمرها ، وكانت هذه المقابلة التى سيتوقف عليها أول وظيفة نقطية حاسمة في حياتها .

سارت غير مطمئنة في ممر ضيق طويل مملوء بأحواض الزهور المعتنى بها بشدة ، وكأن زارعها قد أمرَ البذور بالبناء والتكاثر . . وكان كل شىء بحساب وعناية ويد ماهرة تقود نمو الأزهار .

عندما وصلت « مولى مورجان » إلى منتصف الممر ، رأت البيت الكبير ونوافذه والشيش الخشبي الأصفر شبه المغلق لحماية الداخل من شمس الظهيرة ، وكانت شرفة المنزل الواسعة كأنها تود معانقة الزائر مرحبة . . على الرغم من درجات السلم الواسعة والباب الكبير فقد كانت شديدة الخجل وهى تضغط على الجرس .

فتحت الباب امرأة بدينة وابتسمت للزائرة قائلة :

- أرجو ألا تكونى بائعة متجولة . . ففى هذه الحالة أشتري مالا أريد شراءه وأندم بعد ذلك .

- ضحكت « مولى » على ما قالته « مسز وايتسايد » وانشرحت
وقاليت :

- لا ، أنا المدرّسة الجديدة ، وعلى موعد لمقابلة « مستر وايتسايد » . .
هل يمكننى مقابلته ؟

- إنه مازال يتناول طعامه ، هل تناولتِ طعام الغداء ؟
- آه . . طبعاً . . أقصد لا .

ضحكت « مسز وايتسايد » وصارت معها إلى حجرة طعام واسعة بها
مائدة مربعة تناثرت عليها أطباق زجاجية . . فقالت لها :

- يبدو أن « جون » قد انتهى من الطعام وترك الغرفة . . اجلسى وسأتى
لكِ بالطعام حالاً .

- شكراً . . سأتحديث إلى « مستر وايتسايد » وأنصرف .

- اجلسى . . فأنت بحاجة للطعام ثم مقابلة « جون » .

- هل هو شديد الخزم مع المدرّسات الجديديات ؟

- إن ذلك يتوقف عليهن . . فإذا كنّ لم يتناولن طعام الغداء فهو
كالدب يصرخ فيهن ، أمّا إذا كن قد انتهين من الطعام توّاً فهو قاس
فقط .

ضحكت « مولى » وقالت :

- عندك أولاد . . طبعاً ربّيتِ عددًا كبيرًا من الأولاد ، ولا شك أنكِ
تحيينهم .

قالت « مسز وايتسايد » :

- الواقع أن طفلاً واحداً قد ربّاني ، بل شَيَّبَ شعر جفوني ، وكان عبثاً أكبر من تحمُّله ، وهو الآن يربي البقر . . ولا أعتقد أنني نجحت في تربيته .

ولما انتهت « موللي » من الطعام فتحت السيدة « وايتسايد » باباً جانبياً ونادت :

- هناك من يريد مقابلتك يا « جون » .

وأشارت إلى « موللي » لدخول غرفة تشبه المكتبات . . بها رفوف مملوءة بالمجلدات السميكة المذهبة الجوانب ، ولكنها كانت كغرفة المعيشة أيضاً، على جوانبها أصص غريبة الشكل ، وقد علّق غليون قديم على مسمار ، وتناثرت مقاعد جلدية مريجة في أرجائها كلها من النوع الهزاز ، وأخيراً كان هناك مكتب قديم جلس « جون وايتسايد » خلفه ، وعندما رفع عينيه إليها رأت « موللي » أن له أزقّ عينين شهدتها في حياتها ، وله أيضاً أنصع شيب .

قالت بلهجة رسمية : أنا « موللي مورجان » .

- آه . . نعم يا « مس مورجان » ، كنتُ بانتظارك . . تفضلي بالجلوس .

جلست « موللي » على أحد الكراسي الهزازة المريجة فأصدر صوتاً رقيقاً فقالت :

- أحب هذه الكراسي . كنا نملك عدداً منها وأنا طفلة .

واستطردت قائلة :

- جئت من أجل الوظيفة كما جاء بالرسالة .

- حسناً يا « مس مورجان » . . أعطني بعض المعلومات عن شخصيتك وماضيك . أمّا طلبى فهو أن تبذلى جهدك لتحقيق أثر طيب . هزت « موللى » رأسها وحاولت أن تستعيد ذاكرتها ، فتذكرت بيتها . . كان متداعياً قديماً يحتاج إلى طلاء ، وخصوصاً الشرفة الخلفية الواسعة ، وأحواض الغسيل المستديرة . . وشقيقتها « جو » و « توم » على أعلى شجرة صفصاف يلعبان ويصرخان : « أنا نسر » أو « ببغاء » أو « دجاجة » . . ويُفتح باب المطبخ . . فتظهر أمها بشعرها المنكوش وعينيها الحمراوين دائماً ، ويدها تؤلمانها ، وكذلك معصماها .

وتصرخ الأم فى « توم » و « جو » : « ستعرضان للأذى فوق الشجرة ، هيا انزلا »

وتنخفض الأصوات أعلى الشجرة إلى درجة الهمس ، أما « موللى » فكانت جالسة فوق التراب تمسك بيدها عصاً طويلة بخرقة بالية وتحاول تخيلها سيدة طويلة بملابس أنيقة . وتصيح فيها أمها : « هيا يا موللى » ساعدينى . . فأنا متعبة اليوم » . وتغرس « موللى » العصا فى التراب ثم تدخل البيت فى استسلام . كانت أمها تجلس على أحد كراسى المطبخ . وكانت « موللى » طفلة غير سعيدة ، تشعر أن أمها على وشك البكاء ، وعليها فى هذه الحالة أن تمر بيدها على شعرها المنكوش ، كانت هى وشقيقتها يحبون أمهم التى تفعل من أجلهم كُلاً ما تستطيع .

عادت « موللى » إلى عالم الواقع وقالت للسيد « وايتسايد » :

- كنا فقراء . . بل فقراء بحق . . وكان شقيقاى أكبر منى سنّاً . . كان

والدى بائعاً متجولاً . . . وكان على والدتي أيضاً أن تعمل ، وقد شقيت كثيراً من أجلنا .

وعادت تسرح من جديد في عالم الذكريات .

مرة كل ستة أشهر تقريباً يقع حادث عظيم بعودة الأب إلى المنزل ، فكانت الأم تتسلل بهدوء إلى غرفة النوم وقد رتبت شعرها بقدر المستطاع ، وبرقت عينها ، بدت عليها السعادة ، بل كادت تبدو جميلة ، وتهمس : أهدهؤوا يا أولاد ، فوالدكم هنا . . . ويخرج الأولاد من البيت إلى الحديقة ، وينتقل الخبر سريعاً إلى الجيران . . . وتمتلئ الحديقة بالأولاد هامسين :

- هل حقاً عاد والدكم إلى البيت ؟ أين كان غائباً هذه المدة ؟

وعند الظهيرة تكون الحديقة قد امتلأت بالأطفال في جماعات صغيرة ملتزمة بالهدوء ، وحوالي الظهر يفتح باب المطبخ بقوة حتى يضرب بحائط الشرفة ويطل والدهم صارخاً :

- مرحباً . . . مرحباً يا أولاد .

وترتمى « مولى » وشقيقها عليه يحتضنون ركبتيه في حين يرفع الأب كلاً منهم بدوره ويرميه في الهواء ليعود فيلتقطه كما لو كان قطعة صغيرة . . . وكانت والدتهم تلف حولهم قائلة :

- يا أولاد . . . انتبهوا إلى ملابس أبيكم .

ويرفع أولاد الجيران أيديهم بسعادة بالغة . . . فقد كان هذا المشهد أجمل من أى عطلة . ويصرخ الوالد :

- انتظروا لتروا ما اشتريت لكم . . . وبعد قليل من الهدوء يحمل الأب

حقيقته إلى الشرفة ويفتحها ، وتكون الحقيبة مملوءة بهدايا لم يرَ أحد مثلها من لعب ميكانيكية ، وحيوانات معدنية تزحف على الأرض ، وزنوج خشبية ترقص ، لوحات زجاجية بديعة ، وكان لكل شخص هدية أو أكثر . . وكانت عودة الأب تمثل جميع المناسبات والأعياد في يوم واحد .

وكان « جورج مورجان » - والد « مولي » - يجلس أحياناً على السلم الشرفة ويتجمع حوله الأطفال مستمعين إلى مغامراته ورحلاته ، فيحكى عن رحلة إلى المكسيك ، وأخرى إلى « هونولولو » ويحكى عما رآه ، فقد رأى البركان ، وركب الأمواج إلى الشاطئ على لوح خشبي عائم . . ويحكى عن أسماء مدن كثيرة وأشخاص كثيرين غريبى الأطوار ، وعن مغامرات ومئات من الأحداث الغريبة ، ولم يكن يستطيع أن يحكى لهم كل ذلك مرة واحدة . . فكانوا يستمعون إليه يوماً بعد المدرسة ليسمعوا المزيد والمزيد عن مغامراته حول العالم .

وعادت « مس مورجان » إلى الواقع ، وأكملت حديثها لجون وايتسايد .

- أما بالنسبة لحياتنا العائلية فلم أخطأ بوجود أبى معنا ، لأن رحلاته نادراً ما كانت تسمح بوجوده بيننا .

هز « جون وايتسايد » رأسه ، في حين دَمَعَت عينا « مس مورجان » . . وعادت « مولي » للماضى :

- وذات مرة أحضر أبى معه كلباً صغيراً وضعه في صندوق ، فسأله « توم » :

- أى نوع من الكلاب هذا ؟

كان والدهم يبدو شاباً، وكأنه يصغر والدتهم بعشرين عاماً . ضحك
عالياً وقال : « اشتريته بدولار ونصف . . وهناك أنواع كثيرة تُباع بهذا
الثمن ، وكما يدخل أحدكم إلى محل حلوى ويشترى ما يريد . هكذا
فعلت ، دخلت المحل وقلت : « أعطني بدولار ونصف سحلباً مخلوطاً »
ياشتريته وهو لموللي ، وعليها أن تختار له اسماً .

فقال « موللي » : سأسميه « جورج » .

وانحنى والدها بطريقة غريبة وقال : « أشكرك يا « موللي » ، ومع ذلك
شعر الجميع أنه لم يكن يسخر منها » .

استيقظت « موللي » مبكراً وصحبت معها « جورج » إلى الحديقة
ليتعرف عليها ، وفتحت خجلاً كانت قد أخفت فيه درهين وزرّاً عسكرياً
مذهباً ، ورفعت الكلب ليضع يديه الأماميتين على سور الحديقة الخلفي
ليرى الشارع والمدرسة . . وتسلفت شجرة صفصاف حاملة « جورج »
تحت إبطها . . وخرج « توم » من البيت وتلكأ تحت الشجرة صارخاً :

- احذري أن يقع منك .

وفعلاً وقع الكلب الصغير من بين يديها وارتطم بالأرض الصلبة ،
والتوت إحدى ساقيه بشدة ، فأخذ يصرخ صرخات عالية مفرعة ، فنزلت
« موللي » مذهلة من فوق الشجرة ، وكان « توم » منحنيّاً عليه ، وقد اصفرَّ
وجهه ، في حين كان الكلب يعوى ويصرخ .

بكى « توم » وقال : لا يمكن أن نتركه هكذا .

وأحضر من بين كومة الحطب بلطة ، وكان الدهول مسيطراً على
« موللي » ، وأغمض « توم » عينيه وهوى بالبلطة ، فتوقف الصراخ فجأة !

رمى « توم » البلطة وقفز من سور الحديقة الخلفى وأخذ يجرى كأنَّ أحدًا يطارده ، وفى هذه اللحظة أطل والدها مع « جو » من الباب الخلفى . . .
تذكرت « مولى » كم كان وجه والدها شاحباً عندما نظر إلى الكلب .
وحكت لوالدها أن الكلب وقع منها من فوق الشجرة ، وضربه « توم »
وهرب . كان صوتها حزيناً ، فحضنها والدها وقال :

- مسكين « توم » . . لا تذكرى ما حدث أمامه مرة أخرى يا « مولى »
ولا تُذكرِيه بما حدث ، ثم ألقى بكيس فارغ فوق الكلب الصغير . يجب
أن نقيم له جنازة . . لقد حضرت جنازة فى الصين ، كان يُلقون بالأوراق
الملونة ، ويفرقون الخنازير المشوية قرب القبر .
ورفعت « مولى » نظرها إلى « وايتسايد » وعادت إلى الواقع مرة أخرى ،
وقالت :

- عندما كنت فى الثانية عشرة توفى والدى إثرَ حادث جرى له .
كانت هذه الزيارات تستغرق أسبوعين فى العادة ، وكان « جورج
مورجان » يخرج إلى المدينة فى المساء ولا يعود إلا فى ساعة متأخرة . . وكانت
والدتهم تجعلهم ينامون مبكرًا ، غير أنهم كانوا يسمعون صوتهم عند عودته يتعثر
بالأثاث ، وكانوا يسمعون صوته من خلال الحائط ، وكانت المرات
الوحيدة التى يبدو فيها صوته حزيناً . . وكان الأولاد يعلمون أنه فى
الصباح سيكون قد فارقهم ومعه قلوبهم .
كان والدهم فى نظرهم كالفارس النبيل الشجاع ، اجتمعت فيه جميع
المزايا ، وكان الأولاد يقولون :

- عندما تكبر سنذهب معه ونرى كل شىء .

وكانت والدتهم تعود إلى تدميرها ، ويعود الاحمرار إلى عينيها بعد رحيله ،
ومرة ذهب والدهم ولم يعد بعدها . . ظلوا لمدة عامين في انتظاره ، ثم
أخبرتهم أنهم أنه لابد قد مات . وارتجف الأولاد للفكرة ولم يصدقوها ، فمن
غير الممكن أن يموت إنسان مثل والدهم ، فلا بد أنه في مغامرة من مغامراته
حول العالم ، لابد أن سبباً قوياً يمنعه من العودة إليهم ، وبمجرد زوال
السبب سيعود إليهم ومعه الهدايا وأجمل الحكايات والمغامرات . . ولكن
والدتهم أكدت أن لابد قد وقع له حادث ومات .

وأخذت تقرأ إعلانات تُبين كيف يمكن أن تكسب المال وهي في بيتها .
وصنع الأولاد أزراراً ورقية حاولوا بيعها على استحياء ، وكادت الأسرة تموت
جوعاً .

ولما كان من الصعب احتمال هذه الظروف الشاقة فقد هرب الولدان
والتحقا بالبحرية . . وبدأت « مولي » تراهما في مرات نادرة ، كما كانت
ترى والدتها وقد تغيرت كثيراً . . زالت الرقة وحلت محلها الخشونة ،
وشعرت أنها قد أصبحت غريبة عنها .

واصلت « مولي » حديثها مع « جون وإيتسايد » :

- أكملت الدراسة الثانوية والتحققت بدار المعلميات في « سان جوزيه » ،
وعملتُ بيت « مسز ألان موريت » لأحصل على مصاريف معيشتي
ومدرستي ، وقبل الانتهاء من دراستي الثانوية ماتت والدتي . . فأنا يتيمة
كما ترى .

فهمس « جون » برقة : آسف جداً .

واحمرت وجنتا « مولي » وقالت : لم أقصد استعطفك يا مستر

وايتسايد « ، فأنت تود معرفة كل شيء ، كما أن كل إنسان لابد أن يصبح
يتيماً .

وافقها « وايتسايد » قائلاً : أجل ، وأظن أنى أنا أيضاً يتيم .
ومرة أخرى عادت للماضى بذاكرتها . .

لقد عمَلتُ في بيت « موريت » مقابل الأكل والمأوى . . وكانت تؤدى
كل أعمال الخدمة دون أجر ، وفي الصيف كانت تعمل في أحد المحال لتوفر
ثمن ملابسها ، كانت « مسز موريت » تدرب الفتيات على الخدمة وتقول :
يمكننى أن أعد فتاة جاهلة تماماً للعمل فتصبح بعد ستة أشهر ماهرة ،
يمكنها الحصول على مرتب شهري قدره خمسون دولاراً ، فجميع السيدات
يتعاطفن مع الفتيات اللاتي عمِلنَ عندي . هذه أول تلميذة دربتها ،
ولكنها تقرأ كثيراً ، وعلى الخادمة أن تنام في الساعة العاشرة ، وإلا فلن
يمكنها أداء مهامها في الصباح كما يجب .

وكانت « مسز موريت » دائمة الانتقاد والتذمر ، وكانت تقول لها :

- اسمعى يا « موللى » . . لا أريد أن أحدثك عن أخطائك ، ولكن إذا لم
تجففى الفضيات جيداً فستصدأ . . أو : « يجب أن تضعى سُكين الزبدة
هكذا ، ثم ضَعِى الأكواب هنا » . وبعد أن تنتهى « موللى » من غسل
الأطباق في المساء تجلس فوق فراشها . . وتبدأ في الاستذكار ، وعندما
تطفئ النور وتستلقى على فراشها . . كانت تفكر في أبيها . . وكانت
تتخيله عائداً مرتدياً بدلة جميلة مقلمة ، وقبعة عالية ، وبيده باقة زهور
حمراء قائلاً لها :

- لم أتمكن من العودة قبل ذلك يا « موللى » . . هيا ارتدى معطفك

بسرعة لنذهب ونشترى لك ثوب السهرة المعروض في فاترينة محلات «براشيا» . . أسرعى ، كَدَيْ تذكرتان لقطار «نيويورك» الليلة .

كانت تعلم أن والدها قد مات . . كلاً لا تستطيع أن تقتنع بذلك ، لا بد أنه في مكانٍ ما من العالم ، يعيش حياة جميلة ، وسيعود إليها يوماً ما . . حدثت «موللى» صديقة لها في المدرسة وقالت لها :

- لا أستطيع أن أصدق أو أكذب هذا الخبر . . فلا أستطيع تصور أنه قد مات . وعند وفاة أمها لم تشعر إلا بقليل من الحزن . .

عادت «موللى» تستكمل حديثها مع «وايتسايد» :

- أعتقد أن ذلك كل شيء عنى ، وقد حصلت على شهادتى وأرسلونى إليكم .

فقال : « هذه أسهل مقابلة أجريتها مع أحد » .

- هل تظن أننى جديرة بالوظيفة ؟

نظر الرجل نظرة سريعة إلى غليونه المعلق وقال : نعم ، ستحصلين على الوظيفة ، بل لقد حصلت عليها فعلاً ، لكن يا «مس مورجان» أين ستقيمين ؟ يجب أن تعثرى على مكان للإقامة .

وقبل أن تفكر «موللى» أجابت :

- أود أن أعيش هنا . واندھش «وايتسايد» وهو يقول :

- ولكننا لا نستضيف أحداً أبداً .

- آسفة . . لكننى أحببتُ هذا المكان .

ونادى «جون» : «ويلاً» . . «ويلاً» .

ولما جاءت زوجته قال :

- هذه الشابة تود الإقامة معنا ، وهي المدرّسة الجديدة .

قالت : « لا أعتقد أن ذلك ممكناً ، فلم يحدث أن استضيفنا نزلاء من قبل ، وهي أجمل من أن ندعها قريبة من « بيل » الأحمق ، سيصبح الأمر صعباً للغاية » والتفتت إلى «موللى» قائلة :

- يمكنك الصعود إلى الغرفة الثالثة من الدور العلوى ، ولكن الشمس لا تدخلها كثيراً .

تغيرت حياة « مولى مورجان » فقد أصبحت « ملكة » من اليوم الأول ، فتفهمها لنفسية التلاميذ وفهمهم لها جعلهم يحبونها بشدة ، وبمرور الوقت أدركت أنها أصبحت شخصية مهمة ، فإذا تجادَلَ رجلان في المتجر حول أى موضوع في التاريخ أو الأدب أو الحساب أنها الجدل بقولها : « سنسأل المدرسة » ، فإذا لم تكن تعرف الإجابة فسندجدها بكل تأكيد .

وكانت « مولى » تشعر لذلك بفخر شديد . . وكانت تساعد في ترتيب الزينة ، وإحضار المرطبات في الحفلات . . وكانت تقول :

- سنضع أغصان الصنوبر في كل مكان ، فرائحتها الجميلة تستكمل جو الحفلات . كان المفروض فيها أن تعرف كل شىء ، وتساعد في كل شىء ، وكانت تحب ذلك .

وفي بيت « آل وايتسايد » كانت تعمل بجد في المطبخ . وفي الليل كانت تكتب الرسائل لصديقاتها القليلات في دار المعلمات ، وكانت رسائلها مملوءة بالفرح وبأخبار الجيران الصغيرة . . كان عليها حضور جميع الحفلات لمركزها الاجتماعى . وكانت صباح السبت تقوم بنزهات حول

التلال لتحضر نبات النرجس وشتلات الزهور وتزرعها حول المنزل . أما «بيل» فقد ألقى نظرة واحدة على «مولي» وعاد للعناية بالبقرات التي يربيهها ، واحتاج إلى وقت طويل ليتشجع وتكلم معها . . كان شاباً بسيطاً ، ضخم الحجم ، ينقصه اتزان والده . مرح والدته . . وتدرجياً بدأ في الاهتمام بموللي ومتابعتها .

وذات مساء جلس «بيل» و«مولي» في الشرفة فوق المقاعد الوثيرة ، وفي هذا الجو غمر «مولي» شعور بالسعادة ، وفي ترقب لإشراق القمر حكت «مولي» لبيل عن والدها وزياراته المتفرقة واختفائه النهائي ، وسألته وهي تبكي :

- هل تدرك معاناتي يا «بيل» ؟ هل تظن أن والدي مازال حيّاً في مكان مّا ؟

فأجابها : إذا كان الأمر كذلك فأسفٌ أن أقول لك إن ذلك يعني أنه نذل تخلّى عن مسؤوليته . . فإذا كان حيّاً ، فإن عدم مراسلته أو اتصاله بك يُعدّ أمراً غريباً .

سرت رعدةً باردة ، فقد حاولت «مولي» تحاشي التفكير بهذا المنطق الذي كانت ترى أنه الصواب ، وقالت بجفاء :

- أعرف ذلك بالتأكيد . . أما الآن فأنا ذاهبة للقيام ببعض الأعمال يا «بيل» .

وفي أطراف «مراعي الفردوس» وفوق التلال ، بُني كوخ قديم يطل على المنطقة كلها ، وعلى الطرق المجاورة ، وتردد أن «فاسكينر» - وهو من قطاع الطرق - قد عاش في هذا الكوخ الذي بناه لمدة عام ، وكانت

الدوريات تجوب المنطقة بحثاً عنه . . كان هذا الكوخ مكاناً شهيراً يزوره سكان الوادى فى المناسبات ، ولهذا سأل جميع السكان « مولى » إذا كانت قد زارت هذا الكوخ ، فقالت :

- كلاً . . ولكننى لمأصعد إليه فى يوم سبت وأنا أعرف الطريق .

وذات صباح ارتدت حذاءً يصلح لهذه الرحلة فى الطرق الوعرة ، وعرض عليها « بيل » أن يصحبها ، ولكنها قالت :

- لا يمكن أن أعطلك ، فلديك ما يشغلك من عمل .

- اللعنة على العمل .

- أفضل أن أذهب وحدى . . أسفة لإحراجك يا « بيل » .

شعرت بالأسف لأنها لم تتركه يصحبها ، ولكن رأيه فى والدها قد أخافها وقالت لنفسها : أريد القيام بمغامرة ، . ولو اصطحبني « بيل » لتحولت إلى رحلة عادية . وظلت تتسلق الطريق شديد الانحدار المظلل بأشجار السنديان لمدة ساعة ونصف الساعة ، وكانت الشمس حامية ، وأوراق الشجر الجافة تبدو كألواح من الزجاج ، وفاح فى الجو أريج الأعشاب المنعشة .

وصلت « مولى » إلى أعلى التل لاهثة الأنفاس تتصبب عرقاً . كان الكوخ يتكون من غرفة خشبية بلا نوافذ ، والمدخل دون باب ، والكوخ يتوسط أرضاً مجدبة وسط الأعشاب . . وساد المكان السكون الذى يغلف دائماً الأماكن النائية ، إلا من صوت الحشرات والنحل والذباب ، فبدأ السطح كما لو كان يتغنى برقة فى لهيب الشمس .

سارت «موللى» على أطراف أصابعها تقترب من الكوخ وتمنى نفسها بمغامرة فى كوڤ «فاسكينر» قاطع الطريق . ونظرت من الباب فرأت سحلية هربت منها ، وعلق فى جيئنها نسيج عنكبوت كأنه يمنعها من الدخول . . امتلأ الكوڤ الخاوى بالأقذار المتراكمة ، والتراب الذى يغطى الأرض والجدران ، ورائحة الأرض التى لم تصل إليها الشمس لفترة طويلة .

كانت «موللى» منفعلة وسط خواطرها :

« كان يجلس هنا بالليل . . يخرج كالشبح ويتوارى فى الظلام عندما يستمع إلى أصوات تشبه زحف الرجال إليه » .

نظرت جهة وادى «مراعى الفردوس» حيث الحدائق فى مربعات غامقة خضراء ، والتلال وراءها فى لون بنى فاتح تتخلله لمحات من اللون البنفسجى الفاتح ، والحبوب فى مربعات صفراء ، والطرق متشعبة ومُلتفة حول شجرة عملاقة ، فى حين كانت فوق الوادى غلالة من النور المتألق ، فهمست «موللى» :

- « إنه جو أسطورى . . وأنا أعيش حقًا مغامرة شائقة »

وهب نسيم خفيف من الوادى مرتدياً صديرياً مطرزاً بالخيوط الذهبية ، وينظلوناً يتسع كلما نزل على ساقيه النحيقتين حتى يصبح كالبوبق المقلوب عند القدمين ، ويلف شريطاً حريرياً حوله . . وأحياناً كان يرى الدوريات أسفل الطريق ، ومن حسن حظه أن الجنود لم ينظروا إلى قمة التل ، وعلى الرغم من سخريته منهم فإنه بالتأكيد كان يملكه الخوف . . وكان يترنم بأغنيات حزينة ، لأنه كان يدرك أنه لن يعيش طويلاً ، جلست «موللى» وأسندت رأسها إلى كفيها وتصورت «فاسكينر» بجانبها ، له ملامح تشبه

ملامح أبيها المرح وعينيهِ البراقتين عندما يخرج للشرفة قائلاً : مرحباً يا أولاد . هيا لأحكي لكم مغامرة من مغامراتي .

وفي وقت متأخر من بعد الظهر أرسلت « مسز وايتسايد » ابنها لبيحث عن « موللي » قائلة : ربما تكون قدمها قد تعثرت وهى تصعد التل ، لما وصل « بيل » إلى بداية الطريق ، رأى « موللي » قادمة فقال لها :

- خشيناً أن تكونى قد ضللتِ الطريق ، هل صعدت إلى الكوخ ؟

- نعم .

- إنه يشبه علبة قديمة ، أليس كذلك ؟ إنه كوخ خشبي فقط ، ويوجد مثله كثيرًا ، ومن الغريب أن يصعد الكثيرون لرؤيته ، على الرغم من أنه ليس من المؤكد أن « فاسكينر » قد سكن فعلاً هذا الكوخ .

- أعتقد أنه أقام فيه .

- لماذا تظنين ذلك ؟

- لا أعرف .

قال « بيل » : لم يكن « فاسكينر » هذا بطلاً ، بل مجرد لص . . بدأ بسرقة الخراف والخيول ، وانتهى بقطع الطرق على العربات المسافرة ، وكان يلجأ إلى قتل الناس إذا اضطرتته الظروف . . يجب أن نعلم الناس أن يكرهوا اللصوص لا أن يقدسوهم .

فردت وهى مجهدة :

- أنت على حق يا « بيل » . . لقد أدركنى التعب وأصبحتُ عصبية المزاج أيضاً .

مرت الأيام ، وكست الزهور البرية التلال ، وشعرت « مولى » بأهميتها للوادي ، وبدأت تحضر اجتماعات مجلس إدارة المدرسة ، وكانت هذه الاجتماعات تُحاط أحياناً بأهمية وسرية وغموض . . ولكن عندما عادت « مولى » من غرفة « جون وايتسايد » عرفت أن مجلس الإدارة يناقش المحاصيل وما يتردد من حكايات وإشاعات .

وكان « بيرت مونرو » قد انتخب لعضوية المجلس في الخريف ، وما إن حل الربيع حتى أصبح واحداً من أكثر الأعضاء نشاطاً . . يرتب لحفلات المدرسة الراقصة ويعد للرحلات والتمثيليات ، ويقدم الجوائز للمتفوقين من الطلاب ، وزاد اعتماد المجلس عليه أكثر وأكثر .

نزلت « مولى » متأخرة من حجرتها ذات مساء في حين كانت « مسز وايتسايد » تجلس في حجرة الطعام كعادتها عندما يجتمع المجلس في بيتها ، قالت « مولى » لها :

- لن أشارك في هذا الاجتماع ، فربما يريدون أن يتناقشوا في أمور أو يحكوا قصصاً ، ولا يستطيعون القيام بذلك في حضوري .

- هيا يا « مولى » . . أدخلي . . لا يمكن أن ينعقد الاجتماع دونك . .

- لقد تعودوا على ذلك . . ثم إنني لا أريد أن يناقشوا هذا النوع من القصص .

توقف « بيرت مونرو » من باب اللياقة عن القصة التي كان يحكيها ، وقال :

- كنت أتحدث عن مساعدى الحديد يا « مس مورجان » . . سأحكي هذه القصة مرة أخرى لطرافتها . . كنت في حاجة إلى مساعد ،

والتقطت هذا الرجل من « ساليناس » ، كان يجلس تحت أحد الجسور مخموراً يطلب عملاً ، فاصطحبته معي ، ولكنني سرعان ما أدركت عدم فائدته ، وعلى الرغم من ذلك فلا يمكن التخلص منه ، لتعلق الأولاد الشديد به ، فهو قد زار كل العالم . . يحكى قصصاً رائعة عن أئفه الأشياء التي شاهدها . . ويلتف حوله الأولاد منبهرين ، وهو يذهب مرتين شهرياً إلى « ساليناس » فيسكر ويعربد فيجده رجال الشرطة مخموراً في البارات فيتصلون بي ، فأضطر لإحضاره . . وفي كل مرة يحضر معه هدية لابني « ماني » ، ولا أستطيع أن أفعل معه شيئاً ، فهو من النوع الذي يجذبك فوراً على الرغم من أنه لا يؤدي أى عمل ، ولا فائدة من ورائه .

شعرت « موللي » بالخوف . . وضحك الرجال قائلين :

- إنك طيب أكثر مما يجب يا « بيرت » . . لا يمكنك الاحتفاظ بمهرج في مزرعتك ، عليك بالتخلص منه فوراً .

وقفت « موللي » مرتاعة خوفاً من أن يسأل أحد عن اسم الرجل ، وقالت بسرعة :

- أشعر أنني مُتعبَة . . أرجو المَعذرة . . فسأذهب لأستريح .

وقف الرجال احتراماً لها وهي تغادر الحجرة . . وألقت بنفسها على فراشها وخبأت رأسها في وسادتها وهي تحدث نفسها :

غير معقول . . إنه جنون . . لا يمكن أن يكون هو . . سأنسى الأمر فوراً . . ولكنها اكتشفت أنها كانت تبكى !

جاءت الأسابيع القليلة التالية و « موللي » تتعذب عذاباً شديداً ،

تخشى الخروج من المنزل . . وتتحاشى أن تنظر أمامها في طريقها للمدرسة ، وتقول لنفسها :

- « لو رأيت رجلاً غريباً فسأهرب . . ولكن ما هذا ؟ إننى أتصرف كالمجانين ! »

تملك الخوف من « مولى » ، فلم تكن تشعر بالأمان إلا في غرفتها . حبا بريق عينيها ، وشحب لونها ، وفي اجتماع مجلس الإدارة التالى لم يحضر « بيرت مونرو » فاطمأنت « مولى » وبدأت شبه سعيدة لغيابه . . فقال بعض الأعضاء :

- إنك تبدين أحسن يا « مس مورجان » . . أليس كذلك ؟

- نعم . . كانت بعض أعراض البرد الخفيفة .

مرت ساعة ودخل « بيرت مونرو » معذراً :

- أسف للتأخير . . ولكن مساعدى وُجِدَ نائماً في أحد شوارع «ساليانس » وأنا في ورطة . فعلى أن أغسل السيارة التى أكملَ نومه فيها حتى أزيل آثار سُكره .

شعرت « مولى » بالفزع الشديد ، وكاد أن يغمى عليها ، فصاحت :

- معذرةً ، يجب أن أذهب !

وجرت هاربة من الغرفة ، واستندت إلى أحد الجدران تستجمع نفسها . . مشت ببطء ، وبحركة لا إرادية عبرت الباب الزجاجى ونزلت درجات سلم البيت . كان الليل قد حلَّ واستطاعت أن ترى في الظلام سيارة « بيرت مونرو » وتعجبت ، فقد شعرت بقدميها تسيران نحو السيارة

دون إرادة . . . مدت يدها إلى الباب وفتحته . . . هبت ريح خفيفة فشمت رائحة سيئة من القئء وسمعت شخير سكير . . . وشعرت بدوار ، وجرت بسرعة جنونية إلى البيت ، وما إن وصلت إلى حجرتها حتى أغلقت الباب ، وشعرت أن اللحظات ساعات طويلة ، حتى غادر الرجال المنزل . وسمعت محرك السيارة يدور والصوت يتعد ، ولما همت « موللى » بالحركة شعرت كأنها مشلولة .

دخلت « موللى » مكتب « جون وايتسايد » الذى كان جالساً ، فقال :

- كسيت على ما يرام يا « مس مورجان » سأستدعى لك الطبيب .

بدت « موللى » متخشبة فى وقفها قرب المكتب ، وسألت :

- هل يمكن أن تستعين بمدرسة غيرى ؟

- بالتأكيد . . . هيا استريحى فى فراشك ، وسأدعو الطبيب .

- لا أقصد الراحة . . . فأنا أريد الرحيل الليلة . . . أخبرتك أن والدى

مات . . . ولكننى لست متأكدة من ذلك ، إننى أخشى أن ... أريد الرحيل الليلة

- نظر إليها متعمداً وقال بلطف :

- أخبرينى ماذا تقصدين ؟

- لو رأيت الرجل السكير الذى يعمل عند « بيرت مونرو » ...

وتوقفت ؛ فقد ضاقت من نتيجة كلامها .

هز « جون وايتسايد » رأسه ، فصرخت « موللى » :

- لا . . . لا أظن ذلك ، إنى واثقة .

- هل أستطيع أن أساعدك يا «مولي» ؟
- لا . . أريد الرحيل . . المسألة بالغة الأهمية بالنسبة لي .
- لستُ أفهم تماماً . . ولا أريد أن أفهم . . ليس ذلك مهماً . .
هيا اصعدى إلى غرفتك وأعدّي حقائبك . . سأوصلك بسيارتى إلى
«ساليناس» .



كانت مزرعة « ريموند بانكس » أجود مزارع مراعى الفردوس . كان « ريموند » يربى فيها خمسة آلاف دجاجة بيضاء ، وألف بطة ، وكانت المزرعة تقع على أفضل موقع في الريف كله . . قسّم « ريموند » أرضه إلى مربعات من الخضرة . . كانت مزارع الدجاج نظيفة لا يوجد حولها أكوام القذارة المعتادة حول هذه المزارع .

أعد « ريموند » للبط بركة واسعة مستديرة ينساب الماء إليها باستمرار . . أمّا الفائض من الماء فيصب في السواقي المتفرعة عبر مساحات العشب والكرونب . . فكان رائعاً أن يرى الإنسان هذا المنظر البديع في الصباح الباكر ، أسراب الدجاج البيضاء تأكل وتنقر وتنش المرح الأخضر . والأروع أن يرى ألف بطة بيضاء تسبح في البحيرة بخيلاء . كما يمكنك من أعلى التل أن ترى ألوف الديوك البيضاء تموج وتمتد على بركة زاهية الخضرة . . وإذا ظهر في الفضاء صقر أحمر الذيل يراقب باهتمام بيت « ريموند » ، تتوقف الدجاجات عن حركاتها فوراً وتهرع لتحتوى بالديوك ، وتسمع صوتها مذعورة من الصقر ، وتسمع الباب الخلفى يُغلق ويظهر « ريموند » حاملاً بندقيته ، فيطير الصقر إلى أعلى مائة قدم . . فينتشر الدجاج من جديد وهو يصفق بأجنحته .

ومن التل يمكنك أن ترى منزل « ريموند » المطلى باللون الأبيض القائم على خميلة من الزهور ووراء المنزل حديقة جديدة بأن نسميها حديقة « مراعى الفردوس » . . كان السُّكان يعتبرون هذه المرزعة ، المرزعة النموذجية .

أمّا « ريموند باكس » فكان مظهره بالغ القوة ، قادرًا على الرفع والجر والحمل . . وقد لوحث الشمس باللون الأسمر كل مكان مكشوف في جسده . . له كتفان عريضتان ، وساقان قويتان . . وما كان شعره الأشقر الخفيف يستطيع حماية صلعته من الاحمرار والاحتراق تحت الشمس ، وكانت عينا « ريموند » سوداوين كالفأر ، وفمه له شفتان مليئتان ، وقسمات مريجة تظهر عليه بعض ملامح الخبث .

كان « ريموند بانكس » في الخامسة الأربعين . . رجلاً بالغ الطيبة . . يتكلم دائماً بصوت مرتفع واندفاع ساخر . . وأحياناً يتحدث بكلام شديد الابتذال كأنه يطلق دعابة عادية ، لأن الناس كانوا يضحكون عندما يتكلم . . وكانوا يختارونه ليؤدى دور « بابا نويل » في أعياد الميلاد التى تُقام في المدرسة ، وذلك بصوته ووجهه الأحمر ووجهه للأطفال ، سواء ارتدى ملابس « بابا نويل » أم لا ، فقد كان الأطفال يعتبرونه نوعاً من « بابا نويل » . . وكانت له طريقة فى أَرْجَحَتِهِمْ وشَقَلَبَتِهِمْ تثير فيهم البهجة والفرح ، وأحياناً ينقلب جاداً ، يحكى لهم الدروس الهامة .

وفى نهار أيام السبت كان الأولاد يزورونه فى المرزعة لمشاهدته وهو يعمل ، فيريهم الحضانات الكهربائية . . ويشاهدون فيها الكتاكيت وهى تشق البيض لتخرج ، وقد أخذت ترفرف بأجنحتها وتنارجح على أرجلها الضعيفة . . وكان يسمح للأطفال بفتح الحضانات والإمساك بالأفراخ الصغيرة ذات الزغب الأشقر . . ثم كانوا يتوجهون إلى البركة فيرمون فُتات

الخبز إلى البط الذى يسبح بعظمة . . وكان الأطفال يحبون وقت الذبح ،
على الرغم من أن « ريموند » يتخلى فيه عن مرحة ويتسم بالجد والرزانة .

كان « ريموند » يأخذ ديكاً صغيراً من الحظيرة ويُعلقه من رجليه في
دعامة خشبية ويربط بعنف جناحية المصفتين بمشبك معدنى . وكان
الديك يأخذ في الصياح ، ويأخذ « ريموند » سكين الذبح من صندوق
بجانبه ، وكان الأطفال يصيحون إعجاباً بالنصل الذى يشبه الرمح ،
وشكله المخيف ، ورأسه الحاد كالإبرة .

ويقول « ريموند » : الآن أيها الديك اللعين سأقضى عليك . عندئذ
يتجمع الأطفال في حلقة حوله ، فيمسك « ريموند » بيديه المدربتين
بسرعة رأس الديك ويومض النصل وينحدر بسرعة البرق إلى رأس الديك ،
فكان الديك يهز جناحيه وتتطاول رقبتة حيناً للحياة ، في حين ينحدر
خييط رفيع من الدم من أعلى المنقار .

ويهتف « ريموند » : والآن انظروا . ويقبض على صدر الديك ويجذب
مابه ، فتمتلئ يده بكل ما كان على صدره من ريش ، ومرة أخرى يعرّى
ظُهر الديك . . وهكذا في الجناحين . . ويجرد الديك من الريش في شدّة
واحدة . . ويشرح للأطفال :

- أرايتم ؟ لابد أن يتم ذلك بسرعة في خلال دقيقتين ، وإلا فإن الريش
سيزداد التصاقاً .

ويأخذ الديك من الدعامة الخشبية ويأخذ سكيناً أخرى ويشق بطن
الديك ويُخرّج أحشاءه ، ثم يمسح يديه من آثار الدم بقماشة ، ويصيح
الأطفال :

- ما هذا ؟

- القلب .. لا يزال يتحرك .. لا زال حيًا !

ويطمئنهم « ريموند » قائلاً :

- لا .. لقد مات ألدريك منذلمست السكين رقبته ، لكن القلب يظل
يخفق قليلاً .

ويسأله بعضهم :

- ولماذا لا تذبح الديكة وتقطع رءوسها كما يفعل أبى ؟

- لأن هذه الطريقة أسرع وأنظف ، والجزار يريد لها برأسها حتى يزيد
الوزن . كان يقول ذلك ويلتقط ديكًا آخر ، ويكرر الذبح ، ولكنه كان
يرفض إلحاح الأطفال في مشاركته ويعتذر قائلاً :

- إذا لم تذبحه السكين من المكان المناسب فذلك يؤذى الديك .

أما زوجته « مسز بانكس » فكانت ضاحكة ، تطلق ضحكاتها العذبة
التي تعبر عن مرح معتدل .. فكان منهجها هو الضحك تقديرًا لما يقوله
الناس ، فكان الناس يلجئون إلى رواية الكلام المضحك كلما صادفها .

وبعد انتهاء عملها في البيت تسرع للحديقة لتغنى بها وبنباتها
ولأنها من بنات المدينة - كما يقول الجيران - فقد كانت تهوى الزهور ، وكانت
ضحكات السيدة « كليو بانكس » الصافية العذبة ترحب بالقادمين إلى
البيت فكانوا يقهقهون فرحين عندما يسمعونها . كانت « كليو بانكس »
مريجة ، تجعل الناس يستريحون إليها وربما لا يتذكر أحدهم ماذا قالت ،
ولكن كل زائر يستطيع أن يتذكر - حتى بعد مضيّ شهور - رنين ضحكاتها .

أما « ريموند بانكس » فنادرًا ما يضحك . . وكان الزوجان أكثر المضيفين شعبية وشهرة في الوادى . . وكانا يدعوان بين الحين والآخر كل ساكن في الوادى إلى الشرائح المشوية في خيمة سنديان قرب منزلها ، ويشويان الدجاج الصغير على الفحم ويفتحان مئات الزجاجات من البيرة المصنوعة في منزلها .

كان سكان الوادى يشتاقون بشدة إلى هذه الحفلات .

وكان لريموند بانكس زميل في المدرسة الثانية أصبح يعمل كسجّان في سجن « سان كوينتين » . . استمرت الصداقة بينهما ، فهما لا يزالان يتبادلان الهدايا الصغيرة في أعياد الميلاد ويتراسلان عند الأحداث المهمة .

كان « ريموند » فخورًا بصداقته للسجّان الذى كان يدعوه سنويًا لمشاهدة عملية الإعدام مرتين أو ثلاثًا . . وكانت رحلاته إلى السجن هي الإجازات الوحيدة التى يحصل عليها .

تعود « ريموند » أن يصل إلى بيت صديقه السجّان في ليلة الإعدام ، فيجلسان ويسترجعان ذكريات الدراسة وأحداثها ونوادرها ، وكان « ريموند » يعجبه ما يراه من انفعال الشهود في الصباح ، والهستريا التى تغمرهم في مكتب السجّان ، وكان سير المحكوم عليه بالإعدام وهو يمشى متقهقرًا يثير مشاعر « ريموند » ، فلم تكن عملية الإعدام ذاتها هي ما تهمة ، ولكن ما يصاحبها من جو مشحون متوتر عنيف .

لم يكن « ريموند » يهتم بالمحكوم عليه أكثر من اهتمامه بالديك الذى يذبحه ، فلم يكن يتسم بالقسوة أو يسعى للتلذذ بعذاب الآخرين ، ولكنه كان يسعى للانفعال العميق ، ولم يكن خياله يحقق له هذه الرغبة . .

ولكن في السجن كان يستطيع أن يشعر بمشاعر الآخرين المشحونة
النايضة .

كان « ريموند » يهوى حضور اجتماع النطق بالحكم ، في حين كان غيره
من الرجال يحاولون استجماع شجاعتهم ، وعادة ما يخرج مشاهد منهم
مغشياً عليه أو باكياً ، غير أنه كان يستمتع بالمشاهدة التي تُشعره أنه حتى
منفعل بالحياة ، وبعد الانتهاء كان يُشارك صديقه السجناء عشاء دسماً قبل
أن يعود إلى بيته . . كان الشعور نفسه يخالجه عندما يتجمع الأطفال
لمشاهدته وهو يذبح الدجاج .

لم يمر وقت طويل على عائلة « مونرو » في « مراعى الفردوس » حتى
سمعت عن مزرعة « ريموند بانكس » الرائعة وزياراته للسجن . . فكانت
أخبار هذه الزيارات تبهرهم دون أن ترهبهم .

كان « بيرت مونرو » يتصور « ريموند » جلاًداً بالشكل المعروف
للجلادين ، جسم هزيل ، وبشرة داكنة ، وعينين بليدتين ، وأعصاب
باردة ، وكان مجرد تفكير « بيرت » و في « ريموند » يملؤه بلهفة فضولية ،
ولكن توقعاته خابت عندما رأى « ريموند بانكس » بعينه السوداءوين
المرحتين ووجه الصبوح ، ف شعر بشيء من الاستياء لإحساسه أن هذه
الملامح المرحية ظواهر خادعة لا تنسجم مع الفكرة التي كوَّنها عنه .

أقام « آل باكس » وليمة من ولائهم في أول يوم من شهر مايو تحت
ظلال أشجار السنديان في أجمل الفصول ، إذ تفتحت الأزهار والورود ،
وطرزت بساط العشب الأخضر الذي بسطته الطبيعة على التلال . وكانت
أشجار السنديان قد ارتدت ثوباً جديداً من الأوراق الخضراء النظيفة

اللامعة، وكانت الشمس تبعث في الجو دفئاً مُحَبَّباً شَجَعَ الطيورَ على أن تغرد أغاريدَ جميلة عذبة مصحوبة بأصوات الدجاج وحفيف أجنحتها، وصياح البط .

وقف ما لا يقل عن خمسين مدْعُوًّا تحت الشجر حول موائد الطعام الممتدة، ووُضِعَتِ المئات من زجاجات البيرة في أحواض الثلج الملح ، وكانت « مسز بانكس » تتجول بين ضيوفها وهي تضحك . إما تَحِيَّةً أو ردًّا على تحية ، ونادراً ما تنطق بكلمة .

وعند مواقد النار كان « ريموند » يشوى الدجاج الصغير ، في حين التف حوله عدد من المعجبين يتبادلون الدعابات .

كان « ريموند » يناديهم قائلاً :

- ليتقدّم مَنْ يستطيعُ شَيَّ الدجاج أفضل مني . . سأضع الآن على الشواية شرائح اللحم لمن لا يريد الدجاج .

وقف « بيرت مونرو » ينظر إلى يدي « ريموند » الحمراوين ، وكان يشرب زجاجة من البيرة وقد انبهر بالقبضتين الحمراوين القويتين أثناء التقليل المستمر للدجاج .

ولما نُقِلَت أطباق الدجاج المشوى إلى المائدة عاد « ريموند » لِشَيِّ المزيد لضيوفه ، فقد يطلبون فرائحاً ثانيةً أو ثالثةً . . وفي أثناء ذلك ظل « ريموند » وحده ، بعد إسراع ضيوفه إلى المائدة .

نظر « بيرت مونرو » فرأى « ريموند » وحيداً ، فتوجه نحوه . . وسأله « ريموند » بقلبي صادق :

- ماذا يا «مستر مونرو»؟ ألم تكن دجاجتك شهية؟

قال «بيرت» :

- أكلتُ شريحةً لذيذة ، ويمكن أن أكون أكلتها بسرعة ، فأنت تعرف أنني لا أأكل الدجاج .

- صحيح . . لا أتصور إعراض أيّ شخص عن أكل الدجاج ولكنني أعرف كثيرًا من الناس لا يفضلونها . . هل أضع لك شريحة صغيرة أخرى؟

- لا لقد اكتفيت . . وأعتقد أن الناس تأكل أكثر مما ينبغي ، ورأيتُ أن الإنسان يجب أن يترك الطعام قَدْرَ ما يستطيع ، فإنه طالما لا يملأ معدته بالطعام فسيظل قويًا .

أجاب ريموند : أوافقك في ذلك .

قال ذلك وهو يقلب الدجاج الصغير على النار :

- نعم . . إنني أشعر بالتحسن عندما لا أأكل كثيرًا .

- طبعاً . . وأنا أيضاً ، وأي إنسان ، ولكن كل الناس يسرفون في الأكل .

تبادل الرجلان ابتسامة حارة لأنها اتفقا في هذه الجزئية ، برغم أن كُلَّ واحدٍ منهما لم يكن يؤمن بما قال إيماناً قوياً .

قال « ريموند » راجباً في تدعيم صداقتها الجديدة بالاتفاق في جزئية ثانية :

- عندك أرض خصبة؟ كانوا يقولون إن المكان كان مسكوناً بالأشباح قبل أن تقيم فيه وتجعله على أحسن حال . . ألم ترى شبح؟
- لا . . أبداً . . فأنا أخاف من الأعشاب الطفيلية أكثر من الأشباح... إن النباتات الطفيلية لا تضايقني في تربيتي للدجاج، ولكنها تضايق من يربي الماشية .
التقط « بيرت » عُصناً من الأرض ورماه بهدوء على الفحم الملتهب وقال لضيفه :

- سمعت أنك صديقٌ لسَجَّان في « سان كويتن »
- كان « آد » زميلي في الدراسة من طفولتي . . هل تعرفه يا « مستر مونرو »؟
- لا . . لكن اسمه تردد كثيراً في الصحف . . فرجل في مركزه لابد أن تذكره الصحف كثيراً

أجاب « ريموند » بصوت مملوء بالافتخار :
- نعم إنه مشهور جداً ، ولكنه طيب جداً ، لدرجة تجعلك تحب مُقابلته ، فعلى الرغم من مسؤولياته فإنك تراه فَرِحاً وَدُوداً نعم . . لقد كان زميل دراستي ، ولم ينسني ، فهو يدعوني من فترة لأخرى لأشهد تنفيذ حُكْم إعدامٍ بالشنق .
ارتعد « بيرت » على الرغم من أنه كان يسعى للتأكد من ذلك .
- إنني أعتقد أن دعواته تشرفني ، فعمليات الإعدام لا يحضرها إلا رجال الصحافة ، والشريف ، ورجال البوليس . وقد كنت أستمتع بهذه الزيارة .

ومن الغريب أن « بيرت » وجد نفسه يسأل لا شعورياً :
- لا أظن أن السجان سيعجبه أن تصحب معك صديقاً .
شعر « ريموند » بالحرج وهو يُقَلِّبُ النار بشدة ثم أجاب :
- حقيقةً لأدري يا « مستر-مونرو » ، فلم أفكر في الأمر . . هل تريد أن
تذهب معي إلى هناك ؟

ومرة أخرى يقول « بيرت » لا شعورياً :
- نعم .

- حسناً . . سأسأل « لاد » وسأعرض طلبك ، فربما أرسل دعوتين في
المرّة القادمة ، ولكنني لا أعهدُ بذلك . . هل ترغب في قطعة شواء أخرى ؟
كان « بيرت » في حالة غثيان عندما قال :

- شكراً . . اكتفت . . سأذهب وأستلقي قليلاً تحت الشجرة .
- ربما تكون قد هززت بشدة عناصر التخمر في البيرة التي شربتها .
كان يجب أن تكون حذراً وأنت تصبها .

جلس « بيرت » على بساط من الأوراق الجافة تحت شجرة سنديان ،
وقد اصطف الضيوف على المائدة على يمينه . . وكان ضحك الرجال
المصحوب بصيحات النساء يصل إلى سمعه خفيفاً عبر سياج من أفكاره .
استطاع « بيرت » أن يرى « ريموند بانكس » من خلف جذوع الأشجار
وهو لا يزال يشوى الدجاج في نشاط لسد شهية غير طبيعية لم تشبع
بعد . . وبدأ الغثيان الذي دفعه إلى الابتعاد يتلاشى بسرعة . . وتحول هذا

الشعور بالمرض إلى نوع غريب من الرغبة التي تملكته . . لم يكن يرغب أن يذهب فعلاً إلى « سان كويتن » . . إن منظر رجل يُشْتَق كفيل بأن يسبب له التعاسة . . ومع ذلك كان سعيداً أنه طلب الذهاب . . وبينما كان « ريموند » يشمر أكمامه قبل أن ينظف المواقد ، نهض توجه نحوه ، وفجأة شعر بالغثيان من جديد ، فرجع للمائدة حيث كانت زوجته توزع النكات حول هياكل الدجاج الفارغة ، فقال لها « بيرت » :

- أنا عائد إلى المنزل . . فلستُ على ما يرام .

وهنا أَلقت بهيكل الدجاجة عن يدها ومسحت فمها ويديها بمنديل من الورق ،

وقالت : ماذا بك يا « بيرت » ؟

- لا أدري . . لست على ما يرام .

- هل تريد أن أصحبك إلى المنزل في السيارة ؟

- كلا . . ابْقِيْ أَنْتِ وسيوصلك « جيمى » .

- حسناً . . يجب أن تُودِّعِ مستر ومسز « بانكس » .

- ودعيها نيابة عني ، فأنا أشعر بتعب شديد .

ومشى بخطوات مسرعة .

بعد أسبوع اتجه « بيرت » بسيارته الفوردي إلى مزرعة « آل بانكس » وأوقفها أمام البوابة ، ظهر « ريموند » مصوباً بندقيته إلى صقر جارج ، فاندفع من المزرعة وصافح زائره الذى قال :

سمعت الكثير عن مزرعتك فقدمت لمشاهدتها .

قال « ريموند » مسروراً :

- دعنى أضع هذه البندقية وسأصحبك فى جولة داخل المزرعة .
وبعد ساعة أبدى بيرت إعجابته بنظافتها . ولما انتهى ، قال « ريموند »
لبيرت :

- تفضل إلى المنزل لتتناول كوباً من البيرة ، فليس أفضل منها باردة فى يوم
شديد الحرارة كهذا .

ولما جلسا سأل « بيرت » بصعوبة :

- هل كتبت الرسالة إلى صديقك السجّان يا « مستر بانكس » ؟

- نعم . . ولا بد أن يرد علىّ بسرعة .

- ربما تتعجب لرغبتى . . ولكن على الإنسان أن يرى كل ما يمكن على
سبيل التجربة ، وكلما شاهد تجارب جديدة عليه كان ذلك أفضل .

قال « ريموند » : نعم . . هذا صحيح تماماً .

شرب « بيرت » كوب البيرة عن آخره ، ومسح فمه قائلاً :

- لقد قرأت طبعاً فى الصحف عن وصف لتنفيذ أحكام الشنق ،
ولكن ليس من قرأ كمن رأى . . يقال : إن المحكوم عليه بالإعدام يصعد
ثلاث عشرة درجة إلى المشنقة تأكيداً لسوء حظه .

- الواقع . . لم أعد الدرجات قط يا « مستر مونرو » .

- احك لي . . ماذا يحدث بعد أن يتأرجحوا على المشنقة ؟

- الواقع أنهم يُربطون وتُخبَّأ رءوسهم فى ملاءة سوداء . . فلا تستطيع

أن ترى شيئاً . . . وهى حركات تشبه التمللمل والترنح أكثر من الصراع والنضال .

احمرَّ وجه « بيرت » ولمعت عيناه وقال :

- تقول الصحف إنهم يتعذبون من ١٥ إلى ٣٠ دقيقة قبل الموت .

- ذلك صحيح . . . ولكن تستطيع أن تعتبرهم ماتوا من لحظة سحب السلم من تحت أقدامهم . . . تماما كقطع رأس الديك عندما تذبحه ، يرفرف فترة ولكنه يكون ميتاً فى الواقع .

- بالتأكيد . . . ولعل بعض الناس يعانى من رؤية تنفيذ الإعدام للمرة الأولى .

- طبعاً . . . كل مرة يُغمى على واحد . . . إن مندوبى الصحف الشباب سيكون كالأطفال . . . ويُصاب بعضهم بالدوار . . . ولا يستطيعون أكل الطعام يومها . إن معظم مشاهدى الإعدام تظهر عليهم هذه الأعراض . . .

ما رأيك فى زجاجة بيرة أخرى فهى لذيذة ومثلجة أليس كذلك ؟

- نعم . . . إنها لذيذة . . . وأظن سأتعلم منك طريقة صنعها . أما الآن فسأنصرف . . . أشكرك يا « مستر بانكس » على هذه الجولة . . . ويمكنك أن تنصح وترشد سكان مرزعة « بيتالوما » حول تربية الدجاج .

ظل « بيرت مونرو » لمدة أسبوعين عصبياً سريع الانفعال ، على غير عادته ، مما جعل زوجته تقول :

- لست كما ينبغى يا « بيرت » . . . لماذا لا تفحص نفسك عند الطبيب ؟

أجابها بإصرار :

إننى بخير .

كان يمضى معظم وقته فى العمل بالمزرعة ، ولكنَّ عينيه كانتا ترقبان الطريق فى كل مرة تظهر فيها أى سيارة .

جاء « ريموند بانكس » راكباً سيارته فى يوم سبت وأوقفها أمام باب « آل مونرو » فتوجه « بيرت » لمقابلته .

وعندما يلتقى مزارعان فمن النادر أن يتوجها إلى المنزل ، بل يسيران ببطء ، يقتلعان الحشائش من الحقول ، أو بعض أوراق الأشجار وهما يتبادلان الحديث . كان قد حل فصل الصيف وقد نمت الثمار مكان البراعم التى تساقطت ، أما أوراق الشجر فلم تكتسب بعد لونها الأخضر الزاهى ، وبدأت ثمرات الكريز فى الاحمرار . مشى « ريموند » و « بيرت » بهدوء تحت ظل الأشجار ، وعلى الرغم من على « بيرت » بالسبب الذى جاء من أجله « ريموند » . . فإنه تجاهله وخاطبه قائلاً :

- يبدو أن العصافير ستأكل معظم الكريز هذا العام ، فهى كثيرة .

- لقد تلقيت رد « آد » يقول : لا مانع من استقبالك معى ، سنذهب يوم الخميس المقبل ، فستجرى عملية إعدام يوم الجمعة . إن « آد » دَمِثُ الحُلُق ، حسن المعشر ، وستحبه ، وسيستضيفنا حتى مساء الخميس .

- هل يكون من غير اللائق أن أعتذر عن الذهاب فى آخر لحظة ؟ فى الواقع أنا خائف فربما لا أستطيع إبعاد المنظر من مخيلتى .

- ليس الأمر بهذا القدر من السوء .

- سأشرح لك الأمر يا مستر « بانكس » ، فأنت تعلم أننى لا أتناول الدجاج ولا أشرح السبب ، بل أكتفى بقول إننى لا أحبه .
وكسر بين يديه غصناً كان قد التقطه من الأرض وألقاه .

- عندما كنتُ طفلاً في الثانية عشرة من عمري كنت أعمل في توزيع الطلبات لحساب أحد المتاجر ، وكان يعيش هناك عجوز كسيح يسير مستنداً على عكاز من الطراز القديم ، يستند على العكاز على شكل هلال تحت الإبط ، تعود وتمرس على السير به ، غير أن السير كان بطيئاً . .
وذات صباح كنت أسير حاملاً سلة خضروات ، وخرج العجوز ليذبح ديكاً ، وكان أكبر ديك شاهدته . . ورأيت العجوز واضعاً عكازه مستنداً عليه مُمسكاً الديك من ساقيه . . توقف « بيرت » عن السير والتقط غصناً آخر من الأرض في حين كان وجهه يزداد شحوباً . . وأضاف :

- كان الرجل يمسك بالساطور في يده الأخرى ، وبينما كان يهوى بالساطور على عنق الديك ، انزلق عكازه قليلاً وقطع جناحاً من جناحيه ، فجن جنونه ، وانهاه على الديك مرة في صدره وأخرى في معدته . . ثم مالبت أن انزلق العكاز فاختلف توازن العجوز ووجهه ضربة أخرى بالساطور، قطع إحدى ساقى الديك ، وكانت الضربة عنيفة بحيث فتحت جرحاً في أصبع العجوز .

وعندما حدث ذلك ألقى العجوز الديك على الأرض وسحب نفسه إلى البيت ممسكاً بأصبعه الجريح في حين قضى الديك وهو يتخبط على الأرض بكل قوة مُطلقاً صياحاً مصحوباً بالخرير .

كسر الغصن مرة أخرى بين يدي « بيرت » فألقاه بعنف وقال :

- من وقتها لم أرَ ديكاً يُذبح ، ولم أذق لحم الدجاج . . وفي كل مرة أحاول التغلب على هذا الشعور تظهر لي صورة هذا الديك متخبطاً في دمائه .

مضى « بيرت » في كلامه قائلاً :

- إنني فكرت في أمر الشنق ، وتخيّلُ التشابه بينه وبين ذبح الديك الذي ظللت أراه في أحلامي منذ كنت طفلاً ، فماذا يحدث لو ذهبتُ معك لمشاهدة الشنق ؟ لقد قرأت عن سيدة بتر الحبل رأسها في «أريزونا » أعتقد أن مشاهدتي لمثل هذه الواقعة يجعلها لا تفارقني طوال حياتي .

صرخ « ريموند » بغضب :

- أنصحك بالأ تفكر في مثل هذه الأشياء . . فليس الأمر كما تتصور ، لقد طلبت أن تذهب معي ، فإذا كنت لا تريد الذهاب فلا داعي لكل هذا التفسير.

حاول « بيرت » أن يكمل تفسيره ، ولكن ريموند قال : إنك جبان ليس إلا .

وسار بخطوات واسعة إلى سيارته وقادها منفعلاً إلى مزرعته . . غطى السيارة ، وتحدّث مع زوجته التي كانت تقطف الزهور :

- هل تعرفين « بيرت مونرو » الذي أراد الذهاب معي في الأسبوع القادم لرؤية عملية الإعدام ؟

- نعم .

- إنه لا يريد الذهاب . . لقد فقد أعصابه . . إنه يخاف أن يرى الشنق .

ضحكت الزوجة وقالت :

- أنا شخصياً لست متأكدة من أعصابي - إنني أود أن أرى ذلك .

- أنتِ سيدة . . والمفروض أن يكون هو قوياً كرجل .

وفي الصباح التالي جلس « ريموند » فاقد الشهية على مائدة الإفطار ،
يقال لزوجته :

- يجب أن أكتب إلى « آد » ، ولكنني لا أعرف ما أقول له ، فأنا أخشى
أن أكون في بداية الإصابة بنزلة برد لا تمكنني من الذهاب يوم الخميس .

فكرت الزوجة ثم قالت :

- لماذا لا تدعوه ليأتي هو إلينا؟ إنه لم يزرنا إطلاقاً .

أشرق وجه « ريموند » :

- إنها فكرة جيدة . . سأبعث إليه ببطاقة أدعوه لزيارتنا .

ردت « مسز بانكس » :

- نستطيع أن نقيم له وليمة شواء .

أخرج « ريموند » قلماً وورقة وزجاجة حبر وبدأ يكتب ، ثم ألقى رأسه
إلى الوراء وردد بلوم :

- لعنة الله على « مونرو » لقد تحملتُ الكثير من الصعاب من أجله . .

ولكن أني لى أن أعرف أنه جبان ؟



10

ASGI

10

عَانَى « بات همبرت » كثيراً من والدَيْهِ الْمُسْنَيْنِ ، فعندما جاء للحياة كان أبواه في منتصف العمر . . لما بلغ العشرين كانا قد أصبحا طاعِنَيْنِ في السن ، حادَيْنِ في الطباعِ صَعْبَيْنِ

المراس .

وهكذا عاش « بات » حياته في جو الشيخوخة المصحوب بالألم والمرض والانطواء ، وكان والداه يستخفّان بآرائه دائماً ويقولان له :
- إذا قُدِّرَ لك أن تعمّر طويلاً مثلنا ، فإن نظرتك للأشياء ستختلف كثيراً عما هي الآن .

كان الشيخان يجدان كل الفضائل في الشيخوخة . . التقرب إلى الله . . العصمة . . الكرامة . . أما الشباب فلا خير فيه ، بل يجب أن يحمّلا للشيوخ كل الإجلال والإكبار . ولما بلغ « بات » السادسة عشرة تحمّل كل أعباء المزرعة ، واكتفى والده بالجلوس على كرسي هزاز بجوار المدفأة ، كان يصدر من فوقه أوامره وملاحظاته .

كان بيت « آل همبرت » قديماً يتكون من خمس حجرات : صالون بارد مغلق مرعب كالقبر ، وحجرة معيشة حارة مكتومة الهواء تمتلىء برائحة

المراهم والأدوية ، وغرفتان للنوم ، ومطبخ كبير . . كان الشيخان يجلسان تحيط بهما المساند على كرسيهما الهزازين . . ويشعران بالمرارة والتذمر إذا لم يأت «بات» من المزرعة عدة مرات ليملاً المدفأة بالحطب . . وظلاً حتى وفاتها يحقدان على «بات» لشبابه .

وعند وفاتها كان «بات» قد بلغ الثلاثين ، وبرغم معاناتها من الشيخوخة فإنها قد تشبَّتاً بكل قوة بهذا الوميض الأخير وصارعاً الموت طويلاً ، وتوفيا والفارق بين رحيل الأم والأب شهر واحد

ظل «بات» يخدم والدته المتسلِّطة في سريرها لمدة شهرين وثلاثة أسابيع ، تتحسّر أنفاسها كلما حاولت التنفس ، ترمقه بنظرة اتهام من عينها المتحجرتين ، وعندما ماتت كانت عينها لا تزالان تتهمه بالتقصير.

ويوم وفاتها فُتِحَ باب الاستقبال للجيران الواجحين ، في حين كان صوت بكاء وتشنج الأب «همبرت» العجوز يأتي عالياً من حجرتة .

وبدأت فترة التمريض الثانية . فور الجنائز الأولى ، ثم توفي الأب بعدها بشهر . كان باب الاستقبال مغلقاً قبل ذلك لا يفتح إلا للتنظيف الشهري ، وكانت النوافذ أيضاً مغلقة لتحمي السجادة الخضراء من تأثير الشمس ، وكانت نسخة من الكتاب المقدس موضوعة في وسط القاعة فوق مائدة رخامية أنيقة مذهبة الأرجل ، كانت هذه النسخة مجلدة بجلد وغطاء مطرز عليه صورة الفنان الشهير ميلليه «جرس الغروب» ، وكان على جانبي الكتاب المقدس إناءان من الزهور الصناعية . . وعلى الحائط ثلاث صور كبيرة ملونة في أطُر ذهبية .

وقف « بات » صامتًا أمام القبر والجيران يهيلون التراب ويجمعونه فوق القبر . .

وعادت النساء إلى العربات ينتظرن عودة أزواجهن . وسار الرجال إلى « بات » يُصافحونه مرددين كلمات العزاء . . ظلت العربات تحتفى في حين كان « بات » واقفًا وسط القبرين ناظرًا إليهما . . فلم يبقَ مَنْ يطلب منه شيئًا .

كان الخريف قد أطل برائحته النفاذة ورياحه التي ما إن تهب حتى تخمد ، وعلى سور المقبرة كان يقف سرب من الحمام البرى ، في حين تلاعبت الريح بورقة من جريدة قديمة ، ثم سمع باب صليل عجلات عربة هبط منها « آلن » وربط الجواد إلى السور وتقدم من « بات » قائلاً :

- لقد رأينا بأنه يجب أن تمضى الليل في مكانٍ ما ، وأنا نودُّ أن نتناول العشاء معًا وتقضى الليل في بيتنا إذا شئت .

- أفاق « بات » من ذهوله وقال :

- نعم يجب أن أغادر المكان فلا فائدة من بقائي . . إنني لم أتناول العشاء قط خارجت البيت ، وهما لم يكونا يجبان الخروج من البيت بعد حلول الظلام . . ولم يجبانسيم الليل .

- إذا من الأفضل أن نتعشى معًا في منزلنا ، وهما لم يكونا حتى لا تعود إلى بيتك الخالي على الأقل هذه الليلة .

وسحب « آلن » « بات » من ذراعه وقاده إلى البوابة وقال :

- اتبعنى بعربتك .

كان العشاء يتكون من شرائح من اللحم البقري البارد والبطاطس المقلية مع البصل ، وشطائر الخبز بالزبيب . راعت السيدة « آرن » أن تُكثر من الحديث عن الراحِلَيْنِ وطيبتهما ولطفهما ، ونزاهة الأب ، ومهارة الأم في الطهي ، ومحاولة التخفيف عن « بات » الذي كان يعرف أنها تحاول مجاملته . . والحقيقة أنه لم يكن حزيناً لموتها .

حاول « آرن » أن يقنعه بالمبيت عندهم ، فرفض ، وتمنى لهما ليلة سعيدة ، ومشى متفائلاً ليسرج حصانه . . كانت السماء مظلمة باردة ، وعلى الرغم من شروده فإنه كان يسمع وقع حوافر الحصان وصياح طيور الليل ، وخشخشة الأوراق اليابسة ، ولكن صوت والديه كان بالنسبة له واضحاً فهذا هو ذا صوت والده :

« غداً سيتنشر الصقيع ، إننى أكرهه بشدة » وهما هو ذا صوت والدته
ترد :

« أشعر أن هناك فئراناً فى القبو ، هل نصب لها بات المصائد؟ » .

كان البيت ساكناً موحشاً عندما وصل « بات » ، فأشعل المصباح ، وأوقد ناراً ليدفئ المطبخ ، وتهالك على كرسى ، وفكر فى أن ينقل فراشه إلى المطبخ ، وتهالك على كرسى ، وفكر فى أن ينقل فراشه إلى المطبخ لينام قرب المدفأة . . حمل فراشه إلى المطبخ الدافئ المضىء ، وبعد فترة أطفأ المصباح وأوى إلى فراشه . . كان يسمع فرقعة النار برقة فى المدفأة ، وكان البيت ساكناً ، ثم أخذ يسرح فى الأرواح الشريرة .

تحسس « بات » جسده فوجده بارداً متوتراً ، وتخيل أنه يسمع أصواتاً صادرة من حجرة المعيشة ، إلى صوت الكرسى الهزاز . . وشخير

العجوزين . . وراح البيت يُطقطق ، وبينما كان يُحَيِّلُ إليه أنه يستمع إلى تلك الأصوات دُعر دُعرًا شديدًا ، وابتل رأسه وساقاهُ بالعرق ، فتسلل من فراشه وأغلق الباب شاعرًا بوحشة مريرة .

نهض في الصباح متذكرًا أن عليه ترتيب كل شيء ، وتنظيف المنزل . . لقد استثقل فتح باب غرفة المعيشة وما سيراه داخلها من آثار والديه على الكرسيين ، وروائح الشيخوخة ، والزهور الذابلة ، وبقايا الأدوية . . ولكنه كان واجبًا يجب أن يؤديه .

أشعل النار وأعدَّ إفطاره ، وأخذ يشرب قهوته الساخنة ، وتعجب من أفكاره ، فقد سأل نفسه .

- لماذا يجب أن أفتح الحجره . . ليس فيها ما يحتاج إلى رعايته . . وأحس بنفسه كولد صغير يهرب من المدرسة ليسير في غابة كثيفة مُهَجَّة ، ولكنه سمع صوت أمه الشاكي يتردد بداخله :

« بات ، يجب أن تنظف الحجره . . أنت مهمل » . . غير أن صوت تمرده وثورته قد علا :

- لا ينتظر مني أحد أن أعمل شيئاً بعد الآن . . لن أذهب إلى غرفة المعيشة أبدًا .

وانتزع مفتاحها وألقاه وسط نبات الأشواك وراء المنزل ، وأغلق كل النوافذ .

لم تدم فرحته بالحرية طويلاً . . فكان عمله بالمزرعة يشغل وقته نهارًا ، ولكن قبل نهاية النهار كان يفتقد واجباته القديمة التي تستهلك وقته ، وكان يعرف أنه يخاف من البيت ومن الآثار المنطبعة على الوسائد .

وفي ليلة أعد « بات » عشاءه وجلس أمام المدفأة ، وغمرته موجة شجن ، وأصغى إلى الأصوات الصادرة من البيت القديم ، والهمسات والفرع الخفيف ، فلم يستطع التحمل ، فخرج إلى الإسطبل ، وأخذ جواده وسار إلى المتجر العام لمراعى الفردوس ، وهناك وجد ثلاثة رجال حول المدفأة المستديرة يتأملون تجاعيدها وثناياها بغير تفكير ، وحينما اقترب أفسحوا له المكان للجلوس ، ولكن أحدًا لم ينظر إليه ، فقد منعتهم حالة الحداد من ذلك وجلس « بات » على مقعده وهو يحملق في المدفأة وقال :

- ذكروني أن أخذ طحينًا قبل الذهاب .

فهم الرجال ما يقصده ، فهو لا يحتاج إلى طحين ، ولكنه يتذرع بحجة . فتح « ألن » الغطاء وبصق على الجمر وهو يقول :

- البيت يبدو موحشًا جدًّا .

شعر « بات » بسعادة على الرغم من أن الملاحظة كانت هفوة ، وقال كمن يرد الجميل :

- أحتاجُ بعض التبغ ياسيد « ألن » .

بعد هذا غير « بات » طريقة حياته وأخذ ينشد الاختلاط بالناس عن عمد ، فيعمل في مزرعته نهارًا ، وفي الليل يصحب بعض الرجال ، وعندما كانت تُقام حفلات بالمدرسة كان أول من يأتي وأخير من يرحل . وفي الانتخابات كان يبقى حتى تغلق الصناديق ، وفي أى اجتماع كان يحرص على التواجد ، وكان قد تدرّب على اكتشاف كل ما هو مبشر في التجمعات .

كان « بات » إنسانًا عاديًا ، كبير الأنف ، عريض الفكين ، كثير الشبه

بلنكولنن فى شبابيه ، وكان ذا أذنين مكتظتين بالشعر ، وكان مُقلًا فى حديثه ، يعرف أن وضعه فى الاجتماعات لا أهمية له ، وكان يحاول تعويض هذا النقص بالعمل وترتيب الأشياء . . فيشارك فى اللجان التى تعد حفلات المدرسة الراقصة ، وزيارة أعضاء هذه اللجان لبحث الخطط وتزيين المدرسة وإعداد المقاعد والأطباق .

وإذا لم يجد فى إحدى الأمسيات اجتماعاً يذهب إليه كان يقود السيارة الفورد إلى « ساليناس » لحضور فيلمين سينمائيين فى ليلتين متتاليتين ، وفى الليلة الثالثة يظل وحيداً فى البيت وهو يشعر بالملل ، بل والفزع من ذكريات كثيرة .

ظل « بات » عشرة أعوام يطوف بالوادى ناشداً الصحبة ، وانتخب عضواً فى مجلس إدارة المدرسة ، وانضم إلى الماسونيين والأتباع الفرديين فى «ساليناس» ، ولم يتغيب عن أى اجتماع ، وعلى الرغم من حبه للمخالطة فإنه لم يصبح جزءاً من أية جماعة ، فهو دائماً على الهامش ، لا يتكلم إلا إذا وُجِّه إليه الحديث ، وكان أهل الوادى يعتبرون وجوده ضرورياً ، وكانوا يستغلونه دون رحمة ، ودون أن يعلموا أنه راغب فى ذلك . وعندما تنفض الاجتماعات يعود « بات » إلى بيته وهو يقود سيارته ، ثم يندفع إلى فراشه .

حاول « بات » أن ينسى العُرف المريعة وراء الباب ، فكانت صورها تلتصق بذهنه ، بالغبار ، وأعشاش العناكب فى زوايا البيت ، وقطع الأثاث ، كانت هذه الصورة تزوعه فى فراشه ، كان هذا هو السبب فى إهماله لبيته .

وكانت إلى جوار البيت شجيرة ورد « البانكسيا » الأبيض ، وقد ظلت

لسنوات خميلة صغيرة وفجأة تسلقت أغصانها واجهة البيت وغطت البوابة وتعلقت بالنوافذ المغلقة ، وفي عشر سنوات بدا البيت مملوءاً بالورود ، وكان المارة يتعجبون من جمالها وضخامتها .

كان « بات » يرفض التفكير في البيت . . أما مزرعته فكانت جيدة ، وكان يعتنى بها كثيراً ، وقد ادخر بضعة آلاف من الدولارات في البنك لقلعة مصروفاته . فالمزرعة تطرد الخوف من نفسه نهائياً ، فينسى العزلة والوحدة . كان يزرع الأشجار ذات الثمار الشهية ، وخاصة التوت والكرمة المظلة لجانبى طرق المزرعة . وكان « بات » يبيع محصول « التوت » قبل أى مزرعة أخرى في الوادى .

لما جاء « مونرو » إلى الوادى كان فى الأربعين من عمره ، وقد رَحَّبَ بهم كثيراً كجيران ، فهو بيت جديد يمكنه أن يقضى فيه أمسياته ، وخاصة أن « بيرت مونرو » كان رجلاً بشوشاً ، فأخذ « بات » يتردد عليه ، وكان « بيرت » يستشير « بات » فى أمور الزراعة ، ولم يتنبه « بات » لماى مونرو ، تلك الفتاة الجميلة ، لأنه لا يتطلع إلى الناس سوى من منظور فك وحدته ، وطاردٍ للأشباح فى داخله .

وفى مطلع الصيف - وذات أصيل - بينما كان « بات » يعمل فى كرم التوت والعليق ، انحنى يحفر بين جذور شجيرات العليق التى كانت تنمو بسرعة ، غير عابىء بهبوط الليل ، فقد كان مدعوً على العشاء فى بيت « مونرو » ، ومع هذا سمع أصواتاً تتناهى إليه من الطريق ، عرف أنها السيدة « مونرو » وابنتها « ماى » ، وفجأة سمع « ماى » تصيح بإعجاب :
- أُمِّى . . تطلَّعى إلى هذه . . أرايت فى حياتك مثل هذه الخميطة الجميلة ؟ !

فأجابتها الأم :

- حقاً . . أنها رائعة !

وواصلت « ماى » :

- تذكرتُ الآن بماذا تذكرنى . . إنها مثل البطاقة البريدية التى تحمل صورة بيت بديع من بيوت ولاية « فيرمونت » . البطاقة التى أرسلها العم « كيلر » ، وهذا البيت بالخميلة يشبه بيت الصورة ، وكم أهوى أن أرى ما بداخله .

- لا أملُ فى ذلك . . فالسيدة « آلن » تقول : إن أحداً من أهل الوادى لم يدخل البيت منذ وفاة والد « بات » ووالدته منذ عشر سنوات . ولم تقل السيدة « آلن » إنَّ داخلَ البيت بديعٌ .

- لا بد أن يكون بديعاً كخارجه خاصةً بيت تُزينه مثل هذه الخميلة ، وأتمنى أن يدعونى السيد « بات » لأراه يوماً .

ابتعدت « ماى » وأمها عن مدى السمع ، وتوارتا عن الأنظار ، فنهض « بات » وتطلع إلى الخميلة الجميلة ، فلم يكن يراها كذلك ، وقال لنفسه :

- بيت بديع . . ويشبه بيتاً جميلاً من بيوت « فيرمونت » . . وخميلة جميلة .

وتراءت له صورة الردهة الكريمة ، فعاد بسرعة إلى عمله بين شجيرات التوت والعليق مُحاولاً إبعاد صورة البيت عن ذهنه .

لكن كلمات « ماى » كانت تتردد فى ذهنه من جديد : « لا بد أن يكون بديعاً » . .

وتساءل « بات » عن بيوت « فيرمونت » من الداخل ، فهو يعرف بيت « جون هويتسايد » الفخم القوي ، كما يعرف بقية بيوت سكان الوادي ، وكم أعجب بخمائل الزهور في حديقة بيت « بيرت مونرو » ، ولكن عينيه لم تقعا على بيت بديع ، أو يمكن القول بأنه بديع .

وراجع في ذهنه صور بيوت عرفها فلم يرَ بينها البيت الذي لا بد أن تكون « ماي » قد قصده . . وتذكر صورة رآها في مجلة لغرفة ذات أرض مصقولة ، وأثاث خشبي أبيض ، وهي لا بد لبيت في « فيرمونت » . . أعجب بتلك الصورة ، ولعلها تلك التي قصدها « ماي » .

تمنى لو تمكن من رؤية البطاقة البريدية التي تحمل صورة بيت « فيرمونت » ، ولكنه خشى أن يعلم « آل مونرو » أنه كان يسترق السمع إلى حديث السيدة « مونرو » وابتها إذا طلب رؤية البطاقة .

كان يفكر وهو يمتلىء بالحماس لرؤية بيت بديع يشبه بيته ، فأخذ يمشى أمام منزله .

الخميلة رائعة حقاً ، فهي تسدل خيمة خضراء تظلل المصطبة كما تظلل النوافذ المغلقة بوشاح من النجوم البيضاء . . عجب « بات » كيف أنه لم يلحظ ذلك من قبل .

في تلك الليلة فعل شيئاً لم يكن بإمكانه أن يفكر في عمله ، فقد توجه إلى بيت « آل مونرو » واعتذر عن عدم تمكنه قضاء السهرة عندهم ، مبرراً ذلك بقوله :

- لَدَيَّ بعض العمل الذي يقتضى منى الذهاب إلى « ساليانس » وإلاَّ تعرضت لخسارة مالية .

وعندما وصل إلى « ساليانس » اتجه فوراً إلى المكتبة العامة وسأل :

- هل لديكم صورة عن بيوت « فيرمونت » . . البيوت البديعة ؟
ربما تجد بعضها في المجلات . . تعال فسأريك أين تبحث عنها .

اضطر موظفو المكتبة إلى تنبيهه عندما كانوا على وشك إغلاقها ، فقد استغرق في البحث ، ولكنه وجد صوراً تمثل مداخل البيوت . . كانت الغرف مبنية بشكل جمالي ، فكل قطعة زينة وكل قطعة أثاث والأرضيات والجدران تؤلف وحدة منسجمة فيما بينها تتجاوب في أعماقه مع الصور بترتيبها ألوانها وخطوطها .

لم يكن يعلم أن الغرف هكذا ، تؤلف وحدة متكاملة ، ووراءها فكرة .

وقبل أن تغلق المكتبة أبوابها وقع على صورتين متجاورتين ، إحداهما تمثل غرفة يعرفها ، والثانية تمثل غرفة مختلفة .

واشتاق « بات » إلى الذهاب إلى البيت لأول مرة ، ليتمدد في فراشه هو يفكر .

لم يتمكن « بات » من النوم ، فنهض وأشعل المصباح ليتفحص رصيده المصرفي . وقبل أن يطلع الصباح ارتدى ثيابه وأعد إفطاره ، ونظر إلى الغرفة وإلى بابها الموصود ، فبرقت عيناه لحظة وهو يقول لنفسه :

- سيكون داخل البيت مظلماً ، والأفضل أن أفتح نافذة عى مصاريعها .

وعندما بزغ ضوء النهار أخذ عتلة فتح بها النوافذ على اتجه إلى المطبخ قائلاً :

- لن تستمر أكثر من لحظة ، فسأفتحه أيضاً .

وهوى بالعتلة على القفل فحطمه فسقط الباب ، وظهرت الغرفة كئيبة ،
كان جوها معكراً بأعشاش العناكب ، ورائحة كريهة تهب من الكرسيين
اللذين على جانبي الموقد الصديء .

اندفع بسرعة عبر الغرفة ليزيح أعشاش العنكبوت .

كانت الردهة مظلمة ، لأن مصاريع نوافذها كانت مغلقة ، ولكن
« بات » يعرف مكان المائدة منذ عشرة أعوام ، رفع المائدة والكتاب المقدس
معاً ، ولكنه اضطر لاستخدام العارضة الحديدية في فتح نوافذ
الردهة ، وألقى بالأثاث والسجاد ، ورش الماء على الجدران والزوايا ، وجمع
الأثاث كله وأضرم فيه النار ليحترق دون دخان ، ولم يتصاعد اللهب إلا
بعد أن صبَّ كمية من الجاز ، ففرقت الكراسي ، وأخذ « بات » يرقب
الموقف بغبطة ، وصاح يُخاطب قطع الأثاث المحترقة :

بودك لو بقيت سنوات وسنوات ! تصورت أنني لن أحرقك ، سترين ما
سأفعله بالمتاع الكريه .

احترقت السجاجيد الخضراء وخلفت جمرًا متوهجًا ، وتمشمت الأواني
والزهوريات وتناثرت ، و « بات » يرقب ويميز أزيز سوائل الأدوية وهي تغلي
وتفور . شعر بأنه يشرف على عدو يلفظ أنفاسه ، فلم يترك الكومة إلا بعد
أن اكتمل احتراقها ، وتحولت إلى جمر مبعثر . وكانت جدران الردهة قد
تشبعت بالماء بحيث وقع الورق .

بعد ظهر ذلك اليوم قاد « بات » سيارته إلى « ساليانس » واشترى جميع
ما وجده من المجلات الخاصة بزخرفة البيوت . وفي المساء - بعد العشاء -

بدأ يقلب صفحاتها إلى أن وجد في إحداها صورة غرفة بالغة الكمال . ورأى أنه يستطيع أن يعد مثلها بسهولة بعد فتح غرفتي الصالون والاستقبال ، فيحصل على غرفة طولها ثلاثون قدماً ، وتدهن الأرضية ، فقال في نفسه :

- سأبدأ غداً .

واستوقفه خاطر آخر . . إنها تظن أن الغرفة جميلة ، ولا أستطيع أن أعدها الآن وإلاّ ستعرف أنني سمعتها ، وعلىّ أن أفعل هذا في الخفاء .

ضحك « بات » وقال :-

- سأقوم بالعمل ليلاً .

سعد بفكرة تغيير البيت سرّاً ، فهو يستطيع العمل وحده دون أن يشعر به أحد ، وعندما ينتهى يمكنه أن يدعو البعض حتى يتصوروا أن البيت كان دائماً هكذا . وهكذا نظم حياته .

إنه يعمل في المزرعة نهاراً ، وفي الليل يهرع إلى البيت يملؤه شعور بالغبطة . كانت صورة الغرفة الكاملة معلقة في المطبخ ، وكان ينظر إليها عشرين مرة في اليوم ، وكان وهو يبني قاعدة النوافذ ويضع الورق الرمادى ويطلق قطع الأثاث الخشبية يرى صورة الغرفة وقد اكتملت .

وكان يقود سيارته إلى « ساليانس » إذا احتاج إلى أدوات ومواد في أثناء الليل ، ويستمر في عمله حتى منتصف الليل ، ويذهب إلى فراشه مبهوراً سعيداً .

افتقده سكان الوادى في اجتماعاتهم . وسألوه في المخزن عن سبب تغيبه ، فكان العذر جاهزاً :

- إننى أتلقى بعض الدروس بالمراسلة ، وأمضى الليل فى الدراسة .
كانوا يقابلون هذا القول بابتسامة ، فهم يعلمون أنه لا يطبق الوحدة .
- ماذا تدرس يا « بات » ؟
- ماذا ؟ . . إننى أتلقى دروسًا فى البناء .
- يجب أن تتزوج يا « بات » . . إنك تتقدم فى العمر .
فيغضب وهو يقول :
- كَفَى سَخْفًا .

وكان فى أثناء عمله يتخيل أن الغرفة اكتملت بوضع الأثاث ، والمدفأة
تشتعل ، ويقول فى نفسه

- سأذهب إلى بيتها وأفاجئها بالقول : سمعت أنك تُحِبين بيوت
«فيرمونت» . . لا . . لا . . لا أستطيع أقول ذلك ، بل سأقل : هل
تُحِبين بيوت «فيرمونت» ؟ حسنًا ، لدى غرفة من نوع غرف «فيرمونت» .
ولكنه لم يرض بهذا القول ، فلم يكن قد اهتدى بعد إلى الطريقة المثلى
لإغرائها بالمجىء إلى بيته . فانتهى إلى شطب هذا الجزء على أن يعود إلى
التفكير مرة أخرى :

« إنها الآن تدخل المطبخ الذى لم يتغير ، حتى تكون مفاجأة الغرفة
أعظم ، وستقف أمام الباب الذى سيُفتح على مصراعيه . . الغرفة مظلمة ،
ولكن بها بعض الأضواء الخافتة ، فى حين تتوهج النيران كجدول عريض ،
وتنعكس المصابيح على الأرض ، وكذلك تتوهج الأوانى القصديرية مع
قطع الزينة ، فينبعث الشعور بالدفء والراحة » .

امتلاً صدر « بات » بالسعادة وهو يتصور ما سيحدث ، وأخذ يستكمل تصوره : « إنها تقف الآن على الباب ، ولن تقول شيئاً ، وقد تشعر بميل إلى الصباح ، وقد تقف دقيقة أو دقيقتين مكتفية بالتطلع ، ثم أقول لها : ألا تودين أن تدخل وتستريح قليلاً ، فتبدأ في الكلام عن الغرفة بعبارات متقطعة مضحكة ، ولكنني سأتغاضى عن ذلك ، فأقول لها : إنني أحببت دوماً هذه الردهة ، لقد خطر ببالي أنك ستحيين أن تريها يوماً . ثم أختتم ما يمكن أن يحدث بهذا الوصف ، وتجلس « مائى » على المقعد المائل الظهر أمام المدفأة ، وتضع يديها الجميلتين الريانتين في حضنها ، وقد حلت في عينها نظرة شاردة » .

لم يصل « بات » إلى أكثر من ذلك ، فقد عاد إلى وعيه .

بعد ثلاثة أشهر انتهت الغرفة ، ووضع « بات » صورة المجلة في محفظته ، وذهب إلى « سان فرانسيسكو » ، وفي مكتب الأثاث نثر الصورة على المنضدة هو يقول :

- أريد أثاثاً كهذا .

- لا تعنى بالطبع الأصل .

- ماذا تعنى بالأصل ؟

- القطع الأثرية القديمة ، فلا يمكن الحصول عليها بأقل من ثلاثين ألف دولار . أسقط في يد « بات » ، وبداله أن غرفته قد انقرضت ، فقال :

- لم أكن أعلم .

ولكن المدير طمأنه قائلاً :

- نستطيع أن نزودك بنسخ جيدة .

- هذا جميل . . كم ستكلف النسخ المنقولة ؟

- زهاء ثلاثة آلاف دولار .

- أطرق بات مفكرًا في مسألة اقتصاد النقود .

- ومتى يمكن إرسالها ؟

كان ينتظر إشعار وصول الأثاث إلى « ساليناس » ، فمسح الغرفة حتى لمعت كبحيرة ساكنة . وأخيرًا وصلت قطع الأثاث إلى مخزن الشحن ، فقام بأربع رحلات سرية أثناء الليل إلى « ساليناس » .

فك « بات » صناديق الأثاث في المزرعة ، حمل الكراسى والطاولات ورتبها في أماكنها مقلدًا الصورة . وفي تلك الليلة كانت النار تشتعل ، والمصابيح تعكس ضوءها على الأرض ، وبدا النمر المنسوج على البساط المعلق فوق المدفأة كمن يرتعد في ضوء اللهب المتراقص .

ذهب « بات » إلى المطبخ وأغلق الباب ، ثم فتحه ببطء وأخذ يتطلع إلى الغرفة التي كانت تشع بالدفء . . . وبدت الأواني القصديرية المتلألئة أفخم مما كان يظن ، في حين كانت أطراف الأطباق المصفوفة في الخزانة المكشوفة تعكس نجيمات من النور ، وللمحظة وقف بات عند مدخل الباب يحاول أن يكسب صوته الرنة الملائمة .

- كم أحبيتها دائمًا !

قالها « بات » ثم استطرد متخيلاً :

- لقد خطر على بالي بأنك قد تحبين أن تربيها .

ثم أطرق وتوقف ، فقد ألمَّ به خاطر مفرع (إنها لا تستطيع أن تأتي

وحدها إلى بيت رجل أعزب في الليل ، فألستة الناس طويلة ، ثم إنها لن تفعل ذلك) .

أُصِيبَ بخيبة أمل مريرة . . يجب أن تأتي أمها معها ، ولكنها قد تعرقل الخطة بوقفها في الخلف .

أصبح « بات » مستعداً للأمر فيما عدا هذا الشعور الذي أوقفه . . وتوالت عدة أيام فكان المساء يطوى النهار وهو يُرجىء دعوتها للحضور ، ومع هذا أخذ يستمر في رسم التمثيلية متخيلاً أين ستقف ؟ وماذا ستقول ؟ انقضى أسبوع وهو لا يزال يرجىء الزيارة التي ستؤدي إلى مجيئها لرؤية الغرفة ، وذات أصيل ، استجمع شجاعته وقال لنفسه :

- لا أستطيع أن أرجىء الأمر إلى الأبد ، والأفضل أن أذهب الليلة .

بعد العشاء ارتدى أفخر ما عنده واتجه نحو بيت « مونرو » الذي لم يكن بعيداً ، لن يدعوها الليلة ، فالنار يجب أن تكون مشتعلة والمصابيح منيرة عند قدميها ، في حين أن الليلة باردة ، والظلام حالك . شق « بات » طريقه وسط الغبار ، وتصور باستياء كيف سيبدو حذاؤه المصقول .

كان بيت « مونرو » يشع بأضواء كثيرة ، وأمام البوابة وقفت سيارات عديدة ، فتساءل « بات » :

- أهو حفل راقص ؟ إذاً أدعوها في ليلة أخرى ، فلن أستطيع ذلك في حضرة الناس .

وللحظة تردّد في العودة ، وقال في نفسه :

« قد يبدو الأمر سخيفاً إذا دعوتها في أول مرة أراها فيها ، بعد عدة شهور ، فقد يساورها الشك » .

وعندما وصل إلى البيت أمسكه « ببرت مونرو » من يده هاتفاً :

- « بات همبرت » ! أين كنت مختفياً يا « بات » ؟

- كنت أدرس ليلاً .

- من حسن الحظ أنك أتيت ، فإننى كنت أنوى أن أمر بك غداً . .

لا شك أنك سمعت الأنباء .

- أى أنباء ؟

- ماذا ، « ماى » و « بل هوايتسايد » سيتزوجان يوم السبت المقبل ،
وكنت أنوى أن أطلب منك المساعدة فى حفل الزفاف إنه سيقصر على
الأهل وتقديم المرطبات ، فأنت تساعد فى الحفلات المدرسية .

وأمسك بذراع « بات » وحاول أن يقوده إلى حيث تنطلق أصوات كثيرة
من الغرفة الكائنة فى نهاية القاعة .

قاومه « بات » بحزم وقال :

- رائع يا « مستر مونرو » ، هل قلت يوم السبت المقبل ؟ بالطبع
تسعدنى مساعدتكم ، ولكننى لن أستطيع البقاء الآن ، يجب أن أعود إلى
المخزن حالاً .

صافحه ثانية وسار متجهاً نحو الباب .

وفى غمرة شقائه وتعاسته ود لو يختفى لبرهة ، أو يلجأ إلى جحر مظلم
لا يراه أحد . وكان طريقه باتجاه بيته ، ذلك البيت المظلم الذى تركه مقفراً
كثيباً ، فاتجه إلى مستودع الغلال وصعد بخطوات وثيدة السلم القصير ،
واضطجع على اليمين ، وقد تقلص ذهنه وأجذب بفعل خيبة الأمل ،

وشعر بأنه قبل كل شيء لا يرغب في الدخول إلى البيت ، فلقد خشى أن
يقفل الباب مرة أخرى ، وأن تدخل روحا والديه في الغرفة الجميلة أو في
المطبخ لتسكنا فيهما ، أدرك أنه لن يحتمل نظرتها وهما يحدقان بالنار !



عندما وصل « ريتشارد هوايتسايد » إلى الغرب الأقصى من أجل أعمال التنقيب عن الذهب ، تخلّى عن هذا الهدف قائلاً :

- الأرض لا تُعطى إلاّ محصولاً واحداً من الذهب ، فإذا اقتسمه ألف فإنه لن يكفي أحداً منهم زمناً طويلاً ، إذاً هي تجارة خاسرة .

طاف « ريتشارد » هضاب « كاليفورنيا » وسهولها وفي مخيلته عزم أكيد على تأسيس بيت لأولاد لم يأتوا بعد ، ولأحفاد لا يزالون في عالم الغيب ، ولم يكن وقتئذ إلاّ قليل من الناس في « كاليفورنيا » يشعرون بمسئولية تجاه ذريتهم .

وفي مساء يوم صحو قادم عربته بجواديهما إلى أعالي الهضاب المحيطة بمراعى الفردوس ، فأوقف عربته وأخذ ينظر إلى الوادى الأخضر ، وهنا عرف « ريتشارد » أنه وجد بيته المنشود ، فكان قد مر أثناء تجواله في شتى أنحاء البلاد بالكثير من البقاع الجميلة دون أن تبعث أى منها في نفسه هذا الشعور بكمالها . تذكّر المستعمرين في أثينا ومكدونيا وهم يبحثون عن أرض جديدة وصفتها لهم النبؤات الغامضة ، وتخيل أفراد شعب الأزيك يتهادون وراء نسرهم الهادى ، فحدّث نفسه قائلاً :

- ثمّة بشير بأن الأمر سيبلغ حد الكمال ، وهذا هو المكان المنشود الذى
يمكننى أن أحدث أولادى عنه .

رفع بصره إلى السماء فرآها خالية من الغيوم والطيور . وهبت نسبات
المساء على الهضاب فارتجفت أغصان السنديان وكأنها تشير بحذر إلى
الوادى ، فى حين حمل إعصاراً صغير على سفح الهضبة بضعة من أوراق
الشجر وتقاذفها إلى الأمام ، فضحك «ريتشارد» قائلاً :

- ما هو الجواب ؟ إن مدناً عظيمة تأسست من الآلهة ليست أكثر وضوحاً
من هذه .

ترجّل «ريتشارد» من العربة بعد برهة ، وحلّ جواديه اللذين توجهتا
لتوهما بخطى وئيدة إلى العشب الكثيف النبات على حافتي الطريق ،
فتناول «ريتشارد» عشاءً من اللحم المقدّد والخبز ، ثم فرد ملاءته فوق
العشب على سفح التل . وما إن تكاثف ظلام الغسق الأغرّ فى الوادى
حتى استلقى على فراشه يحدق بمراعى الفردوس التى ستصبح موطنه .
لقد وقع اختياره فى الجهة القصى قرب حرش من السنديان على بقعة
جميلة ، تقوم خلفها هضبة صغيرة ، ينحدر على سفحها أخدود صغير لم
يشك فى أنه ساقية . .

كانت جيوش الليل تهزم ما تبقى من فلول العسق الخافتة الضوء عندما
حانت من «ريتشارد» التفاتة نحو الوادى ، فرأى بيتاً جميلاً أبيض اللون
تمتد أمامه حديقة أنيقة مزهرة ، ولمح البرج الأبيض لخزان المياه . . وفى البيت
كانت النوافذ تشع بأضواء صفراء خافتة . . أضواء النواصات التى تهدى
الضيوف ، وتدل على أن البيت مضياف . وانفتح باب المنزل فخرج منه

جَمَعَ من الأولاد إلى الشرفة يحدقون في الظلام المتكاثف ، ووجَّهوا أبصارهم بنوع خاص إلى التل حيث كان « ريتشارد » مستلقياً على مُلاءته ، وبعد برهة عادوا فدخلوا المنزل وأغلقوا الباب خلفهم . . ومع انغلاق الباب غاب البيت والحديقة وخزان القصدير الأبيض من أمام « ريتشارد » ، فتنهد بغبطة واستلقى على ظهره محدقاً بالنجوم المتراقصة في السماء .

ظل « ريتشارد » أسبوعاً يطوف بشراسة في أنحاء الوادى ، ثم ابتاع مائتين وخمسين فداناً في « مراعى الفردوس » ، وذهب إلى « مونثيرى » لتسجيل صكِّ ملكيتها ، وعندما تأكد من أنها أصبحت ملكاً له قام بزيارة مهندس معمارى واستغرقت أعمال البناء وتأثيث البيت وحفر البئر وبناء برج الخزان ستة أشهر كاملة ، وظل العمال يعملون في مزرعة « هوآيتسايد » طيلة السنة الأولى من امتلاكه للأرض . غير أن هذا الإجراء أقلق أحد الجيران ، فقصده إلى المالك الجديد قائلاً :

- هل تنوى يا سيد « هوآيتسايد » أن تأتى بأسرتك ؟

فأجاب « ريتشارد » :

- ليس لى أسرة ، فوالداى قد توفيا وليس عندى زوجة!

- لماذا إذاً تبنى بيتاً كبيراً كهذا ؟

تجهم وجه « ريتشارد » بالعبوس وهو يقول :

- سأعيش هنا ، لقد جئت لأبقى ، وسيسكن أولادى وأحفادى وأولادهم فى هذا البيت . كثيرون من « آل هوآيتسايد » سيولدون هنا ، وسيموت الكثير منهم هنا . وسيبقى هذا البيت صالحاً قائماً مدة لا تقل عن الخمسمائة عامٍ إذا ما لقى العناية اللازمة .

فقال الجار :

- لقد فهمت ما تعنى ، ويبدو الأمر عظيماً ، غير أننا لا نعيش هنا حسب هذه الطريقة ، فنحن نبني كوخاً صغيراً نضيف إليه البناء إذا غَلَّتِ الأرض ربحاً ، فليس من المستحسن إنفاق الكثير من النقود في مكان واحد ، إذ قد نودُّ الانتقال منه يوماً .

فصرخ « ريتشارد » :

- لا أريد الانتقال ، ولهذا ترانى أقوى البناء ليحول دون ذلك ، سأبنى كياناً من القوة بحيث لا أستطيع أنا ولا ذريتي الانتقال منه . وزيادة في الحيلة فأدْفَنُ هنا عندما أموت ، لأنه يصعب على الناس أن يهجروا مدافن الآباء .

وانفجرت أسارير وجهه وهو يستطرد :

- ألا ترى أيها الرجل ما أصنع ؟ إننى أؤسس سلالة جديدة ، إننى أبني عائلة ومقرّاً لعائلة لن يبقيا إلى الأزل ، ولكن سيبقيان عدة قرون على الأقل ، يسرنى أن أعرف - وأنا أبني هذا البيت - أن ذريتي ستسير على أرضه ، وأن أطفالاً لم يُولدوا بعد أجدادُ أجدادهم سيولدون فيه ، سأزرع بذرة التقاليد مع البيت .

كانت عينا « ريتشارد » تلمعان وهو يتكلم ، وأصوات فطارق النجارين ترافق كلماته وكأنها تبرز قوتها .

اعتقد الجار أنه يُحَدِّثُ مجنوناً ، ولكنه أحس بنوع من الإجلال نحو هذا النوع من الجنون ، وود لو حيّاه بطريقة ما ، فلو لم يكن أمريكياً لرفع أصابعه

إلى طرف قبعته ، فقد كان لهذا الجار ابنان يحتطبان على بُعد ثلاثمائة ميل من منزله ، ابنة متزوجة في ولاية « نيفادا » فَشَمَل العائلة قد تفرق قبل أن يبدأ .

بنى « ريتشارد » بيته من الخشب الأحمر الذى لا يهترىء مقتبساً طراز البيوت من « نيو إنجلند » الجميلة ، وكتحية لمناخ « مراعى الفردوس » احاط البناء كله بشرفة واسعة ، وصنع السقف من الخشب مؤقتاً حتى تصل الباخرة من « بوسطن » وهى تقل شحنة البلاط اللازم لبناء السقف المتين . خلع « ريتشارد » ألواح الخشب واستبدل بها البلاط الشرقى ، فقد كان للسقف أهمية رمزية كبرى عند « ريتشارد » ، فى حين كان قبلة أنظار سكان الوادى وموضع فخرهم ، ولهذا فإن السقف جعل من « ريتشارد » المواطن الأول فى الوادى ، فالرجل قوى ثابت كيبته ، لا ينوى أن يهرع إلى أى منجم ذهب جديد ، ولماذا يفعل وسقف بيته من البلاط ؟ أضف إلى ذلك أن الرجل مثقف وخريج جامعة « هارفارد » ، وهو ثرى أيضاً ، وله من الإيمان ما جعله يبني بيتاً كبيراً فخماً فى الوادى . إنه خليق بأن يحكم الأرض ، فهو رب عائلة ومؤسسها ، وسقف بيته من البلاط . ويسبب سقف البلاط هذا زاد اعتبار « مراعى الفردوس » فى أعين الناس . ولو كان « ريتشارد » تساوره الرغبة فى الوجاهة لكان بناء سقف بيته من البلاط أعظم توفيق يحقق مراده ، فقد كان يلمع تحت المطر المنهمر، ويسطع كالمرآة تحت الشمس .

أخيراً تم بناء البيت ، وبدأ عاملان فى تهيئة الأرض للبذور ، فى حين كان قطيع صغير من الماشية يرعى العشب الأخضر على حافة التل وراء البيت .

علم « ريتشارد » أن استعداداته قد اكتملت ولم يبق عليه سوى الزوجة ،

وعندما وصلت رسالته رسالة من صديق تربطه به قرابة بعيدة يقول فيها إنه وصل مع زوجته وابنته إلى « سان فرانسيسكو » وأنه يسعده أن يراه ، أدرك أنه ليس بحاجة لأن يبحث بعد ذلك عن الزوجة المنشودة ، فقد عرف قبل سفره إلى « سان فرانسيسكو » أنه سيتزوج تلك الابنة فهي ملائمة له تماماً ، فالدم الذى يربط بينهما بعيد ولن يسىء إلى ذريتهما .

وعلى الرغم من أنها قضيا المعاشرة الطبيعية قبل الخطبة ، فقد سويت المسألة بمجرد لقاءهما ، كانت « أليسيا » سعيدة بأن تتخلص من سيطرة والدتها وبأن تبدأ إمبراطورية منزلية خاصة بها . لقد شيد البيت من أجلها ، فلم يمضِ أربع وعشرون ساعة على وجودها فيه حتى كانت قد فرشت رفوف المثونة بالأوراق ، تماماً بطريقة والدتها « ريتشارد » .

أدارت « أليسيا » البيت بالطريقة القديمة المريحة التى لا تتغير بدورانها وتوقيتها ، الغسيل يوم الاثنين ، والكفى الثلاثاء ، وتنظيف السجاد مرتين فى العام ، وإعداد المربات والمخللات كل خريف .

وسرعان ما ازدهرت المزرعة ، فازداد عدد الغنم والبقر ، ونمت الزهور والورود فى الحديقة ، وأشرقت « أليسيا » على أن تضع مولودها الأول .

كان « ريتشارد » يعلم أن كل هذا سيحدث ، فقد توطدت السلالة التى حلم بها ، واصطبغت مداخن البيت ببعض البقع السوداء ، وكانت المدفأة فى غرفة الصالون تملأ البيت من الدخان المتضوع برائحة خشب البخور ، فيحين تحول لون غليونه الذى أهدها إليه حماء من لون أبيض ناصع إلى أصفر قاتم . عامل « ريتشارد » زوجته أثناء انتظار الطفل برفق كما يعامل المريض تقريباً ، فعندما كانا يجلسان مساءً أمام المدفأة كان يلف

قدمها ، وكان أشد ما يخيفه هو أن يحدث لها مكروه أثناء الحمل ، وكانا يتكلمان عن الصورة التي يجب أن تتأملها أثناء الحَمَل - «الوحم» - لتؤثر في مظهر الجنين ، وهياً لها مفاجأة ، إذ أرسل إلى « سان فرانسيسكو » طلب نسخة برونزية صغيرة عن تحفة « ميكاييل أنجلو » .

وعلا الاحمرار وجه « أليسيا » وهي ترى التمثال ، ولكنها سرعان ما أولعت به ، فكانت تضعه على المائدة الصغيرة قرب فراشها عند النوم ليلاً ، أما أثناء النهار فكانت تنقله معها من غرفة إلى غرفة وهي تقوم بترتيبها ، وتضعه مساء على رف المدفأة في غرفة الصالون . وكثيراً ما ابتسمت ابتسامة اللهفة وهي تتأمل أعضاءه المتناسقة القوة ، فقد كانت واثقة من أن طفلها سيكون مثله تماماً .

جلس « ريتشارد » قُربها وهو يربت يَدَها . كانت تحب أن تشعر بيده ترف فوق راحتها بثبات دون أن تدغدغها ، وحدثها بهدوء :

- قد زالت اللعنة عنا . . أتعرفين يا « أليسيا » أن أهلي وأهلك عاشوا في زمان مَضَى في منزل واحد لمدة ١٣٠ عاماً ؟ لقد أخبرني والدي ذات مرة أن ٧٣ طفلاً وُلِدوا في ذلك البيت ، وأن العائلة بقيت تنمو وتزداد حتى زمن جدي ، فقد كان والدي طفلاً وحيداً . وكنت أنا الطفل الوحيد في العائلة ، مما سبب تعاسة لوالدي ، فتوفي وهو في الستين من عمره . . ولما بلغت الخامسة والعشرين لم أكن قد بدأت أحيا ، احترق بيتنا الريفى دون أن أدري سبباً لنشوب النار فيه .

وضع يدها برفق كما لو كانت حيواناً ضعيفاً ضئيلاً على ساعد المقعد ، ثم قام إلى المدفأة وأعاد جمرة كبيرة سقطت إلى أرضها ، وأمسك من جديد

بيد زوجته . فتوجهت « أليسيا » بابتسامة إلى التمثال فوق المدفأة وأكمل «ريتشارد» حديثه بصوت رقيق أجش ، كما لو كان يأتي عبر تلك الأزمنة السحيقة .

وعلى مر السنين أصبح بإمكان « أليسيا » أن تعرف من حركة رأسه وتعبير وجهه ورنه صوته أنه سيتكلم عن الأزمنة القديمة . فزمن « هيرودوت » و«كزينوفن» و «توسيدايدس» كانت من خصوصياته ، في حين كانت بالنسبة لأهل الغرب الجهلاء جديدة ، وكأنه ابتدعها بنفسه .

كان يعيد قراءة حروب الفرس ، حرب طروادة وغيرها مرة كل عام . .
ومر بيده على راحة « أليسيا » بشيء من الحزم هذه المرة وهو يقول :

- عندما كانت المصائب تتوالى على مدينة ما في الأزمنة القديمة كان أهل المدينة يعتقدون أن اللعنة حلت بهم ، أو أن آلهة قد صَبَّتْ جامَ غضبها فوقهم ، لذلك كانوا يضعون كل ممتلكاتهم المنقولة في السفن ويبحرون بحثاً عن مكان جديد ليشيدوا فيه مدينة جديدة ، تاركين مدينتهم القديمة خاوية خالية مفتوحة لمن يريد أن يأخذها .

وقالت « أليسيا » مقاطعة :

- هَلَّا أعطيتني التمثال يا « ريتشارد » فإنني أشعر أحياناً بميل لحمله بيدي .

قفز « ريتشارد » فوضع التمثال في حضنها ثم استطرد :

- اسمعى يا « أليسيا » . . لم يُولد في العائلة قبل أن يحترق البيت غير طفلين خلال جيلين . . لذلك وضعتُ كل ممتلكاتي في سفينة وابتحرت غرباً لأؤسس بيتاً جديداً . إنكِ تعرفين أنني أضعتُ بيتاً استغرق بناؤه ١٣٠

سنة ، وما كان بوسعى أن أعوضه ، فقد كان بناءً بيتٍ جديد فوق تلك الأرض القديمة مؤملاً جداً بالنسبة لى . وعندما رأيت هذا الوادى عرفت أنه سيكون مقر العائلة الجديد ، وهاهى ذى الأجيال تتكون لتطل علينا ، إننى سعيد حقاً يا « أليسيا » .

ضغطت بيدها على يده ، وكانت سعيدة لأنها تمكنت من إبعاده .

وفجأة قال لها :

- لا بل كان ثمة فأل عندما وصلتُ الوادى أول مرة ، لقد سألت إذا كان هذا هو المكان المنشود . هل أحدثك الآن بقصة الفأل بقصة أول ليلة لى فوق التل ؟

أجابت :

- أخبرنى بها مساء الغد ، فمن الأفضل أن آوى إلى فراشى الآن . انتصب واقفاً وساعدها على الوقوف ، فأرخت بثقلها على ذراعه بشدة وهو يعينها على صعود السلم وهو يقول :

- هنالك شىء روحانى خفى فى هذا المنزل ، شىء عجيب حقاً يا « أليسيا » ، فهو الروح الجديدة ، روح هذا المولود الأول فى الجيل الجديد .

قالت « أليسيا » :

- سيكون الولد صورة من التمثال الصغير .

ولما رتب « ريتشارد » الأغطية حولها خوفاً من أن تُصاب بالبرد عاد إلى غرفة الصالون . كان بإمكانه أن يسمع أصوات الأطفال تملأ البيت وهم

يهبطون الدرج ويصعدون متعثرين بأقدامهم المتلصصة يعبثون برماد المدفأة وينادى بعضهم بعضاً فوق الشرفة . . وقبل أن يذهب إلى فراشه حمل الكتب الثلاثة العظيمة ووضعها في أعلى رف من المكتبة .

كانت الولادة عسيرة . استلقت « أليسيا » بعدها فوق فراشها منهكة وقد اصفر وجهها عندما حمل لها « ريتشارد » طفلها ووضعها بالقرب منه ، فقالت بغبطة :

- نعم ، إنه يشبه التمثال ، كنت أعرف ذلك حقاً .

جلس الطبيب القادم من « مونتيري » قرب « ريتشارد » أمام المدفأة وقد قطب جبينه بكآبة وهو يحرك خاتمه حول بنصره ، في حين فتح « ريتشارد » زجاجة كونيكا وملاً كأسين قائلاً :

- سنشرب نخب ابني .

رفع الطبيب الكأس إلى أنفه يشم المشروب ثم قال :

- مشروب عظيم . . ولكن الأفضل لك أن تشرب نخب زوجتك
- طبعاً .

وشرباً معاً ، فاستطرد « ريتشارد » :

- النخب الثاني لا بني .

- اجعله لزوجتك أيضاً .

- فسأله « ريتشارد » متعجباً :

- لماذا ؟

فأجاب الطيب وهو لا يزال يشم رائحة المشروب :
- افعل كنوع من الشكر والوفاء فقد كدت تترمل .
وبلع « ريتشارد » الكونياك بجرعة واحدة ثم قال :
- لم أكن أعلم بذلك ، لم أعلم بحالتها . . كنت أعتقد بأن الولادات الأولى هي دوماً صعبة .

قال الطيب :

- اعطني قدحاً آخر .

واستدار الطيب قائلاً :

- لن يكون لك مزيد من الأولاد .

توقف « ريتشارد » عن صب المشروب وقال :

- ماذا تعنى بقولك هذا ؟ طبعاً سيكون لى المزيد من الأولاد .

- ليس من زوجتك هذه ، فإنها قد انتهت . فإذا ما كان لك منها ولد آخر فستترمل .

تسمر « ريتشارد » فى مكانه ، وتوقفت مناغاة الأطفال الرقيقة التى كان يسمعها تملأ أرجاء البيت خلال الشهر السابق ، وبدأ كمن كان يسمع أقداماً تسترق الخُطى بعيداً وهى تنزل الدرج .

ضحك الطيب بمرارة قائلاً :

- لم لا تسكر إذا كانت الصدمة شديدة عليك هكذا ؟

- لا . . لا أظن بأن فى وسعى أن أسكر .

- إذا أعطني قدحاً آخر قبل أن أذهب ، فالطريق بارد .

مضت ستة شهور قبل أن يخبر « ريتشارد » زوجته أنها لن تتمكن من إنجاب الأطفال . فقد أراد أن تستعيد قواها قبل أن تُصدم بالحقيقة ، وعندما صارحها كان يشعر بالإثم من كتمان السر . كنت تحمل الطفل وهى تنحنى من وقت لآخر لتلتقط بضمها إحدى أصابعه المرتفعة إليها ، كان الطفل ينظر إليها مبتسماً بعينين شاردتين ، وبيتسم وهو يمد أصابعه إليها لتمصها ، والشمس تملأ الغرفة ، وقد وصلت إليها من بعيد من أصوات العمال وهم يلعنون البقر بصوت رتيب . رفعت « أليسيا » رأسها وقد عبست قليلاً قائلة :

- ألا تظن أن وقت معموديته قد حان ؟

فوافق قائلاً :

- نعم وسأقوم بجميع الترتيبات فى « مونتيبرى » .

قالت مفكرة :

- أتظن بأن الوقت قد فات كثيراً لتغيير اسمه ؟

- لا لم يفت الوقت ، ولكن لماذا تريدون تغيير الاسم ؟ وما هو الاسم الذى تريدونه ؟

- بودى لو دعوته « جون » . ونظرت إليه راجية موافقته وهى تستطرد :

- وهو كذلك اسم والدى الذى سيسر حتماً لهذا الأمر . كما أنى لم أكن مرتاحة لتسميته باسم التمثال ، وإن كان تمثال داود الشاب . . أجل لم أرتح لذلك ، و خاصة أن التمثال عارٍ من الثياب و...

لم يحاول « ريتشارد » فهم منطقها هذا .

كانت « أليسيا » تبتسم ابتسامة فريدة مبهمة تحيّر في تفسيرها ، فشعر أنه مهما كان فقد تمكن من معرفة زوجته وأعماقها ، فستبقى هذه الابتسامة الحائرة نوعاً مبهماً يستعصى فهمه ، فقد كانت تخالطها مسحة من الحزن ، كما كانت مفعمة بحكمة خفية ، لقد شعر بأن هذه الابتسامة حجته عن النفاذ إلى أفكارها .

لقد احتمت « أليسيا » بهذه الابتسامة التي كادت أن تقول :

أيها الغبي إن معرفتي مقارنة بمعرفتك تجعلها مدعاة للسخرية . . ولس الطفل بأصابعها وجهها في حنان ، فأمسكت بأصبعها وقالت :
- انظر قليلاً ، فليس كل ما يقوله الأطباء مُسَلِّماً به . . انتظر قليلاً
سننجب أطفالاً آخرين يا « ريتشارد » .

خرج « ريتشارد » من الشرفة وجلس على درجات البوابة ، وشعر بأن الهدوء والسكون اللذنين كانا يسيطران عليه منذ دقائق قد اختفيا ، وأن الحياة تعود مرة أخرى إلى المنزل . كان عليه أشياء كثيرة يجب أن يؤديها . . فعليه أن يزرع ساحة الأعشاب ، وأن يعد مكاناً لنشر الملابس ، ومسح بيده على الإبريز كما لو كان يمسخ على رقبة حصان .

صارت عائلة « هويتسايد » هي العائلة الأولى في «مراعى الفردوس» ، فقد كان لديها مزرعة خصبة ، وعلى الرغم من أن هذه العائلة لم تكن ثرية . . فإنها لم تكن فقيرة أيضاً . . وهى مع ذلك تعيش في منزل فخم كان رمزاً للعائلة ، فهو واسع ، فخم بمقياس تلك الأيام ، دافئ ، أبيض ، ولقد أمده حجمه واتساعه بقيمة كبيرة ، بالإضافة إلى طلائه باللون الأبيض

اللامع الذى يُجَدِّد فى فترات متقاربة ، ممَّا جعله أفخر بيوت الوادى ، وبدا كقلعة من قلاع القرون الوسطى على نهر الراين .

أعجب أهل الوادى بالبيت ، وكان بالنسبة لهم رمزاً للقوة والسيرة الطيبة ، وكان مجرد النظر إلى هذا البيت يجعلهم يحسنون الظن بصاحبه «ريتشارد» ويطمئنون إليه ، وعلى الرغم من أن بعض جيران «ريتشارد» كانوا أغنى منه فإن أحدهم لم يفكر فى بناء منزلٍ مثله ، لمعرفتهم أنهم لن يستطيعوا مجاراته فى رعاية المنزل .

وبفضل هذا البيت أصبح «ريتشارد» حكماً فى المنازعات بين أهل الوادى ، مما أضفى بداخله شعوراً بالأبوة تجاه الوادى . . وأصبح يعتبر مشاكل الوادى مشاكله . . وبعد خمس سنوات عبرت «أليسيا» عن شعورها الداخلى بأنها قادرة على إنجاب طفل جديد ، فلما حدثت «ريتشارد» ، أبدى استعداداه باستدعاء الطبيب ، فأجابته «أليسيا» بأن أى سيدة تعرف عن نفسها أكثر من أى طبيب .

وقال «ريتشارد» فى نفسه : «إن فى النساء ذرَّةً من الشفافية وضعها الله فيهنَّ حتى يزداد النسل .»

مرت ستة أشهر من شهور الحمل قبل أن تمرض «أليسيا» مرضاً شديداً واستدعوا الطبيب . . كانت ساعة الوضع ساعة خيفة بالنسبة لريتشارد الذى جلس قابضاً على ذراعى الكرسي يسمع صرخات الألم القادمة من حجرة النوم ، وقد تلون وجهه باللون الرمادى الداكن .

توقف الصراخ بعد ساعات طويلة ، فظل «ريتشارد» قابضاً فى مكانه ، خائفاً من أن ينظر للطبيب وهو يقول متعباً : «هيا نشرب

نخبك . . لم تمت زوجتك والحمد لله برغم ما كانت تعانيه . . ولكن
الطفل مات . «

أراد الطبيب معاقبة « ريتشارد » لإهماله أوامره الأولى ، وتركه وخرج ،
فقد شعر الطبيب بأسف شديد تجاهه . . أصبحت « أليسيا » مقعدة !

لم يتمكن « جون » الصغير من تذكر أمه وهي مقعدة ، فقد ظل طوال
حياته يتذكر والده وهو يحملها صاعداً وهابطاً بها السلام . . ولم تكن
« أليسيا » تتكلم كثيراً . . ولكن ابتسامتها الغامضة كانت تنطق في عينيها . .
وعلى الرغم مما بها فقد أحسنت إدارة منزلها ، فكانت تحسن قيادة الفتيات
الريفيات الخشنات العاملات في المنزل . . وكانت « أليسيا » تقوم بترتيب
سريرها بنفسها ، وكذلك كانت من مقعدها أو سريرها تدير كل شيء .

وكان « ريتشارد » يحملها كل ليلة إلى فراشها ، وما إن تستلقى على
وسادتها البيضاء حتى يجلس بجوارها يربت راحتيها برفق حتى تستسلم
للنوم ، وكانت تسأله كل ليلة : هل أنت راضٍ يا « ريتشارد » عن حياتك؟
فيرد بالإيجاب ، ويقص عليها أخبار المزرعة والوادي ، وتظل الابتسامة
تكسو وجهها حتى تغمض جفنيها ، فيطفئ النور . وأصبح ذلك طقساً
يوميّاً . وبمناسبة بلوغ « جون » العاشرة أُقيم حفلٌ كبير حضره جميع أطفال
الوادي ، وقالت لهم « أليسيا » وهي تجلس في الشرفة :

- لماذا الهدوء يا أطفال ؟ هيا اجروا وامرحوا والعبوا .

ولكنهم لم يستطيعوا الركض والصراخ في منزل « هوايتسايد » ، كما
لا يمكنهم الضجيج والصخب في الكنائس ، وبعد أن طافوا بجميع غرف
المنزل نزلوا إلى الحظيرة ، حيث بدءوا في الصراخ ، وعلت أصواتهم ،

ووصلت إلى الشرفة ، فعلت الابتسامة وجه « أليسيا » التي سألت زوجها هذا الليلة : هل أنت راضٍ يا « ريتشارد » ؟ فأجابها : نعم . . فقالت له : « كل شيء مع الزمن سيكون على ما يرام . . فلا تقلق بشأن الأطفال » . . جون في العاشرة ، وبعد عشر سنوات أخرى سيتزوج ، عَلَّمَهُ كُلُّ ما تعرف ، فالعائلة في أمان يا « ريتشارد » .

طبعاً أعرف أن البيت في أمان . سأقرأ عليه كتب « هيرودوت » ، فقد كبر بما فيه الكافية .

- على « ميرتل » أن تنظف جميع غرف الضيوف غداً ، فقد مرت ثلاثة أشهر .

ظل « جون هوايتسايد » يذكر كيف قرأ عليه والده كتب المؤلفين العظام الثلاثة « هيرودوت » ، و « توسيدايدس » و « كزنيفون » . لقد أصبح غليونه الأبيض أحمر اللون وداكناً من كثرة الاستعمال ، وكان « ريتشارد » يمسكه بيده وهو يقول :

- التاريخ بكامله يكمن هنا ، فكل ما يتمكن الإنسان من عمله مسجل في صفحات هذه الكتب : الحب ، والتحايل ، والغش ، وقصر النظر ، والشجاعة ، والنبل ، وحزن الإنسان ، كلها هنا . يمكنك يا « جون » أن تحكم على مستقبل البشرية من هذه الكتب ، فكل ما حدث في الزمن الماضي مُدَوَّن في هذه الكتب ، وإذا ما قارنا التوراة بهذه الأسفار نجدتها سجلاً ناقصاً لشعب غامض .

كان « جون » يذكر أيضاً شعور والده نحو البيت ، وكيف أنه رمز الأسرة ، بل معبد مُعدَّد من أجلها .

كان « جون » في سنته الدراسية الأخيرة في جامعة « هارفاد » عندما توفي والده فجأة بذات الرئة ، فكتبت إليه أمه تطلب منه إتمام دراسته قبل أن يعود قائلة :

- لن تتمكن الآن من فعل أى شىء لم يتم عمله ، ولقد أوصى والدك بأن تتم دراستك .

وعندما عاد أخيراً إلى البيت وجد أمه قد بلغ من الكبر عتياً ، فهي لا تقوى على ترك فراشها .

جلس « جون » بالقرب منها ليستمع إلى وصف أيام والده الأخيرة فقالت :

- طلب منى أن أقول لك شيئاً واحداً . . اجعلى « جون » يفهم أن عليه أن يستمر بنا . أود أن أحيا في أجيال أحفادى . وأصيب والدك بالهذيان بعد ذلك لمدة يومين لم يتكلم خلالها إلا عن الأولاد فقط ، فقد كان يسمعهم يصعدون ويهبطون الدرج ، ويشعر بهم يسحبون الغطاء من فوق فراشه ، فكان يريد أن يحتضنهم بذراعيه ، وقبل النهاية بقليل فارقته أحلامه ، كان سعيداً وهو يقول : « لقد رأيت المستقبل . . سيكون هناك عدد كبير من الأطفال في هذا البيت . . إنى راضٍ تماماً يا « أليسيا » .

كان « جون » يستمع إليها وقد وضع رأسه بين راحيته ، وقالت له بلهجة جافة صارخة وهي ترفع جسدها - وهي التى لم تقاوم شيئاً في حياتها ، بل سلمت جميع مشاكلها للزمن :

- هيا تزوج ، أريد أن أشهد زواجك . أريدها امرأة قوية تقدر على إنجاب الأطفال . إننى لم أتمكن من الإنجاب بعدك ، كنت أود لو أنجبت

طفلاً آخر ولو كان في ذلك موتى . أسرع بالبحث عن زوجتك ، أريد أن أراها .

استلقت مسترخية فوق وسائدها والتعاسة تملأ عينيها وقد فارقت وجهها ابتسامة العلم بالأشياء .

ومرت ست سنوات ولم يتزوج « جون » ، وكبرت والدته ، وجفت أعضاؤها حتى أصبحت هيكلاً مُغَطَّى بجلد أزرق يكاد يكشف عمّا تحته ، ولكنها بقيت متعلقة بالحياة ، ونظراتها المؤنبة تلاحق ابنها الذي كان يشعر بالحنج كلما نظر إليها .

أخيراً زاره زميل له من أيام الدراسة مع شقيقته « ويللا » ، وبقياً في ضيافة « آل هوايتسايد » شهراً ، تقدم « جون » في آخره بطلب يد « ويللا » التي قبلت به زوجاً ، ولما أخبر والدته بذلك طلبت الاختلاء بالفتاة ، وبعد نصف ساعة خرجت « ويللا » من الغرفة وقد تضرج وجهها بشدة . فبادرها « جون » قائلاً :

- ما الذي حدث يا عزيزتي ؟

- لا شيء . كل شيء على مايرام ، لقد سألتني أسئلة عديدة ثم حدثت في وقتاً طويلاً .

فقال مبرراً :

- إنها مُسِنَّة وقد ضعف وعيها .

وعندما دخل غرفة والدته كانت ابتسامتها الغامضة قد حلت مكان نظرتها المحمومة المقطبة فقالت :

- كل شيء على مايرام . بودى لو رأيتُ أطفالك ، ولكنى لن أتمكن من ذلك ، فقد تعلقت بالحياة بقدر ما استطعت حتى خارت قواى وتعبت .
وكاد « جون » أن يرى إرادتها القوية المسيطرة على جسدها النحيل تخور.
وفى تلك الليلة فقدت وعيها ، وبعد ثلاثة أيام فارقت الحياة بهدوء وسلام ، كما لو كانت تغط في نوم عميق .

لم تكن نظرة « جون » إلى بيته كنظرة والده ، فقد كان يفوقه حباً ، إذ اعتبره الغلاف الخارجى لجسده ، وكما كان بوسع ذهنه أن يغادر جسده ليطوف بعيداً ، فقد كان بوسعه أن يغادر البيت ليعود إليه كما يفعل الذهن عندما ينتهى شروده ، فكان يعيد طلاء البيت باللون الأبيض مرة كل عامين ، ويشرف بنفسه على زرع الحديقة وتقليم أعشابها ، ولكنه لم يحتل المكانة الكبرى التي كانت لوالده فى الوادى ، فقد كان أقل عبوساً منه وأقل حزمًا ، أما الغليون الأبيض فقد أصبح فى عهده داكنًا بل أسود تقريباً.

وبينما كانت « أليسيا » هادئة منطوية على نفسها ومهيبية ، فإنها جعلت سكان الوادى يشعرون - على الرغم من لطفها وكرمها وطيب معاملتها ، ومراعاتها لشعورهم - بأنهم كالفلاحين المأجورين الذين يزورون قصر السيدة، أما «ويللا» فقد أحببت الوادى منذ رأته ، وكانت تهوى القيام بزيارة نساء أهل الوادى والجلوس معهن فى مطابخهن ، وهن يشربن الشاي الثقيل ويثرثن فى أمور بيوتهن ، ولقد برهنت على درايتها بالوصفات والأكلات ، وأصبحت جاراتها ينادينها باسمها الأول .

وربما يعود الفضل إليها فى تحول « جون » إلى رجل اجتماعى أليف،

فقد زالت عنه السلطة التي كانت يتمتع بها والده لترفعه عن الناس وانزوائه ، فجون يحب جيرانه ، ويجلس على مقعده في الشرفة أيام الصيف القائظة يستضيف كل من يوم به ، وكان الجميع يتحدثون في السياسة ، وهم يتناولون شراب الليمون . كانت نظرة «جون» إلى الحياة نظرة ساخرة ، بعيدة عن التعصب السياسى والدينى الذى يسمم أجواء المقاطعات الريفية . . كان يقرأ من كتبه الثلاثة مقاطع عن حالة العالم قديماً ، والمشابهة للحالة الآن ، فيفض النقاش المحتدم بين الجميع . كان مثل والده يحترم ويجب تراث الأقدمين . وكان يدعو يوم الأحد بعض الجيران والقسم المتجول إلى الغداء ، ويجلسون في جو وديئ متسامح .

كان «جون» يتمتع بكل هذه الأمور ، وكانت غرفة الصالون هي محور حياته ، فقد كانت مقاعدها المريحة ولوحاتها المعلقة على الجدران جزءاً منه ، ومع كل مساء كان يبلغ سروره مداه والنار مشتعلة في المدفأة وهو يجلس في مقعده المريح يداعب غليونه ويقرأ كتبه الزراعية ، في حين تجلس «ويللا» بالقرب من النور تطرز . ويغلق «جون» كتابه ويتجه إلى مكتبه .

- ما الذى تحاول عمله الآن ؟

- أودمراجعة بعض الأمور .

ويختفى خلف مكتبه ساعة ثم يقول :

- استمعى إلى هذا يا «ويللا» .

تبسم «ويللا» وهي تقول :

- عرفت . . بعض الشعر .

ويقرأ لها الشعر وينتظر ، وتصمت مراعاة لشعوره ، ويطول صمتها :

- لا أظنه شعراً ممتازاً .

يضحك بحسرة :

- لا . . . ليس ممتازاً .

ويكور الأوراق ويقذف بها إلى النار :

- أعتقدت أنه سيكون شعراً ممتازاً .

- ما الذى كنت تقرؤه ؟

- كنت أطلع شعر « فرجيل » وحاولت أن أقوم بمحاولة شعرية .

ويغلق مكتبه ويتلقى كتاباً يعود به إلى مقعده .

تمتد حياة الناس عادة في خط بياني منحني ، فهناك الطموح وخيبة الأمل وانتظار الموت ، ولكن حياة « جون » امتدت في خط مستقيم ، لم يكن طموحاً ، ومع هذا أعطته مزرعته ما جعله يستأجر مَنْ يقومون برعايتها بدلاً منه ، ولم يكن يرغب في شيء لا يملكه أو تمنعه إمكانياته من امتلاكه ، ولهذا فهو يتمتع باللحظة التي يعيش فيها ، فقد عرف كيف يعيش حياة رغدة فريدة في طابعها .

شيء واحد كان ينقصه ، هو أنه لم ينجب ، على الرغم من أن حنينه إلى الأطفال يُهاثل حنين والده . وكذلك « ويللا » كان حنينها مماثلاً له ، على الرغم من أن هذا الموضوع كان يربكهما ، فلم يبحثاه قط .

مرت ثمانية أعوام على زواجهما ، وحملت « ويللا » بالمصادفة ، ومرت فترة الحمل طبيعية ، كما وضعت وليداً سليماً .

لم تتكرر المعجزة ، ومع هذا كانا يشعران بامتنان ، واستيقظت في «جون» الرغبة القديمة في تخليد الذات بعد أن هجعت ، وحوّله شعوره بالمسئولية تجاه الأجيال القادمة إلى سيد للمزرعة .

لم تتغير « ويللا » كزوجها ، فقد اعتبرت ولادة « ويليام » حدثاً طبيعياً .

- سأل جون زوجته :

- أتظنينه على شيء من الذكاء ؟

- إنه ولد عادى .

- ولكنه ينمو ببطء .

في عيد ميلاده العاشر فتح « جون » كتاب « هيرودوت » وقرأ على ابنه المحقق فيه ، وبعد أسبوع وهو يقرأ له لاحظ « ويللا » وهي تضحك منه فسألها :

- ماذا بك ؟

- انظرُ تحت مقعدك .

تنحنى « جون » فرأى ابنه وقد بنى بيتاً من أعواد الكبريت ولم يشعر بالقراءة ، فسألها جون :

- لم يكن يصغى ؟

- لم يستمع إلى كلمة منذ الليلة الأولى .

أغلت « جون » الكتاب وأعادته إلى مكانه ثم قال :

- ربما لا يزال صغيراً ، سأنتظر عاماً آخر .

- لن يعجبه الأمر فهو ليس مثلك أو مثل والدك .

وسأل يائساً :

- مالذى يستهويه إذًا؟

- الأشياء التى تستهوى باقى أطفال الوادى ، مثل البنادق ، والخيل ،
والبقر ، والكلاب .

- أخبرينى بالحقيقة : هل هو معتوه؟

- لا . . إنه أكثر ذكاءً وواقعية منك .

شعر « جون » أن اهتمامه بالأرض يتسرب منه ، فالمزرعة فى أمان ، البيت
فى أمان ، والولد ليس معتوهاً ، فقد أظهر ميلاً إلى الأعمال الميكانيكية .
ولاحظ « جون » ميزة أخرى فى الطفل ، وهى حسه التجارى ، فكان يبيع
لُعبَهُ إلى الأولاد ثم يشتريها بثمان أقل ، ثم يبيعها إلى آخرين بثمان أكبر .

وعندما أهداه والده عجلًا صغيرًا قايض عليه بعدد من الخنازير ،
ويذكر الأب أنه عندما تلقى هدية والده عجلًا مماثلًا احتفظ به حتى مات .

عاد « جون » إلى مقعده المريح وغليونه الداكن وكتبه الممتعة ، كما عاد
إلى أهالى الوادى الذين انتخبوه أمين سر مجلس إدارة المدرسة ، وبدأ
المشيبي يقتحم رأسه .

قليلة هى البيوت القديمة فى غربى أمريكا ، ونادرة البيوت التى عاش
فيها جيل بعد جيل ، لذا كانوا ينظرون إلى هذا البيت بنوع من الاحترام ،
فالأمريكى عادة لا يستقر فى مكان .

لم يمضِ وقت طويل على انتقال « بيرت مونرو » إلى الوادى ، حتى عرف

أهمية « جون هويتسايد » ، وسرعان ما انضم إلى حلقة البيت وانتخب
عضوًا في مجلس الإدارة . وفي أحد الاجتماعات استشهد « جون » بأقوال
« هويتسايد » ، فاقترب « بيرت » من « جون » بعد الاجتماع قائلاً :
- هل لى يا سيد « هويتسايد » أن أسألك عن الكتاب الذى ذكرته
الليلة؟

أمسك « جون » بالكتاب قائلاً :

- أتعنى حروب البلوبونيز؟

- أود لو أعرتنى إياه لأقرأه .

- تردد « جون » ثم قال :

- طبعاً . . إنه من كتب والدى .

قامت رابطة قوية بينهما ، بعد عام ونصف دخل ابن « جون » ذات
مساء وهو يقرر فى عصبته :

- قررت الزواج .

وصرخ « جون » :

- ماهذا ؟ . . لمَ لم تُخبرنا ؟ . . ومن هى الفتاة؟

- « ماى مونرو » .

وفجأة أدرك « جون » أن الخبر سار فقال :

- آه . . أنا مسرور ، إنها فتاة رائعة أليس كذلك يا « ويللا »؟

تجنبت « ويللا » نظراته ، وقالت لابنها :

- متى يكون الزواج؟
- قريباً بعد إعداد البيت في « مونتيري » .
- وقف « جون » وأشعل غليونه ، ثم عاد إلى مقعده قائلاً :
- لماذا كتبت الأمر عنا ولم تخبرنا به ؟
- صمت الفتى . فقال « جون » :
- تقول إنك ستعيش في « مونتيري » ، ومعنى هذا أنك لن تأتي
بزوجتك لتعيشا هنا . . أَلن تعنى بالمرعة ؟ !
- هَزَّ الفتى رأسه . . فقال « جون » :
- هل تخجل من شيء هنا ؟
- كلا . . ولكن لا أحب التحدث في أمورى الخاصة .
- وتساءل أبوه بمرارة :
- ألا تظن أن الأمر يعنيننا نحن أيضاً ؟
- قاطعته الفتى قائلاً :
- تربت « ماى » في المدينة ولا تحب الوادى وحياته الرتيبة الخالية .
- آه . . فهمت ما تعنى .
- وعندما عرفت أنها تفضل المدينة شاركت في وكالة لبيع سيارات
فورد .
- هز « جون » رأسه وقال :
- يمكننا تغيير غرف هذا البيت .

- لكنها لا تحب سكنى الريف .

قالت « ويللا » بحزم :

- انظر إلى والدك .

رفع « جون » رأسه وابتسم قائلاً :

- سيسوى الأمر حسب رغبتك ، فهل لديك المال الكافي ؟

- طبعاً ، نحن نبني بيتاً كبيراً بالنسبة لاثنين ، وربما عشتما أنت وأمي

معنا .

استمرت الابتسامة على وجه « جون » وهو يقول :

- وأمر هذا البيت وهذه المزرعة ؟

- تحدثنا في هذا أيضاً ، ويمكن بيع المزرعة والحياة في المدينة ،

ويمكنني بيعها خلال أسبوع .

تنهد « جون » وهو يسترخى على مقعده ، فقالت « ويللا » :

- لو كنت أعلم أنك ستصرخ يا « بيل » لكنت ضربتك بالعصا .

أشعل « جون » غليونته ثم قال :

- لن تستطيع البقاء بعيداً عن البيت طويلاً ، ستُصاب بالحنين ،

فهذا المكان في دمك ، وعندما تُرزق بأولاد ستعرف أنهم لابد أن يعيشوا

فيه . بوسعك الاغتراب فترة ، ولكنك لن تستطيع البقاء بعيداً عنه . سنتنظر

، ونعتنى بالبيت ، ونشذب حديقته ، وسيلعب أولادك في مبنى خزان

المياه . كدت أنسى أن والدي مات وهو يحلم بالأطفال .

تمت « ويللا » :

- بإمكانى أن أضربه بالعصا .

غادر « بيل الغرفة مرتبكاً ، وردّد « جون » بعد ذهابه :

- سيعود .

قالت زوجته بتجهم :

- طبعاً سيعود .

انتفض « جون » وهو يرفع راسه ناظراً إليها بريبة قائلاً :

- أحقاً تظنين ذلك ؟

أم إنك تقولينه مُجاملةً ؟ إن المجاملة تشعرنى بالهزيمة .

- طبعاً أعنى ذلك .

في أواخر هذا الصيف تزوج « بيل » وانتقل إلى بيته في « مونتيرى » .
وشعر « جون » أثناء فصل الخريف بالقلق نفسه الذى شعر به قبل مولد
« بيل » ، فطلا المنزل ، ونسق الحديقة ، وقال لبيرت مونرو :

- الأرض لا تنتج كفاية ، فقد أهملت كثيراً .

- نعم فلا نستغل كل الإمكانيات ، ولذا أتساءل : لماذا تقتنى قطع
غنم وهضابك تستطيع أن تكفى قدرًا من الماشية .

- كان لدينا قطع أيام والدى ولكنى أهملت الأرض فتكاثف
العشب .

- أحرق هذه الأعشاب ، فيبقى لديك أخصب مرعى في الربيع القادم .
- فكرة رائعة ، مع أن العشب يمتد إلى المنزل ، ويلزمنى معونة عدد كبير من الرجال .

- سأساعدك وأجلب معى « جيمى » بالإضافة إلى الخمسة العاملين .
نتنظر المطر ونعمل صباحاً قبل هبوب الريح .

حل فصل الخريف مبكراً فى ذلك العام ، وجاء أكتوبر ، فاصفرت كاللهب أوراق الصفصاف المجاورة لجداول « مراعى الفردوس » ، وأخذت أسراب البط تطير فى السماء على علو شاهق متجهة جنوباً . . وبينما كان البط الأليف فى المزرعة يرفرف بأجنحته ويمد أعناقه ويطلق نقيق الحنين ، كانت أسراب الزراير تحوم فوق المراعى ، أما الجو فقد تلبد بصقيع مبكر .

كان « جون » يتبرم من الشتاء ، وكان يقضى يومه فى الحديقة يشارك العمال فى تشذيب الأشجار .

صباحاً ذات ليلة على صوت المطر الخفيف المنهمر خارج البيت ، فقال بهدوء :

- هل أنتِ مستيقظة يا « ويللا » ؟

- طبعاً .

- هذه باكورة أمطار الموسم فاستمعى إليها .

فقال بلطف :

- كنت مستيقظة عندما بدأ المطر ينهمر ، وقد أضعت على نفسك

القسم الأفضل ، أعنى القسم العاصف ، فقد كنت تشخر فى نومك .

- لن يطول انهاره ، فهذه البواكير تهطل لإزالة التراب فقط .

أشرقت الشمس فى صباح اليوم التالى ، وقد بدا كل شىء يلمع فى أشعتها بعد أن غسلته مياه الأمطار ، وعندما ذهب « بيرت مونزو » بصحبة « جيمى » إلى مطبخ « آل هوايتسايد » كان هؤلاء قد انتهوا من طعام الإفطار ، فقال « بيرت » :

- صباح الخير ياسيدتى ، صباح الخير يا « جون » ، أظن الوقت ملائماً لحرق الأعشاب ، فأمطار البارحة كانت طيبة .

- فكرة طيبة ولكن اجلس قليلاً وتناول القهوة .

- انتهيتُ من الفطور وليس بإمكانى تناول أى شىء .

- وأنت يا « جيمى » ؟ هل لك من قهوة ؟

- لن أقوى على ذلك .

- هلمَّ إذًا قبل أن ييبس العُشب .

نزل « جون » إلى القبو فأخرج منه « تنكّ الجاز » ، فلما عاد الأجيران من الحديقة وزع « جون » على الجميع أكياساً مبتلة .

قال « بيرت » :

- إنه الوقت الملائم ، فليس هنالك من ريح . لنبدأ هنا يا « جون » فنقف بين النار والبيت حتى نحرق القطعة المحيطة بالمنزل ، فلا يصح أن نعرضه للخطر .

دفع « جون » بالمشعل إلى الأعشاب السميكة التي بدأت بالاشتعال وهي تطلق وتنكسر بضراوة ، وقد علا هيب النيران والرجال خلفها يطفئون رمادها ببطء بأكياسهم المبللة ، وهي تتجه نحو التل ، حتى صرخ « بيرت » قائلاً :

- ابتعدنا بما فيه الكفاية عن المنزل ، ويجدر الصعود إلى رأس التل لإشعال النار هناك .

بدأ الصعود برفقة « جيمي » . . وإذ ذاك هبَّت زوبعة خريفية على منحدر التل ، متجهة نحو النار ، فحملت معها بعض شرر النيران إلى المنزل ، وفجأة تقوض الأعصار فعاد « جيمي » و « بيرت » ركضاً إلى رفاقهما ، وداروا جميعهم حول البيت فأطفئوا كل شرارة أو جمر ، وقال «جون» :

- من حُسن حظنا أننا رأينا هذه الزوبعة الصغيرة فمثل هذه الأشياء التافهة يمكن أن تحرق البيت .

عاد « بيرت » و « جيمي » إلى قمة التل وأشعلا فيه النار ، في حين تبع « جون » مع مساعديه النار المبتعدة عن البيت نحو التل .

كان الجو ملبداً بالغيوم وقد أزرَقَ لونه بالدخان . وفي ربع ساعة كان المرعى قد احترق تماماً .

وفجأة عدت من البيت صرخة حادة ، وكان دخان الأعشاب المحروقة يكاد يجلب المنزل عن الرجال الخمسة الذين سارعوا بالعودة راكضين ، ورأوا من خلال الدخان - وقد خفَّت كثافته - النار تتصاعد من إحدى النوافذ العليا ، و « ويللا » تركض باتجاههم على الأرض المحترقة .

وقف « جون » عندما وصل إليها فصرخت .
- سمعت صوتاً في القبو ، ولما فتحتُ بابه هجمت النار إلى أرجاء البيت .

وصل « بيرت » و « جيمى » فصرخ الأول :
- هل توجد خراطيم المياه في غرفة الخزان ؟
أزاح « جون » نظره العالق بالبيت المحترق ، وقال بتردد :
- لست أدرى .

سحبه « بيرت » من ذراعة قائلاً :
- هيا بنا ، ماذا تنتظر يا رجل ؟ هيا بنا ، فبوسعنا إنقاذ بعض الأثاث
خلص « جون » ذراعه من قبضة « بيرت » ومشى نحو البيت وهو يقول :
- لا أود إنقاذ أى شىء منه .

فصرخ « بيرت » وهو يركض نحو الخزان بحثاً عن المياه :
- أنت مجنون .

كانت ألسنة الدخان والنار تندلع من النوافذ ، وتعالى هدير الاحتراق
من داخل المنزل القديم الذى كان يناضل فى سبيل حياته ، ومشى أحد
المساعدين وجاور « جون » قائلاً :

- لو كانت النافذة مغلقة لكان لنا بعض الأمل ، على أن هذا البيت
بالغ الجفاف يراوجه تيار كتيار المدفأة .

وجاءت « ويللا » فنظرت إليه ثم وقفت بالقرب منه هادئة . . . بدأ

الدخان يندلع من جدران البيت الخارجية ، في حين اتجه « جون » نحو
كوخه الخشبي وجلس على صندوق النشارة .

كان البيت يزجر بهدير ريح عاصف ، وحدث شىء غريب رهيب ،
فقد تهدم الحائط الجانبى وهبط إلى الخارج ، فبدت على ارتفاع ١٢ قدماً من
الأرض غرفة الصالون والنار لم تمسها بعد ، وفيما هم ينظرون إلى ألسنة
اللهب الطويلة وهى تندفع إلى الغرفة ارتجفت المقاعد الجلدية من الحرارة ،
كما لو كانت مخلوقات حية ، وتحطم زجاج اللوحات ، وظهر الغليون
بوضوح فوق المدفأة ، ثم حجب اللهب الغرفة ، وتهدم السقف البلاطى
الثقيل ، فهدم الجدران بوطأته ، ثم تحول البيت إلى كتلة عديمة الشكل
من النار .

عاد « بيرت » فوقف بالقرب من « جون » مستسلياً ، وهو يقول :

- كان هذا من الإعصار ، ولا بد أن شرارة قد انحدرت إلى القبو وأشعلت
الجاز الموجود فيه .

نظر إليه « جون » بسخرية مذعورة فقال :

- نعم ياسيدى ، لابد أن يكون الجاز قد اشتعل .

أخذت النار تشتعل دون عائق بعد أن أحرزت نصرها ، فى حين
ارتفعت ألسنة اللهب إلى الفضاء ولم يعد ما تأكله يشبه البيت إطلاقاً .
وقف « جون » محققاً فى النار المتصاعدة ثم انتصب متنهداً ، وهو يرنو إلى
حيث كانت غرفة الصالون ، وقال :

- لقد انتهى الأمر . أعتقد أننى أعرف الآن شعور الروح وهى ترى

جسدها يُدفن في الأرض ويغيب في بطن الثرى ، دعنا نذهب إلى بيتك يا «بيرت» فإنى أود مخابرة «بيل» فقد يكون لديه غرفة لنا .

- لم لا تبقى معنا؟ لدينا الكثير من الغرف .

- لا . . سنذهب إلى «بيل» .

التفت إلى الأبقاض المشنعة ، فاقتربت منه «ويللا» مآدةً يدها لتمسك بذراعه ، ولكنها عادت فسحبتها قبل أن تمسه ، ورأى «جون» حركتها هذه فقال :

- كان بودى إنقاذ غليونى .

قال «بيرت» بعاطفة فياضة :

- نعم ياسيدى فقد كان أحسن غليون رآته عيناى . . هناك في المتحف ، ولكن لا يئائله .

قال «جون» متأثراً

- نعم . . مضى عليه زمن وهو يُستخدم للتدخين . . وكان ذا مذاقٍ طيب !

في الثانية مساءً غادرت سيارة السياحة محطة «مونتيرى» لجولة في شبه الجزيرة . كانت السيارة تعبر طرقات الرحلة المنظمة بامتداد سبعة عشر ميلاً ، كان المسافرون يطلون على البيوت الضخمة ، وشعر المسافرون وهم يتطلعون عبر النوافذ بأنهم كاللصوص الممتازين .

كانت السيارة تزحف عبر المدينة وفوق التل متجهة إلى دير إرسالية «كارميلو» بقبته المائلة ، فلما وصلت انحرفت إلى جانب الطريق حيث

أوقفها السائق ، في حين كان الدليل يقود المسافرين إلى الكنيسة القديمة .

وعندما عادوا إلى السيارة كانت الحواجز قد انهارت فقال رجل :

- هل سمعتم ما قاله الدليل ؟ إن الكنيسة مبنية كالسفينة بقاعدة صخرية ومرساة غائصة في أعماق الأرض تحت البناء ، ومفعولها أثناء الزلازل كمفعول السفينة في العواصف . ردَّ كاهن شاب ذو وجه متورد ، وهو فخور بثوبه الكهنوتي :

- بل حدثت عدة زلازل وبناء الإرسالية لا يزال باقياً في مكانه ، على الرغم من أنه مبنى من الطوب فقط .

اشترك في الحديث رجل قوى البنية متلهف العينين قال :

- كثيراً ما تحدث أشياء مضحكة غريبة . . توفيت زوجتى خلال العام الماضى بعد زواج خمسين عاماً .

ونظر حوله مبتسماً في انتظار تعليق .

وكان يجلس في السيارة عروسان يقضيان شهر العسل تشابكت أيديهما ، فقال العريس :

- أسأل : أين نحن ذاهبون الآن ؟

استمرت السيارة في سيرها البطيء متسلقة وادى « الكرمل » ، فتخطت البساتين والحقول ، وقمة صخرية حمراء تسلقتها الحشائش الخضراء .

كان الأصيل قد بدأ يحتضر ، فقد انحدرت الشمس إلى مدخل الوادى المطل على البحر ، وبدأ الطريق يبتعد عن نهر « الكرمل » متسلقاً سفوح

التلال حتى وصل إلى قمة ضيقة ، حيث أوقف السائق السيارة ودار بها إلى جانب الطريق ، فأطفأ محركها ، ثم التفت إلى المسافرين قائلاً :
- هذه آخر نقطة نصل إليها ، فربما كان بينكم من يود النزول والتنزه قليلاً ، وسأستريح أنا بعض الوقت .

ترك المسافرون مقاعدهم ووقفوا فوق القمة الصغيرة يتأملون « مراعى الفردوس » كان الجو مغلفاً بأشعة شمس المغيب كغلالة ذهبية تلف المنظر أمامهم ، فوق أرض الوادى المقسمة إلى مربعات من البساتين الخضراء وحقول الذرة الصفراء ، والأرض المفلوحة البنفسجية ، وكان يتصاعد من البيوت المبنية المحاطة بالحدائق دخان نيران المساء ، يحمله النسيم بعيداً عن سماء الوادى . وتعالت أصوات الأجراس المعلقة بأعناق البقر ، وهى ترعى فى الوادى ، ومن بعيد وصل إليهم نباح كلب وكأنه همسات صغيرة متقطعة ، وتجمع تحت القمة التى يقفون عليها قطيع غنم قرب شجرة سنديان باسقة ، وقال السائق :

- هذا المكان اسمه « باستوراس ديل شيلو » وهو شهير بزراعة الخضروات والفواكه ، لأنها تنضج مبكراً ، أما معنى الاسم فهو « مراعى الفردوس » .

تأمل المسافرون الوادى أمامهم ، فتنحنح رجلٌ وقال بصوت تملؤه رنة التنبؤ :

- إذا ما صدق حدسى فسيشاهد فى هذا الوادى بيوت كبيرة مبنية بالحجارة ، لها أبواب حديدية كبيرة مزخرفة ، وتحيط بها الحدائق الغناء ، وستملأ الملاعب الخاصة بالجولف هذا الوادى ، وسيأتى رجال أغنياء

ليعيشوا فيه ، رجال أتعبهم العمل في المدينة ، رجال جمعوا الكثير من المال فباتوا ينشدون مكاناً هادئاً ليستقروا فيه ويستريحوا ويتمتعوا بالحياة . لو كان لكديّ المال الكافي لا شترت هذا المكان واحتفظت به مدة ثم قسمته قطعاً للبيع .

سكت قليلاً ثم لوح بيده واستطرد :

- نعم وعشت فيه أيضاً .

نبهته زوجته قائلة :

- هس .

التفت حوله وشعور الإثم يملأ نفسه ، فلم يجد أحداً يستمع إليه . كان ظل التلال الأرجواني يزحف وسط الوادى ، ومن الأسفل علت صرخة خنزير غاضب ، فرجع الشاب نظره عن الوادى وتطلع إلى عروسه بنظرة معبرة وابتسم ، فابتسمت ابتسامة تأنيب تقول :

- أكاد أترك نفسى أفكر فى احتمال الأمر . . سيكون جميلاً لو تحقق . .
ولكنى لا أقدر أن أحققه .

أجابت بابتسامتها :

- طبعاً لا يمكنك ذلك ، فطموحك هو ما يجب أن نفكر فيه ، وكل الأصدقاء يرجون الكثير منا . فينبغى أن تكون لك شهرة يجب أن تسعى وراءها وتحققها حتى أكون فخورة بك . ولا يمكنك التهرب من المسؤولية للاختفاء فى مكان كهذا ، برغم أنه قد يكون جميلاً لو تحقق ما يراودك .

انحسرت البسمة بحنان واستقرت فى أعينها .

مشى الكاهن وحيثاً وهو يردد صلاته ، ولكن الخبرة علّمته أن يصلى
وهو يفكر في أشياء أخرى ، فأخذ يحدث نفسه :

- قد تكون هناك كنيسة صغيرة هنا حيث لا فقّر ولا روائح كريهة ، ولا
اضطرابات ، وقد تعترف رعيتي بخطايا بسيطة يكفى للتحلل منها ترديد
صلاة « السلام عليك يا مريم » مرات قليلة . . إنه مكان يعمه الهدوء ولن
يكون مسرحاً للقاذورات وأعمال العنف التي تؤلمني وتدفعني إلى الشك أو
الخنجل ، سيحبني سكان هذه البيوت وسينادونني : يا أبت ، وسأكون مُحِقّاً
بينهم .

قطب الكاهن جبينه هو يُبعد عنه هذه الأفكار قائلاً :

- لست كاهناً صالحاً ، سأكفر عن هذا بالعمل بين الفقراء وسط
رائحتهم وبين نزاعاتهم ، لا يمكنني التهرب من المآسى التي يُقدرها الله .
وابتسم وهو يتابع تفكيره :

- ولكنني قد أجيء إلى مكان كهذا بعد موتى !

أمعن الرجل المسن النظر وهو يطل من النافذة ، وجاش الصمت في
أذنيه كنسمة تهب عبر شجرة سَرُو . . لم يكن يرى التلال البعيدة
بوضوح ، ولكنه كان يرى الأشعة الذهبية والظلال الأرجوانية ، فانبهرت
أنفاسه ، وتألقت الدموع في عينيه ، فضرب جبينه براحتيه بحركة استسلام
وهو يقول :

- لم أجد وقتاً للتفكير . فقد كنت منهمكاً في المشاكل . . لو هبطت إلى
هذا الوادي ولو عشت فيه فترة لفكرت في كل الأشياء التي وقعت لي ، ربما

أمكننى جمعها فى قطعة تحمل بين طياتها معنىً وهدفاً بدلاً من أن تظل هكذا . . فلن يكون هنالك شىءٌ يزعجنى ويبعدنى عن التفكير .

ألقى السائق بسيجارته وهرسها بقدمه قائلاً :

- هيا ، فعلينا أن نعود .

ساعدهم على الصعود إلى السيارة ، وأغلق أبوابها ، فى حين تجمعوا بالقرب من النوافذ يحدقون فى «مراعى الفردوس» ، والهواء يكتسب زرقاة البحيرة الصافية ، والمزارع يغمرها الهدوء .

واستطرد السائق قائلاً :

- إننى أفكر فى امتلاك قطعة صغيرة هنا ، يمكننى أن أربى فيها بقرة وخنازير وكلباً ، فمن الممكن أن يكتفى الإنسان بما تدره مزرعة صغيرة هنا .

وأدارَ المحرك فارتفع هدير السيارة ، ثم خفت ، ثم قال و السيارة تنحدر :

- قد تتصورون ما أقوله سخيفاً ، ولكنى أحب أن أنظر أسفل الوادى وأفكر كم تكون الحياة هادئة مريحة بالنسبة لمن يقدر على العيش فى مكان صغير كهذا .

رفع قدمه من على الفرامل فانطلقت السيارة مسرعة وهى تنحدر إلى وادى « الكرمل » الطويل ، نحو الشمس وهى تغيب خلف الأوقيانوس على أبواب الوادى .



شتاينبك ومراعى الفردوس

جون شتاينبك. ولد في السابع والعشرين من

فبراير عام ١٩٠٢ في مدينة سالييناس بولاية « كاليفورنيا » الأمريكية ، درس فيها بداية ولكنه انتقل إلى جامعة « ستانفورد » في عام ١٩١٩ وبدأت اهتماماته الأدبية تتبلور ، فاختير مساعداً لرئيس تحرير الصحيفة المدرسية ، وأخذ يقرأ الروايات والكتب الأدبية ، فتأثر كثيراً برواية « موت آرثر » التي ظهرت آثارها في رواياته بعد ذلك . . والغريب أنه درس بالجامعة علم البيولوجيا وتفوق فيه ، برغم زيارته المستمرة لمكتبة الجامعة قارئاً للقصاص والروايات - وخاصة لسنكلير لويس - ولم يحتل نوع الدراسة ، فترك الجامعة وهرب إلى باخرة بضائع في « سان فرانسيسكو » ، ثم إلى حقول الشعير والبنجر في إحدى المزارع ، وظهرت أعماله اليدوية هذه في بعض رواياته .

وعاد إلى الجامعة بعد عامين من العمل ، ولكن بعد تغيير دراسته إلى اللغة والصحافة ، مما أتاح له تجربة قلمه ، واستمرار محاولاته في كتابة القصص وقرض الشعر ، واستطاع أن ينشر في مجلة جامعة « ستانفورد » قصتين قصيرتين وثلاث قصائد . . وبرغم أنه وُفق في دراسته الجديدة فإنه ترك الجامعة قبل أن يحصل على شهادته ، فلم يكن يفكر في وظيفة .

نشرت أولى رواياته « كأس الذهب » عام ١٩٢٩ باسمه الحقيقي بعد أن نشر بعض قصصه القصيرة باسم جون شتين . . في العالم التالي مباشرة تزوج من فتاته كارول هيننج سكرتيرة الآلة الكاتبة ومراجعة النصوص في كاليفورنيا ، وكانا يصيدان الأسماك معاً في خليج الباسيفيك ليكملا طعامهما . . وفي عام ١٩٣٢ صدرت له رواية « مراعى الفردوس » ،

وكانت هذه الرواية بداية النضج الفكرى والفنى فى كتاباته ، ولكن نشرها لم يحقق له الاستقرار المادى ولا الاستقلال فى مهنة التأليف التى كان ينوى أن يتفرغ لها تماماً . . وراجت له قصتان : إحداهما باسم « فى الزجاجة الغامضة » ، فأشترى سيارة مستعملة سافر بها مع زوجته إلى المكسيك ، وكاد أن ينزلق فى هذا الاتجاه التجارى ، إلا أنه عاد إلى جدّيته وأصدر روايته الشهيرة « فئران ورجال » عام ١٩٣٧ ، وهى الرواية التى حوَّكها الكاتب المسرحى جورج كوفمان إلى مسرحية عرضت فى العام نفسه فى برودواى وفازت بجائزة الدراما . . وبعدها بعام واحد أصدر « الوادى الممتد » ، وهى قصص قصيرة خيالية . . وفى العام التالى - عام ١٩٣٨ - أصدر أشهر رواياته « عنقيد الغضب » ، وتدور حول العمال المهاجرين فى « كاليفورنيا » ، وقد أحدثت الرواية دوياً هائلاً فى الأوساط الإعلامية والأدبية ، وفازت بجائزة بوليتزر عام ١٩٤٠ ومُنح جون شتاينبك عضوية المعهد القومى للفنون والآداب .

وأوحت إليه الحرب العالمية الثانية الدائرة بعدد من التحقيقات والكتابات والمساهمات ، أبرزها اشتراكه فى كتابة قصص سينائية لهوليوود وخاصة فيلم « زورق النجاة » الذى أخرجه الفريد هيتشكوك ، وقامت ببطولته تالولا بانكهيد . . وبعد مشاجرات مستمرة مع زوجته تم الطلاق ، على الرغم من رحلة الكفاح التى جمعت بينهما وهما بعد فقيران يتحسسان طريق الشهرة والمال .

ولعل السينما تكون قد أثرت على اهتمامات جون شتاينبك وعلى سلوكه أيضاً ، بدليل زواجه فى العام التالى مباشرة - عام ١٩٤٣ - من الراقصة جوين فردون فى « نيو أورليانز » ، وأنجب منها ولدين . . وبعد انتهاء

الحرب ظل شتاينيك على علاقته باستوديوهات هوليوود ، فكتب قصة فيلم « المهر الأحمر » ، ثم فيلم « فيفا زاباتا » الشهير . . ومع هذا اعتبر النقاد أنها مرحلة « تدنّي » في مستواه الأدبي ، واتجاه مغاير لتطوره وقيمه . . وربما نتيجة للنقد القاسي الذي واجهه ، كتب رواية من أشهر رواياته وأنضجها أيضاً ، وهي رواية « مغيب القمر » عام ١٩٤٢ ، وتدور حول أحداث الحرب وويلاتها ، وقد نال عنها وساماً من ملك النرويج ، حتى قيل : إن البلد المذكور في الرواية دون اسم هو النرويج . . وفي عام ١٩٤٧ استمر على هذا المستوى فأصدر رواية « الأتوبيس العنيد » . . وفي العام نفسه كتب قصة « اللؤلؤة » . . بعدها عاد إلى المستوى « المتدني » في الكتابة ، وربما كان ذلك لطلاقه من زوجته الثانية وأم ولديه في عام ١٩٤٨ ، ونتيجة أيضاً لوفاة صديقه ريكييس في حادث تصادم سيارته بقطار .

وتزوج شتاينيك للمرة الثالثة عام ١٩٥٠ من آلين سكون ، ولعلها هي التي شجعتة على العودة إلى مستواه الرفيع في الكتابة ، فكتب روايته الشهيرة « شرق عدن » عام ١٩٥٢ . . واستقر شتاينيك مع هذه الزوجة في « نيويورك » التي أحبها كثيراً . . وبدأت اهتمامات سياسية وحزبية تظهر في حياته ، فاشترك في كتابة خطب الحملات الانتخابية لمرشح الحزب الديمقراطي ستيفنسون ، ثم عمل مستشاراً لصديقه الرئيس ليندون جونسون ، وقد نصح شتاينيك الرئيس بسحب قواته من « فيتنام » بعد أن قام بزيارة صحفية لها ، وكان ابنه الأكبر توم مشاركاً في القتال . وكان شتاينيك قد بلغ الرابعة والستين من عمره .

ونال جون شتاينيك ميدالية الحرية الأمريكية عام ١٩٦٤ عن جهوده

السياسية في ذلك الوقت ، وكان قد فاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٢ . . واختير أميناً عاماً لمكتبة جون كنيدي التذكارية ، كما أنتخب عضواً في مجلس الفنون القومي .

وقد أصيب شتاينبك بأزمات قلبية عديدة ، أولها في عام ١٩٦١ ، وآخرها في العشرين من ديسمبر عام ١٩٦٨ ، وقد أودت بحياته في هدوء بشقته بنيويورك . ورحل شتاينبك عن ستة وستين عاماً .

ومن الواضح أن أفضل كتابات شتاينبك هي تلك التي استقاها من المنطقة التي عاش فيها ، والأشخاص الذين عرفهم . . والمعروف عن «كاليفورنيا» أنها منطقة ثرية وخصبة وممتدة . . ويتميز أسلوب شتاينبك بالتهكم والسخرية وتصوير الشخصيات في مواقف مضحكة لا تُبَلَّ فيها، بل هي تتباهى بأعمالها الجريئة ، برغم التصرفات النافهة ، لأن تلك الأعمال تتسم بالتشوش وعدم الحقيقة . . ومع هذا فإن شتاينبك يتعاطف مع شخصياته المُعدّمة وحياتها البسيطة ، وتناقضاتها أيضاً ، لأن كان يرى أن كل شخص له نقاط قوة ونقاط ضعف . .

وقد تنوع إنتاج شتاينبك القصصى والروائى ، فهو يتناول حياة مواطنيه كما يتناول حياة المهاجرين ، ويتعرض للمشاكل الاقتصادية كما يتعرض للمشكلات الاجتماعية ، وينقد الأوضاع السياسية كما ينقد صراع الأحزاب، ويتحدث عن الريف والأراضى الزراعية كما يتحدث عن العمال والمصانع ، ويستنكر الدخول الضعيفة للمواطنين في الوقت الذى يستمتع فيه القلة بالثراء . . وفي هذا بدا شتاينبك كما لو كان اشتراكياً وسط المناخ الأمريكى الرأسمالى ، على الرغم من أنه لم يكن كذلك .

كان شتاينبك يبحث عن « الفردوس المفقود » في حياته الخاصة ، وقد

شدته الشخصيات التي تبحث مثله عن هذا الفردوس المفقود، وتعانى في سبيل ذلك ولا تصل إليه في نهاية الأمر . . صحيح أن شتاينبك لم يكن ينادى في رواياته بأيديولوجية ماركس ، ولم يكن يدعو لها ، ولكنه وقف إلى جانب البروليتاريا والطبقة العاملة بصفة خاصة ، وعبرَ عن النزاعات التي تشب بين الأثرياء والمعدمين متأثراً بالجو المحيط به .

وكان شتاينبك مُقنعاً في سرده للأحداث ، وفي تحليله للشخصيات ، وفي وصفه للمواقف ، الأمر الذي كان يؤدي دائماً إلى وحدة الرواية وبلورة جوهرها ، والغرض منها . . فهو يعرض وجهات النظر المختلفة ، ولا يتبنى وجهة نظر على حساب وجهة نظر أخرى ، ولا يفرض وجهة نظره الخاصة ، لأنه لا يعتمد على الأفكار ، وإنما يحلل ويشرح شخصيات تحرك وتتكلم وتناقش وتجادل وتختلف وتتفق .

ويعتمد شتاينبك في أسلوبه على الحوار اليومي المعروف ، واللغة العادية المألوفة ، ومن هنا نجد الكلمات العامية ، والاصطلاحات الشعبية ، والسباب ، والحركات ، والإيحاءات ، والتلميحات ، والإرشادات ، وكل ما يستخدمه الناس في الشارع ، وفي المصانع ، وفي كل مكان ، حسب طبيعة هذا المكان .

وتوقف عند رواية «عناقيد الغضب» التي وُضعت في مقدمة قائمة أكثر الكتب رواجاً منذ صدورها في مارس ١٩٣٩ حتى نهاية العام ، فقد وصل معدل البيع إلى ٢٥٠٠ نسخة يومياً ، وطبع ٤٣٠ ألف نسخة ، وقُدمت في السينما في فيلم بطولة هنرى فوندا ، وجون كارادين . وترجمت الرواية إلى الفرنسية والألمانية واليابانية والعربية بعد ذلك ، وتقرر تدريسها في المدارس . . أما نجاح هذه الرواية وشعبيتها فيرجع إلى تصوير

المهاجرين، وظروف المعيشة بشكل يمس المواطنين كافة ، وإلى حملة العداء في الصحف والجهات المسؤولة للرواية نفيًا لوقائعها ، وتهرباً من حقائقها ، الأمر الذي شكّل دعاية للرواية وجاء بنتائج عكسية ، هي رغبة الناس في الاطلاع عليها ، ووصول أخبارها إلى الدول الأخرى ، وترجمتها إلى لغات عديدة ، حتى أن بعض المكتبات والمدارس منعت تداول الرواية ، فزاد الطلب عليها ، على طريقة كل ممنوع مرغوب . . ولم يحتفل بالرواية سوى القراء ، وأيضاً نقاد الأدب الجادين الذين أشادوا بها كعملٍ أدبي ، بغض النظر عن مضمونها الذي أغضب الكثيرين ، فقد قال « إدوارد ويكس » : إنها عمل أدبي منظم وعظيم ، وقال « جوزيف هنرى جاكسون » : إنها صادقة وعميقة ورائعة المستوى . وشبهها النقاد بروايات العصر : « ذهب مع الريح » ، و « لمن تدق الأجراس » ، و « الحرب والسلام » ، وغيرها . .

واستقبلت رواية أخرى لشتاينبك بحماس شديد، على الرغم من اختلافها شكلاً ومضموناً عن « عناقيد الغضب » ، هي رواية « شرق عدن » التي تتسم بالرومانتيكية ، وتكشف عن روح المؤلف وحياته في السياق العام ، إذ يتحدث بضمير المخاطب في الأجزاء الثلاثة الأولى للرواية التي تضم أربعة أجزاء ، وهذه الرومانتيكية أدت بالتالي إلى استخدام أسلوب مختلف عن الأسلوب الواقعي ، فهو أسلوب هادئ مهذب رفيع المستوى ، والأحداث لا تلهث ، وعدد الشخصيات قليل ، والوصف أكثر ، والشاعرية أوضح ، كما أن شيئاً من الميلودراما غلّف الأحداث بالانتحار والموت .

أما رواية « مراعى الفردوس » فهي أولى روايات شتاينبك الكبرى . .

ولعل اسم هذه الرواية دليلاً على تأثر الكاتب بالوادي الذي عاش فيه صباه ، وبتلك الأحداث التي وقعت بشكل غريب ودخيل على المنطقة ، لمجرد وصول أسرة جديدة تتسبب في جريمة قتل ، وحادث انتحار ، ومشاجرات كثيرة ، وقدر كبير من التعاسة . . وهذه الأحداث هي التي أعاد الكاتب صياغتها مضافاً إليها تجاربة الخاصة ، وخياله القوى الخصب .

ويعود الكاتب إلى تاريخ هذا الوادي الذي يتحدد بعام ١٧٧٦ عندما اكتشفته أسرة باتل ، وأسرة ماستروفكي ، وأسرة أخرى ، وفجأة حلت اللعنة التي جلبت الأسى والفشل ، ليعانى شارك وتهتز سمعته كرجل مال موهوب ، ثم تولا الأبله ، الذي يوضع في إصلاحية ، وهيلدا المختلة عاطفياً التي يتسبب بيرت في موتها ، وتضطر إلى الرحيل أسرة جونبوس بعد متاعب اقتصادية ، وكذلك أسرة مورجان ، وتلتهم النيران منزل جون هوايتسايد . . وفي النهاية يجيء أوتوبيس محل بالسياح الذين يتطلعون إلى الوادي الجميل ويسبحون في أحلام وهمية بحياة سعيدة فيه .

إن هذه الرواية مكتوبة بمهارة ، وإن لم تكن الحرفية قد تأصلت بعُد في كاتبها ، ومن ثمّ فلتت منه مواقف وتحليلات وصياغات مهمة ، فالرواية تفتقد الوحدة ، وتبدو كما لو كانت قصصاً متفرقة جُمعت بلا رابط يضم الحلقات المنفصلة في سلسلة واحدة ، أو يصورها في بوتقة واحدة . . والكاتب يلمس تطلعات الطبقة المتوسطة التي تجلب آثاراً وخيمة ، ولكنه لا يتصاعد بالأحداث حتى ذروتها ، وإنما يفتعل الأحداث أحياناً ، ويلجأ إلى المصادفة أحياناً أخرى ، مما يعطى الانطباع بتفكك الرواية .

وعلى الرغم مما تقدم ، فإن شتاينيك كان يجرب وسائله ومواهبه من

حيث رسم الشخصيات ، وبناء الأنماط ، واستخدام الألفاظ وما وراء الألفاظ ، وطريقة السخرية والتهكم ، وأسلوب الوصف الذى أتاحت له الطبيعة الجميلة والوادي الخصب والأراضي الممتدة كل المواصفات التى تخدم الأسلوب ذاته . . وعلى الرغم من هذه المساحات الشاسعة فإن الكاتب قد تمكّن من الوصف الدقيق للأشياء والتفاصيل الدقيقة ، ولم يكتف بواقعية الأسلوب الروائى وإنما أضاف الرقة والشاعرية ، على الرغم من أنه يكتب بالشر وليس بالشعر . . وهكذا ينجح فى إظهار شخصيات تتسم بالقوة والضعف ، أ ، وهذه هى التركيبة الإنسانية الطبيعية ، ولا يوجد إنسان قوى دائماً ولا يوجد إنسان ضعيف على طول المدى .

ومكانة شتاينبك - وخاصة فى مطلع القرن العشرين - تُعد مكانة فريدة بالنسبة لمن ظهوروا فى مرحلته ، مثل هيمنجواى ، وفوكنر ، ودوس باسوس ، وفتزجيرالد ، فهو يختلف عنهم بداية فى أنه لم يغادر بلاده إلى أوطان أخرى يكتب فيها وعنّها . . وهو يُعدُّ كاتباً معارضاً - على الرغم من أنه لم يكن اشتراكياً - فقد وقف إلى جانب المعدمين والمطحونين ، دون أن يكون أيديولوجياً أو ثورياً ، ولكنه كان فقط واقعياً وطبيعياً أحياناً ، وإن تميّز عن هذه المذاهب والنزعات بلغته الشاعرية ، وروح الدعابة ، ومشاعر الشفقة . . وعلى الرغم من اهتمامه بالأرض فإنه كان يهتم أيضاً بالأسرة ، وهما محورا أعماله جميعاً . . فالطبيعة تؤثر على الإنسان وإن كان الإنسان يؤثر فيها . . ويهتم شتاينبك إلى جانب هذا بالرموز والرؤى الأخلاقية ، والتعاطف الإنسانى .

يقول شتاينبك فى خطاب فوزه بجائزة نوبل بتواضع وثقة وكبرياء :
«الأدب لا يكتبه القلّة للقلّة ، وصنّاع الأدب عليهم مسئوليات وواجبات

كبرى، أهمها تبيد الظلام، وتطهير النفس، والتأكيد على طاقة الإنسان، والإشادة بقدراته من منطلق الإيمان بقوى البشرية الخالقة التي سوف تبقى وتصمد وتسود . . . » .

خديجة خطاب



خديجة خطاب

تخرجت في كلية الإعلام -
جامعة القاهرة - قسم
الصحافة .

- عملت بالقسم الأدبي بجريدة الأهرام .
- التحقت بالتلفزيون بعد نجاحها في المسابقة ، مذبةة بالقناة الثانية .
- قدمت أول برامج عن السينما المصرية « سينما نعم ، سينما لا » ، كما قدمت أولى الرسائل عن معرض الكتاب ومهرجان المسرح التجريبي ومهرجان الإسماعيلية للسينما وقدمت عديداً من البرامج الثقافية .
- صدرت لها ترجمة مجموعة قصص قصيرة بعنوان « الشمس والقمر » .
- تحت الطبع مجموعة قصص بعنوان « قبل الرحيل » ورواية بعنوان « شكراً أكتفى بهذا القدر » .
- درست نظم الإدارة في بعثة تلفزيونية إلى اليابان .
- قامت بالتغطية التلفزيونية لتسليم جائزة نوبل لابنتي نجيب محفوظ في ستوكهولم .
- تشغل منصب رئيس قسم التعليم بالتلفزيون .

كلمة إلى القارئ

الذين فازوا "جائزة نوبل" في الآداب . هل فازوا بها
عن جهارة ؟ وهل فازوا بها لأسباب موضوعية ؟
هذه لسلسلة "وايات جائزة نوبل" ..

تصدر للإحابة عن هذه التساؤلات فرى لا تسقى ترجمته
أفضل رواية هو لاد الكتاب وأشهرها، ترجمة كاملة
وأمانة بلغة عربية رصينة وأسلوبه بهرغى عصرى، ولكن
تضمن الترجمة مقدمة تاريخية وافية عن الكاتب، وتحليلية
دقيقة عن فكره وأدبه ولغته وأسلوبه وروايته، حتى
جيد القارئ والدارس والاديب الناشئ، ما يسره ويفيده
ويبقي حاجته الثقافية ..

من هذا المنطلق لا بد من إعادة لفضل إلى أصحابه والاعتراف
بامتجاية ناشرنا طهقف «محمد شاد» لهذا المشروع لطموح ثقافياً
عظيم فغامراته الطادية في عالم النشر . والله لموفق دائماً

فتحي لعشرى



UNIVERSITÀ ALEXANDRINA
BIBLIOTECA ALEXANDRINA
0261313